المقتطف

الجزء الاول من المجلد التاسع والتسعين

١ يوليو سنة ١٩٤١ — ٦ جماد الاول سنة ١٣٦٠

النبات الخضر

والبحث عن سر الحياة والشفاء

لو كانت الارض تتلقى طاقة الشمس فحماً لا ضوءاً، لكان نصيب كل فدان من الارض كومة من الفحم تزن من سبعين الى ثمانين طناً في الشهر. فالعلماء يذهبون الى ان كل فدان من الارض يتلقى من ضوء الشمس وطاقتها قدراً يعادل طاقة ٢٤٣ طناً من الفحم في اثناء اشهر الصيف الثلاثة. ولكن الارض لا تستعمل من هذه الطاقة العظيمة سوى جزء يسير منها. والنبات دون غيره من الاحياء معدٌّ من قبل الطبيعة لاستعمالها، وبقية الطاقة تضيع جزافاً

فضوء الشمس أعظم وأرخص مورد للطاقة، لا تجاريه في ذلك أصناف الوقود المختلفة من فحم وفحط وغيرهما. ولكن النبات وحده قادر على استخدام ضوء الشمس وما فيه من طاقة. فالنبات يستطيع بفعل التركيب الضوئي ان يحول ثاني اكسيد الكربون المستخرج من الهواء والماء المنتشر من الارض الى سكر وغيره من المواد النشوية، وهذا تفاعل كيميائي عجز أبرع الكيميائيين حتى الآن عن مجاراته. وطريقة النبات في احداث هذا التفاعل ما فتئت لغزاً يحير ألباب العلماء، والتوصل الى سره غاية يحدى اليها ركابهم

وقد صاغ البحاثة تشارلز كيترنج هذا المعنى في عبارة تستوقف الانظار إذ قال « أريد أن أعرف سرَّ خضرة النبات ». ويذهب فريق غير يسير من العلماء الى ان العلم يخطو خطوة كبيرة نحو فهم سرّ الحياة متى استطاع رجاله ان يدركوا أسرار أساليب النبات في بناء المواد

اللازمة للغذاء من العناصر الأولية . بل سائر أنواع الأحياء تعتمد على ما يصنعهُ النبات من طعام

وليس بين المنتظر في دوائر العلم ، استعمال أسلوب التركيب الضوئي ، في صنع مواد الطعام صنعاً رخيصاً واسع النطاق . فملكة النبات بنوية هذا العمل الحيوي ، ولا نستطيع ان نجاريها فيه . ولكن اذا اكتشف سرّ تركيب الصولي ، تمكن العلماء من ابتكار الف طريقة وطريقة لاستعماله استعمالاً مفيداً ، ونظفر بايجادات غامضات شتى تبدو مستحيلة الآن . فقد يكون طريقهم مثلاً الى صنع المواد الايدروكربونية وهي الحاجة والمرام ، وصنع المواد الايدروكربونية ، يرفع عن الحضارة شبح الخوف من نفاد النفط في موارده الطبيعية . وظل تفاعلاته البالغة في صنعه من الفحم او غيره . وقد تكون طريقة التركيب الضوئي كذلك سبيلاً الى صنع مقادير كبيرة من الفيتامينات بغير نفقة تذكر

واليخضور (الكلوروفيل) هو مادة الخضراء في النبات التي تمتص ضوء الشمس وتستعمله . وهو مركب معقد يحتوي على الحديد والمغنيزيوم وغيرهما ويبني على غرار الحمرور (هيموجلوبين او المادة الحمراء في الدم) . ففي كل بوصة مربعة من سطح ورقة خضراء توجد ملايين من حبات اليخضور تحتويها خلايا خاصة . وفي الوسع استخراجها مادة خضراء غامقة ، وقد استخرجت فعلاً من عهد حديث واستعملت في علاج الزكام وغيره من الاصابة التي مردُّها الى البكتيريا

ولكنها متى وضعت في انبوب الاختبار والتجربة ، فقدت تلك المزايا الخاصة التي تمكنها وهي في الورقة الحية ، من امتصاص ضوء الشمس واستعماله في بناء المواد النشوية من الماء وثاني اكسيد الكربون

وقد قدّر العلماء ان مساحة تبلغ ذراعاً مربعاً من سطح الورق الأخضر ، تركب نحو أوقية من السكر في النهار أو نحو ثلاثة أرطال في فصل النمو ، ولا تحتاج في هذا التركيب الى مواد اولية غير ثاني اكسيد الكربون والماء . والنبات يستعمل هذا السكر في نموّه ثم يبدأ يخزنهُ

وقد تمكن العلماء من تحويل ثاني اكسيد الكربون والماء الى سكر في المعمل ، بتحويل بعض المواد الأولية الى نور ملدهيد . ولكن قيمة هذا السكر من الناحية الغذائية دون قيمة السكر الذي تولدهُ النباتات . وكان الرأي أولاً ان النبات يولد السكر بفعل شبيه بالفعل الذي يولد به في المعمل . ولكن الدكتور روبين Robin أحد أساتذة جامعة كاليفورنيا ردَّ هذا القول . فقد حوّل قدراً من ثاني اكسيد الكربون مشعًّا بفعل الجهاز الرحوي (السيكلوترون) وتتبع امتصاص النبات لهذا التركيب المشع ، متوقعاً بحسب الرأي المتقدم ان يرى فورملدهيداً مشعًّا فخاب ظنهُ وخلص الى القول بأن النبات يعتمد على طريقة أخرى في تركيب السكر غير طريقة الفورملدهيد المستعملة في المعمل

يولد ثاني اكسيد الكربون المشع بانطلاق قذائف الجهاز الرحوي على ذرات الكربون B فتقذف منها ذرات كربون مشع تستعمل في توليد جزيئات ثاني اكسيد الكربون فتكون سمّة وتوضع هذه الجزيئات في جوّ وجاء تموّنه نباتات مثل الشعير والقمح ودوار الشمس المنصة، ثم تشرح النباتات وتحلل تحليلاً كيميائيًّا ، لمعرفة مصير ذرات الكربون فيها

وقد عانى هذا العالم مشقة عظيمة في بدء البحث ، لأن ذرات الكربون المشعة تفقد قدرتها الاشعاعية، في خلال ست ساعات . ولذلك عمد الى ذرات نظير من نظائر الكربون ، لا تفقد نصف قدرتها الاشعاعية (بعد تحويلها مشعة بفعل الجهاز الرحوي) إلاّ بعد انقضاء خمسمائة الف سنة . وبها ستجرّب التجارب المقبلة

نواحي الموضوع الخطيرة

موضوع التركيب الضوئي موضوع يحيّر الألباب حقًّا ، لذلك عمدت طوائف شتى من الباحثين الى دراسته من نواحٍ مختلفة . وقد تقدم ذكر الدكتور دوبين وبحثه اياه من الناحية الاشعاعية. وفي جامعة ستانفورد فريق يوجّه عنايته الى تركيب الخضور واصباغ pigments النبات الأخرى . وفريق آخر معنيّ ببحث البكتريا الخضراء والقرمزية وطريقة استعمالها للضوء. وثمة فريق ثالث في جامعة كاليفورنيا يعنى بدرس تكوّن الخضور

ومن الحقائق التي تستوقف الانظار وتحمل على التأمّل ان جميع انواع النبات تستعمل اسلوباً واحداً في التركيب الضوئي ، وتحويل العناصر الى مركبات غذائية ، وان هذا الاسلوب لم يتغيّر على طول الزمن خلال عصور التطوّر . فأكبر الاشجار وأصغر انواع الفطر، النباتات البحرية والنباتات الصحراوية على السواء، مجهزة بما يمكنها من التركيب الضوئي. ليست جميع النباتات خضراً، فبعضها اصفر مائل الى السمرة، وبعضها رمادي، وبعضها يميل الى اللون القرمزي. ولكن الخضور (المادة الملونة الخضراء) موجود فيها جميعاً، اما مختلطاً بالاصباغ الأخرى واما مرصوفة الحبات تحت السطح . والواقع هناك نوعان من الخضور وانتا عشر نوعاً من الصبغ الأصفر وهي جميعاً قاعدة الأسلوب الذي تستعمله النباتات في التركيب الضوئي . ولكن العمل الخاص لكل من هذه المواد الملونة لم يعرف بعد

أن أكثر النبات يمتص طاقة الشمس من طرفي الطيف المرئي، أي من ناحية الأحمر وناحية البنفسجي ويمتص من الأحمر والازرق أكثر مما يمتص من أمواج جميع الالوان التي بينهما. ولكن البكتريا القرمزية وهي نبات مجهري لهُ قدرة التحرك تمتص قدراً يسيراً من الضوء من طرف الطيف الأحمر وقدراً كبيراً من الاشعة التي تحت الأحمر . والبكتريا الخضراء لا تمتص شيئاً من أمواج الطيف المرئي ، وانما تمتص أمواجاً تتفاوت بين ٧٠٠٠ و٨٠٠٠ انجستروم في المنطقة

التي تحت الاحمر . ويبدو لي الحائن أن سبب ذلك كون هذه البكتريا تعيش في البطائح وتحت طبقات من الوحل والماء المكر لا تنفذها أشعة الصيف المرئي ولكن تنفذها الاشعة التي تحت الاحمر

واحيانا تولد الطبيعة نباتاً لا يخضور فيه . فنبات من هذا القبيل يعوزه الجهاز الطبيعي الذي يركب به طعامه فيعيش مدى ما يكفيه الغذاء المخزون في بذرته . ثم يذوي ويموت . ولكن اذا نقل هذا النبات الى المعمل وغذي بالسكر والمواد النتروية المحلولة في الماء عاش ونما . وفي كاليفورنيا شجرة من نوع الاشجار الكبار المعروفة باسم Redwood وهي خالية من اليخضور ولكنها تعيش بامتصاص الغذاء من أمها فكأنها من الطفيليات . ويلوح أن طريق اليخضور من الأم اليها مسدود فلا تتصل باحيائه ولا تأخذ من امها الا الطعام المركب . أما الفطر وغيره من النبات الذي يعيش في الظلام فليس فيه يخضور ولا هو في حاجة اليه فهو طفيل يتغذى بالطعام المخزون في الأرض

وقد جرّب فريق من العلماء اساليب شتى لتحويل ضوء الشمس الى طاقة . ولكن جميع الباحثين يرون ان أفضل طريقة لتحويل ضوء الشمس الى طاقة هي طريقة التركيب الضوئي . وعندهم الآن ، ان النبات يركب المواد النتروية من ثاني اكسيد الكربون والماء بأسلوب معقد تدخل فيه طاقة من المادن فتقص فعل الوسيط Catalyst

اليخضور الثاني

قلنا في ما تقدم من المقال ان اليخضور يفيد في العلاج . وهو قول مقتضب وغريب في آن . ولكننا اطلعنا قبل ان يمثل هذا المقال للطبع على آخر جزء وصلنا من رسالة العلم الاميركية ، الاميركية فاذا هو يحتوي على بيان مفصّل عن اليخضور الثاني ، تجتمع فيه عجائب البحث العلمي الحديث ، فلخصناه في ما يلي

في الصلة الخفية بين ضوء الشمس والنباتات الخضر ، مقدمات لأعظم نصر أحرزه الناس في كفاحهم المرض على مرّ العصور . فاليخضور عامل جديد من حيث منزلته في علم الطب ، ولكنه قديم كالحياة نفسها . فاذا أنكر طبيبك علمه بالصلة بين اليخضور والطب فلا تعجب . فالموضوع جديد وفي الولايات المتحدة ١٧٥ الف طبيب جلهم لم يسمع به . ولكن الدليل على ان لليخضور قيمة طبية قوي ناهض وهو يبعث على الثقة والأمل . والمتوفرون على البحث الطبي في اميركا يقولون ، في تقاريرهم العلمية الدقيقة انهم لمسوا أثر اليخضور في شفاء ألف مصاب من علل شتى ولا سيما الجروح وانواع الزكام . وأبعث على الدهشة في رأيهم ، ان الشفاء تمّ بسرعة وبغير ان يحدث تهيجاً في خلايا الالتهاب كما تفعل المطهرات القوية . فاليخضور الثاني يفتك بالجراثيم ، ولكنه لا يفتك بالخلايا ولا يهيجها . أما كيف يفعل ذلك ، فلا يزال سرّ الطبيعة المكنون . وهو ما يكون بالسحر

من أقدم العصور سأل الناس أنفسهم وبعضهم بعضاً ما سرّ خضرة النبات . ومن نحو قرن

من الزمان استخرجوا المادة الملونة من النبات وأطلقوا عليها اسم الكلوروفيل (الخضور). ولكن بحث جزيء الخضور ، بحثاً علمياً دقيقاً لا يرتدُّ إلاَّ الى سنة ١٩١٣ عندما عني الكيمياني الالماني الدكتور فلستاتر Wilstatter به فاستخرج من بحوثه احكاماً عامة عظيمة القدر ونوَّهها بقوله إن عجيبة الخضرة في الطبيعة متصلة بسرِّ الحياة نفسها

وقراء المقتطف ليسوا بحاجة الى اقامة الدليل ، على ان جميع انواع الطاقة مردُّها الى طاقة الشمس ، وان النباتات الخضر وحدها من المخلوقات الحية ، تملك السرَّ في اقتناص طاقة الشمس وتحويلها وخزنها ثم اتاحتها للانسان والحيوان بوجهٍ عام

تقع شعاعة من ضوء الشمس على ورقة خضراء ، فيحدث الفعل العجيب . أن في داخل هذه الورقة جزيئات من الماء وثاني اكسيد الكربون، فتتحلل ، وهذا الانحلال فعل لا يستطيعهُ الكيمياني الاَّ بنفقة كبيرة ومشقة عظيمة . ثم تعيد الورقة تركيب الذرات منشئة منها مواد نشوية وأنساجاً حية . وفي أثناء هذا التحول يُطلق الأكسجين حرًّا في الهواء الذي تتنفس وتخزن الطاقة في جزيئات المواد السكرية والنشوية

وهذه الجزيئات أساس الحياة ، لأن الحيوان بوجهٍ عام والانسان بوجهٍ خاص لا يستطيع ان يركِّب غذاءهُ الحيويَّ من المواد الأصلية والعناصر البسيطة . فالاعتماد على ما تركبهُ النباتات في معامل أوراقها الخضر . والانسان يأكل النبات فيقاوله الطاقة سكراً ونشاء ، او يأكل لحم حيوانات أخرى تعتمد في الأصل على الغذاء الذي يصنعهُ النبات . ثم ان الانسان يعتمد على الفحم والنفط والغاز الخلقي مصادر للطاقة المحركة ، وهي تعود الى مبدئها في النبات عندما خزنت قوة الشمس في أنساجها ثم دفنت أنساجها في باطن الارض فتولد منها في أحوال شتى وبتأثير عوامل مختلفة الفحم والنفط والغاز الخلقي

فالخلية النباتية تصدُّ تيار الطاقة المنحدر . أما الانسان — وسائر الحيوان — فعاجز عن ذلك . وقد أثبت العلم ان تيار الطاقة أبداً سائر في سبيل الانحطاط . تخرج الطاقة من بواطن الشموس قوية الفعل قصيرة الأمواج ، ثم تنحدر رويداً رويداً في خلال اختراقها رحاب الفضاء فتضعف قوة وتطول أمواجاً ، ولكن النبات الأخضر يقف في سبيل الانحدار سدًّا منيعاً . فيلتقط الطاقة ويخزنها . ثم تنطلق من المواد التي تخزن فيها فعالة سواء أحرارة سكر في الجسم كانت أم حرارة فحم ونفط . فليس بالغريب ان يرى بعض العلماء في دراسة التركيب الضوئي خطوة نحو البحث عن سرِّ الحياة

هذه بعض الحقائق التي استخرجها فلستاتر وهي بحدِّ نفسها كافية لاستيقاف النظر . ولكن بحثهُ أفضى الى نتائج أخرى أبعث على العجب والحيرة . فبين جزيء الخضور وجزيء الحمور

(الهيموجلوبين وهو المادة الحمراء في الدم) شبهاً كبيراً . فجزيء البحور مركّب من ذرّات الكربون والايدروجين والأكسجين والنتروجين حول نواة هي ذرة واحدة من الحديد . وجزيء اليخضور مركب على نسق كذلك من ذرات العناصر نفسها ولكن حول نواة هي ذرة واحدة من المغنيزيوم . فما معنى هذا الشبه ؟

هذه الحقائق حرّكت همم العلماء وأنشطتها . ولكن الدكتور ريشارد كيرنج Kitterng الذي بدأ يبحث عن أساليب اليخضور في اقتناص ضوء الشمس واستغلاله بجدوه الأمل بكشف أسلوب صناعي يمكنهُ من مجاراته . ومنهم الدكتور هانس فيشر حائز جائزة نوبل الكيميائية سنة ١٩٣٠ وقد حصر بحثهُ في البحور وتمكن من ان يركب مادة الهيمين Hemin وهي إحدى المواد الداخلة في تركيب البحور (الهيموجلوبين) . وفي اثناء دراستهِ البحور بحث عن احتمال فائدة اليخضور في الطب . أما كيرنج فأنشأ معهداً خاصًّا في كلية انطاكية بولاية أوهايو الأميركية وجمع حولهُ فريقاً من الباحثين لبحث موضوع اليخضور من جميع نواحيه

وكان السؤال الاول الذي حاولوا الاجابة عنهُ — ماذا يحدث لليخضور في أثناء مروره في القناة الهضمية للحيوانات والناس . فوجدوا في حشيش لم يهضم هضمًا كاملاً مركباً شديد الشبه بجزء من جزيء البحور . فلما أخذ هذا العشب المهضوم نصف هضم وغذيت به الجرذان تبيّن فيها فعل توليد الكريات الحمر في الدم

وحوالي الوقت نفسهِ أعلن الدكتور فيشر في المانيا انهُ مضى عليهِ زمن ما وهو يستعمل اليخضور في معالجة الأنيميا وان التجربة أسفرت عن نتائج تبعث على الأمل ولكنها غير حاسمة

فالاتجاه في مباحث جماعة كيرنج ومباحث فيشر كان كافياً لحث العلماء ولاسيما علماء الكيمياء الحيوية ، على ابداء عنايتهم في البحث والتجريب . وبين هؤلاء جماعة في جامعة تمبل بمدينة فيلادلفيا الأميركية . فقد كشف الاطباء هناك حقيقة غريبة وهي أن محلولاً من اليخضور يكشف جدران الخلايا الحية في اجسام الحيوانات وبزرها . وهذه الحقيقة حملتهم على السؤال التالي: ألا ترجى فائدة ما من اليخضور في مقاومة الجراثيم التي تغزو الجسم ؟

هنا ناحية في البحث الطبي اهم من مجرد استعمال اليخضور في شفاء فقر الدم (الانيميا). فالبحث الطبي مدى سنين أسفر عن كشف مواد مطهرة كثيرة . ولكنها جميعاً تشترك في نقص واحد يلازمها وهو انهُ اذا كان المحلول المطهر على جانب وافر من القوة للفتك بالجراثيم فانهُ يؤذي الانسجة الحية التي حول بؤرة الجراثيم . فخير مطهر في عرف الطبيب هو محلول يفتك بالجراثيم ويكون في الوقت نفسهِ في منزلة السلم للانسجة . فهل يصح ان يكون اليخضور هذه المادة ؟

غير ان اليخضور حيّر العلماء في انهُ اذا وضع في انبوب الاختبار ظهر عاجزاً عن الفتك

بالجراثيم . فكأنهُ لا يخلو فمه بمزل عن النسيج الحي . ولكنهُ اذا وضع على نسيج حي عزز قدرة الخلايا على المقاومة وحدَّ من نمو الجراثيم فيمنع الجراثيم من نفث سمومها . وكان سر فعله هذا في قدرته على حل ثاني اكسيد الكربون واطلاق الاكسجين حرًّ فيفتك الاكسجين بالجراثيم وهي على ما يُعلم لا تنمو إلاَّ في الجراح المختومة بعيدة عن الهواء ثم ثبت ان في الوسع استعمال مقادير كبيرة منهُ بغير ان يفضي ذلك الى تهييج الانسجة ، بل يفضي الى تلطيفها

وكانت الخطوة التالية ، عناية قسم الباثولوجيا التجريبية في جامعة ميريلاند باستخلاص مقادير من البخضور من القرَّاص الاخضر واعداد محلولات ومراهم للاستعمال ثم بدأ الأطباء المعالجون في اقسام جامعة ميل وعياداتها في استعمالها في احوال خاضعة للضبط العلمي

وفي شهر يوليو الماضي (١٩٤٠) نشرت مجلة الجراحة الأميركية American Journal of Surgery البيان الاول عن فائدة البخضور في العلاج . فوصف البخضور بأنهُ عقار عظيم الشأن . وأيد ذلك فريق من كبار الاطباء . وقد عولج به نحو ١٢٠٠ مصاب تتفاوت اصاباتهم من الزكام الى التهاب البريطون الى قرح الدماغ الى التهاب اللثة (پوريا) الى اضطرابات الجلد . وقد عولج كل منهم بمحلول البخضور او بمرهمه وسجلت اعراض الاصابة وتفصيلات العلاج ، وفي كل سجل من هذه السجلات كانت كلمة الطبيب الاخيرة « شفي »

من هذه الاصابات أناس كانوا مصابين بالتهاب حاد في الزائدة ، او بالتهاب منتشر في البريطون ، فعملت عملية استئصال الزائدة ثم استعمل محلول البخضور في منع انتشار الالتهاب . فأدخل المحلول في الجراح العميقة بأنابيب خاصة ، او استعمل المرهم على العصائب الرطبة .

ومن هذه الاصابات جراح دب فيها الفساد والتهاب نخاع العظم (Osteomyelitis) والشرايين المتورمة المتقرحة (ulcerated varicose veins) واصابات الفم كالتهاب اللثة والتهاب الحلق الدفتيري وغيرها . وكان البخضور في جميع هذه الحالات ناجحاً

ولكن أعظم النتائج التي أسفر عنها استعمال البخضور وأشدها استيقاناً للنظر جاء من استعماله في معالجة التهابات الأنف الداخلية المتصية وأنواع الزكام . وقد عولجت الف اصابة من هذا القبيل تحت اشراف طبيبين مختصين فقالا في تقريرهما « ليس بين هذه الحوادث حادثة واحدة لم يتم فيها الشفاء التام أو لم تتحسن حالة المصاب » . وكانت المواد البخضورية تمتص في منخفضات الانف العظمية فتفضي الى تحسن سريع في خلال أربع وعشرين ساعة

كيف يؤثر البخضور في الجسم . العلماء يعترفون بجهلهم ويقولون صراحة أن ما انتبوه حتى الآن لا يتعدى معرفتهم انهُ يعزز الخلايا ويحدُّ من نمو الجراثيم ويتيح لانسجة الجسم الفرصة لتهيئة قواها للدفاع

أثر العوامل الجوية

في شدة اصابة شمال الدلتا (١)

بدودة ورق القطن واستنباط طريقة جديدة لمقاومتها

للدكتور محمد خليل عبد الخالق بك
استاذ علم الطفيليات بكلية الطب ومدير قسم الامراض المتوطنة

القطن كما تعلمون هو أهم مصدر للثروة المصرية ، والانواع الممتازة منه تزرع في شمال الدلتا وهي الأنواع التي اكتسبت مصر شهرة عالية بالنظر الى طول تيلتها ومتانتها ونعومتها . الا ان القطن الذي يزرع في هذه المناطق الشمالية ، أكثر تعرضاً لفتك دودة ورق القطن من الأقطان التي تزرع في الأنحاء الجنوبية من الدلتا والتي تزرع في الصعيد

وفي مثل هذه الايام من كل عام (مايو) تستعد البلاد لشن الغارة على دودة ورق القطن ويجند لهذا الغرض الآلاف من الصبيان والبنات البالغين لتنقية اوراق القطن المصابة . ويتعاون مع وزارة الزراعة في هذا العمل رجال الادارة ، وتسرح وزارة المعارف أطفال مدارسها الالزامية والاولية . وتستمر هذه الحملة بدون هوادة ثلاثة شهور على الاقل

وقد بذلت جهود جبارة للوصول الى علاج ناجع لمقاومة هذه الآفة ورصدت لذلك المكافآت الطائلة ، وانشئت لها معاهد للابحاث ، واشترك في دراستها الاخصائيون في علم الحشرات وفي الكيمياء عدا رجال الزراعة . ورغماً عن العدد الكبير من المركبات الكيميائية التي اقترحت لقتل هذه الحشرة في بعض أدوار حياتها وطرق المقاومة الاخرى فما زال جل الاعتماد في المقاومة على نزع أوراق شجرة القطن التي تضع الفراشة بويضاتها عليها ، قبل أن يتم فقسها ويبدأ انتشار يرقاتها . وهذه هي الطريقة التي نصح باتباعها أول مجلس استشاري ألف لدراسة هذه المشكلة في مصر في أواخر القرن الماضي أخذاً برأي العلامة الدكتور عثمان باشا غالب استاذ علم الحياة بمدرسة الطب حينئذ . وقد جاء في مؤلف هذا الطبيب العلامة المسمى (الحيوانات اللافقرية) طبعة سنة ١٨٨٦ فصل عن (دودة البرسيم التي تصيب البرسيم وورق القطن) ما يأتي : —

(١) محاضرة ألقيت في المؤتمر السنوي الذي عقده المجمع المصري للثقافة العلمية

« وأهم طريقة لازالة هذه الحشرة وتجنب ضررها رفع الاوراق الموجود »
« عليها البيض وهذه الطريقة وان كانت بسيطة الا انها تحتاج لانتباه »
« زائد فيبتدأ في البحث في الخامس عشر من شهر مايو فان وجد على الورق بيض »
« قطعت وأحرقت قبل الري ، ثم يبحث بعده مرة ثانية لرفع الأوراق الموجود »
« عليها البيض التي سها الباحثون عن ازالتها في المرة الاولى . هذا مما يجب الاعتناء »
« به كثيراً لأن الحرارة والرطوبة يساعدان على نمو البيض فيفقس ويخرج منه »
« يرقات تضر بالمزروعات كثيراً ونحن متأكدون من انهُ اذا فعل المزارعون ذلك »
« باعتناء تام في جميع انحاء القطر المصرية مدة ثلاث سنوات تقريباً لارتفع الضرر »
« المتسبب عن هذه الحشرة للتوقف على زوالها ثروة المصريين »

على ان هذه الطريقة كثيرة الكلفة خصوصاً في شمال الدلتا ، حيث يصرف على الفدان في المتوسط ما بين جنيه ونصف وأربعة جنيهات في بعض الزراعات

وقد لوحظ منذ زمن بعيد ان الاصابة بهذه الحشرة تتفاوت في الشدة حتى في الزراعات المتجاورة ، وقد عزا ذلك عثمان باشا غالب الى تأثير الرياح « بنقلها الحشرات من مكان الى آخر حتى تقابل ماتماً بموتها عن الانتقال كحاجز الأشجار او الغاب مثلاً حيث تقف وتضع بيضاً تنشأ عنه يرقات تتلف أشجار القطن . ومن ذلك تتضح صلة اصابة قطعتين متقاعدتين من الأرض مع بقاء القطعة الموجودة بينهما سليمة . والعادة ان الحشرة ويرقاتها توجد بكثرة في مزروعات القطن المنخفضة الأراضي وتقل في ذات الأراضي المرتفعة المعرضة لتأثيرات الرياح »

وقد لوحظ ايضاً ان شدة الاصابة تقع في شمال الدلتا وتقل كلما اتجهنا جنوباً حتى تكاد تنعدم في مديرية اسوان

أي ان الاصابة تقل في أشد المناطق حرارة في المملكة المصرية بينما تبلغ اشدها في أشد المناطق برودة . وهذه الظاهرة تخالف تمام المخالفة ما يشاهد في الحشرات على وجه العموم ، فهي جميعاً اذا تماثلت سائر العوامل الاخرى اكثر انتشاراً وأسرع نمواً كلما ازدادت حرارة الجو . ولا يوجد لهذه القاعدة شواذ . وكل مخالفة لذلك يكون سببها تغير في احد العوامل الاخرى الضرورية لنمو هذه الحشرات . وعلى ذلك يجب ان يكون انتشار حشرة دودة ورق القطن انتشاراً مضاداً لعامل الحرارة في المملكة المصرية ناشئاً عن عامل آخر من العوامل ذات الأثر الفعال في حياة الحشرات ، وهذا العامل هو عامل الرطوبة الجوية في محيط شجرة القطن

[وأود ان أؤكد هنا ان عامل الرطوبة الجوية العام قد يكون مخالفاً لعامل الرطوبة المحيطة بشجرة القطن . ولكن ليس ذلك في كل الأحوال ، فاذا تشبع الجو بالرطوبة تشبعاً تاماً

— كما في حالة الضباب — فيكون هذا التشبع تاماً كذلك في محيط شجرة القطن وهي أكبر الحالات ملاءمة ولكي تضع الفراشة بويضاتها كما سيأتي فيما بعد . وأما في حالة انخفاض نسبة الرطوبة الجوية فقد يكون المحيط بشجرة القطن في غيط ما مشبعاً بالرطوبة في حالة ري هذا الغيط وعدم هبوب الرياح . وهذا ما عبر عنه خبراء الظواهر الجوية بكلمة Micro-climate أي الجو المباشر بالمقارنة مع الجو العام

وكما قدمنا فان القاعدة العامة هي انه كلما زادت الحرارة الجوية انتشت الحشرات وكثر تناسلها وتمت بسرعة فتفقس بويضاتها في أقصر وقت وتتم أدوار اليرقة والجورية بسرعة كبيرة. وذلك لأن الحشرات ليس لاجسامها حرارة ذاتية ، فهي تعتمد على حرارة الجو فتنشط ضيقاً ويكاد يتعدم نشاطها شتاء ، حيث يبطىء او يقف نمو اليرقات والجوريات فدورة حياة حشرة ورق القطن من دور البويضة الى دور الحشرة البالغة تمتد من ٣٠ يوم تقريباً في شهر يوليو الى أكثر من أربعة أشهر من ديسمبر الى ابريل . والمشاهدات المتعددة وخبرة الزارعين تؤيد أن الرطوبة أهم عامل بسبب هذا التفاوت العظيم في شدة الاصابة بدودة ورق القطن في المناطق المختلفة والامثال التالية وهي ليست على سبيل الحصر تبين ذلك بوضوح

١ — تضع الحشرة بويضاتها بكثرة عقب الري ، حتى ان بعض الزراع يؤخرون موعد ري أقطانهم في ذروة موسم الدورة تفادياً لشدة الاصابة . ولو قارنا في هذا الوقت عدد القطع في يوم واحد في زراعتي قطن متجاورتين إحداهما رويت حديثاً والاخرى لم تر ، لوجدنا أن الأولى بها أضعاف اضعاف ما بالثانية من القطع وقد تخلو الثانية منها تماماً . وهذه المشاهد التي يدركها تماماً ويقدرها كل فلاح لاتترك سبيلاً إلى اغفال هذا العامل الذي يزيد في الرطوبة الجوية المباشرة في محيط شجرة القطن في الارض المروية

وقد قام الباحث ابراهيم افندي بشارة بتجربة ، اذ روى جزءا في غيط برسيم وترك الجزء الباقي بدون ري ، وأحصى عدد يرقات دودة القطن في كل من القسمين ورصد مواقعها في خارطة بينت بجلاء أن اليرقات تتكاثف في الجزء المروي وتكون قليلة متباعدة في الجزء الذي لم يرو

٢ — تكثر القطع (كتلة البويضات) كثرة هائلة في الليل الذي يعقبه شبورة في الصباح أي حينما يكون الجو مشبعاً تشبعاً تاماً بالرطوبة حتى يبلل الندى أوراق الاشجار وكذلك الأرض والاعشاب النامية بها . وهذا ما دعا الفلاحين الى تسمية هذه القطع (بالندوة) لعلاقة ظهور القطع بالندى بل هم يعتقدون أن الندى هو السبب المباشر لظهور القطع

وفي حالة الشبورة لايقتصر وضع البويضات على أوراق شجيرات القطن بل يوجد على مزروعات متعددة كاشجار الحدائق والاعشاب بل وعلى أعمدة التلفونات والتلغرافات مما يبين بجلاء أن هذه الحالة الجوية هي الحالة المثلى لكي تضع الفراشة بويضاتها

وهذه الظاهرة تشير أيضاً الى أن الفراشة عندها القدرة على الاحتفاظ بالبويضات داخل جسمها متجنبة احوال تشبع الجو بالرطوبة وربما كان هذا هو السبب في تفاوت عدد البويضات الموجودة في اللقحة الواحدة ، اذ أن هذا العدد يتفاوت بين ٣٠ و ١٠٠٠ بويضة

٣ — تموت البويضات اذا تعرضت لهبوب الرياح الساخنة التي يلقبها الفلاحون بالشرد وهم يتفاءلون خيراً عند هبوبها في موسم دودة ورق القطن ويقولون ان القطع تطير حيث انها تجف وقد تفارق ورق القطن ولا تفقس وان كانت قد فقست حديثاً فان اليرقات تموت في أيام حياتها الأولى وهذه الحالة الجوية تكون الرطوبة فيها منخفضة والهواء جافاً

وربما كان هذا تعليلاً معقولاً لعدم ظهور اللطخ دائماً عقب ري القطن أو ري البرسيم . فالفلاحون يذكرون دائماً أن بعضهم قد روى قطنه أو برسيمه ونجا من اللطخ، وكان أكبر عقبة في سبيل تنفيذ قانون عدم ري البرسيم بعد عشرة مايو اذ أن نتائج الري ليست على وتيرة واحدة دائماً فاذا كان اليوم الذي يعقب الري شرداً لم تضع الفراشة بويضاتها لأن الرياح تبدد الرطوبة المباشرة وتجفف اللطخ وتذروها . أما اذا كانت الرياح ساكنة تكاثفت الرطوبة المباشرة في الأرض المروية وصارت ملائمة لوضع اللطخ ويفسر الفلاح هذا التفاوت الذي لا يدرك سببه بأنه من عند الله

٤ — تضع الفراشة بويضاتها ليلاً ولا تضعها نهاراً وربما كان هذا راجعاً الى زيادة تشبع الجو بالرطوبة أثناء الليل تبعاً لانخفاض الحرارة ويحدث ذلك بالرغم من أن الفراشة يجتذبها الضوء وقد اتبع فعلاً في وقت سابق وضع «كلوبات» مضيئة في زراعات القطن ثم صيدها وقتلها وقد اقلع عن هذه الطريقة لأنه وجد ان القطن القريب من الضوء يصاب اصابة شديدة أكثر مما تصاب به الزراعات البعيدة عن الضوء وذلك لأن الفراشة في طريقها الى الضوء وبالقرب منه تضع بويضاتها . وهذا يتعارض مع القول بأن الظلام هو العامل الاكبر في وضع البويضات ليلاً . وقد عزى بعضهم ذلك الى ان هذه الحشرة ليلية بطبيعتها وان اجتذابها بالضوء الصناعي ليس دليلاً قاطعاً على ان الضوء الطبيعي يجذبها باختلاف في طيف كل منها وهي مسألة تحتاج الى تحقيق علمي بسيط نرجو ان يقوم به بعض الباحثين في هذا الموضوع

٥ — يصاب القليل من القطن في مديريات بني سويف والمنيا وأسيوط وهو القطن المجاور لمجاري المياه كالترع الكبيرة . وقد أجمت الراجح على ذلك والمعروف انه كلما ارتفعت حرارة الجو قلت نسبة الرطوبة به الا اذا كان هناك مصدر قريب لبخر الماء ولم تكن هناك رياح تبدد هذا البخار وتقلل من تركزه محلياً. ويشاهد هذا أيضاً في مناطق الوجه البحري فالحطان او الخطوط الثلاثة المجاورة للترع هي التي تصاب أكثر من غيرها

يؤيد ذلك أن أهم زراعة تتأثر بدودة ورق القطن في مديريات بني سويف وأسيوط وجرجا وقنا هي زراعات البرسيم الحجازي في شهر أغسطس إبان الفيضان وامتلاء الحياض بالماء وما ينتج

عن ذلك من تشبع الجو بالرطوبة ، ولا يصاب القطن في ذلك الوقت لقربه من النضوج وجفاف أوراقه نسبيًا . وربما كان هذا هو السبب في عدم انتشار زراعة البرسيم الحجازي في الدلتا على الرغم من احتياج الفلاح الشديد الى تغذية مواشيه بغذاء كالبرسيم ، إذ ان شهور الصيف بعد ان هذا البرسيم الحجازي تفضله فراشة دودة ورق القطن على كل محصول آخر لوضع بويضاتها فتنتاب به

وقد شوهد ذلك أيضاً في ثالث مختلفة إذ ان الحشرة في بعض هذه البلاد قد لا تصيب القطن مطلقاً رغم وجوده ، بينما تصيب أنواعاً أخرى من النباتات التي تلائمها أكثر من سواها

والأرز هو النبات الرئيسي الذي يصاب بدودة ورق القطن في بعض الممالك لكنهُ لا يكاد يصاب في مصر ، ومما لا شك فيه ان النبات المفضل في مصر هو البرسيم وتنتقل الاصابة الى القطن عند انتهاء موسم البرسيم — وأما البرسيم الحجازي الذي يستمر طوال العام فلا تفارقه دودة ورق القطن وهذا هو الذي دعا الى الكف عن زراعته في المناطق التي تلائم فيها العوامل الأخرى انتشار دودة ورق القطن ، كما دعا الى صدور تشريع يمنع ري البرسيم النادي بعد العاشر من شهر مايو حتى لا يكون ملائماً لوضع البويضات ونمو اليرقات به كما دلت الخبرة عليه وسيبينُ كما تبين الآن هو الاستفادة من خفض نسبة الرطوبة في محيط البرسيم كيما تكون غير ملائمة لان تضع الفراشة بويضاتها

٦ — لاحظ عثمان باشا غالب سنة ١٨٨٦ كما أسلفنا الاشارة ، ان الحشرة ويرقاتها توجد بكثرة في مزروعات القطن المنخفضة الأراضي وتقل في ذات الاراضي المرتفعة المعرضة لتأثيرات الرياح ولا شك في ان العامل الهام في ذلك هو رطوبة الجو المباشر فهي عالية في الارض المنخفضة الرطبة خصوصاً عند عدم وجود مصارف كما كان الحال في العهد الذي كتب فيه عثمان باشا غالب

وقد حاول عثمان باشا غالب ان يفسر عدم اصابة بعض الأراضي المزروعة قطناً مع وجودها بين أراضٍ قطنها مصابٌ فلم يوفق في ذلك إذ ظن انهُ يرجع الى أن الفراش تحمله الرياح حتى يصادف الحراج والغابات في طريقه فيقف ويضع بويضاته فيما حوله من الحقول فلا شك أن مثل هذه العوائق نادر الوجود في المناطق المزروعة قطناً

٧ — لوحظ في صيف سنة ١٩٤٠ ان الاصابة بدودة ورق القطن في شمال الدلتا عدا مديرية البحيرة كانت أقل منها في سنة ١٩٣٩ أما في مديرية البحيرة فقد كانت الاصابة شديدة على خلاف المعتاد . فالحالة في مديرية البحيرة وشمال الغربية تكون متماثلة واذا رجعنا الى حالة الري في المديريتين في صيف سنة ١٩٤٠ وجدنا ان رشح ماء الري وتأخر الفيضان كان له أثر بالغ في مديرية الغربية بينما تمتعت مديرية البحيرة بالمقادير العادية من مياه الري بواسطة طلمبات العطف المركبة على النيل عند مأخذ ترعة المحمودية . وغير خاف ما هناك من العلاقة بين وفرة مياه الري وارتفاع منسوب الماء في الترع وارتفاع منسوب المياه الجوفية من جهة وبين مقدار

الرطوبة الجوية عند سكون الرياح . ومجموع ما تقدم يبين خطأ منزلة الرطوبة الجوية المباشرة وما لها من شأن في وضع اتى الفراشة بوبضانها

وقد عملت ابحاث عملية لاختبار تأثير الحرارة والرطوبة في نمو البويضات واليرقات في وزارة الزراعة وللاسف كان البحث لكلٍّ من الحرارة والرطوبة مستقلاً احدهما عن الآخر بينما تأثير احدهما في الآخر له شأن عظيم فبينما درجة ٤٠ سنتيجراد تؤثر تأثيراً سيئاً في اليرقات في حالة جفاف الجو نجدها محتملة في حالة تشبعه بالرطوبة . وهذا مخالف للحال في الانسان والحيوانات ذات الدم الحار فالاخيرة لا تطيق الجو الحار المشبع بالرطوبة وقد تموت فيه بينما تحتمل حرارة مرتفعة في الجو الجاف وذلك لان عامل التبخر من سطح الجسم (أي العرق) يضمن احتفاظ الجسم بدرجة حرارته الطبيعية — اما الحشرات فليست لها حرارة ذاتية تذكر فهي لا تحتمل الحرارة الجافة وتلاءمها الرطوبة مع ارتفاع الحرارة

وفي ضوء المشاهدات العديدة التي سبق ذكرها تتبين أنا في مصر عن غير قصد وفر للفراشة دودة ورق القطن عامل الرطوبة في شمال الدلتا من ثلاث وجوه : —

اولاً — زراعة الارز خلال مزارع القطن وما يصحب ذلك من تعريض سطح هائل للتبخر يتراوح بين ٢٠٠٠٠٠٠ و ٦٠٠٠٠٠٠ من الافدنة المغطاة بالماء باستمرار . وثانياً — أن نظام الري في مناطق الارز يستلزم رفع الماء بالترع الى منسوب عال ويتبع ذلك رفع منسوب الماء الجوفي . ثالثاً — تستدعي زراعة الارز تقصير المناوبات بجعلها اربعة ايام ري واربعة ايام بطالة بدلاً من ٤ و ١٢ كالمعتاد

- ولولا هذه العوامل مجتمعة لكانت الاصابة بدودة ورق القطن في شمال الدلتا اقل من الاصابة في جنوبها نظراً لانخفاض درجة الحرارة الجوية في الاولى عنها في الثانية

وقد لاحظ ابراهيم افندي بشارة الاخصائي في ابحاث دودة ورق القطن بوزارة الزراعة أن هناك علاقة بين مساحة المزروع ارزاً وانتشار دودة ورق القطن، وعزا ذلك الى عدم توفر الايدي العاملة للقيام بأعمال المقاومة حيث أن الفلاح في ذلك الوقت يكون مشغولاً بأعمال اخرى وقد جاء في رسالته ما ترجمته حرفيًّا : —

(فعند ما تكون الاصابة شديدة بدودة ورق القطن في معظم السنين تكون زراعات الأرز واسعة النطاق) . ويضاف الى ذلك أن السنين التي يُصرَّح فيها بمساحات كبيرة لزراعة الأرز يكون فيضان النيل عالياً وتزيد المياه المتدفقة في الترع وتزيد تبعاً لذلك الرطوبة الجوية المباشرة في الحقول . ولعلَّ الرطوبة المباشرة حول ورق شجرة القطن بالذات هي العامل المهم في اختيار الأوراق الصغيرة المدلوة بالصارة دون الاوراق القديمة الجافة ولعلها تكون السبب في تفضيل الفراش للسطح السفلي للورقة لوضع بويضاته حيث توجد الفتحات التي منها يخرج بخار الماء في النبات فيكون الجو المباشر أكثر رطوبة على سطح الورقة السفلي منه على سطحها العلوي ما

دامت الرطوبة الجوية التامة قليلة . وهذه تجد تفسيراً للحالات الشاذة التي فيها تضع الفراشة بويضاتها على سطح أوراق نباتي إذ يحدث ذلك عندما يكون الجو العام مشبعاً بالرطوبة التي يتعرض لها سطحا الورقة بدرجة واحدة

والآن ننتقل الى الاقتراح العلمي الذي يرمي الى الاستفادة من عامل الرطوبة في مقاومة انتشار دودة ورق القطن في شمال الدلتا وهو يرمي الى اصلاح الخطة المتبعة الآن وهي زراعة الأرز بجوار القطن في شمال الدلتا مما يساعد على رفع نسبة الرطوبة الجوية وتهيئة الظروف الملائمة لدودة ورق القطن . ويتلخص الاقتراح في تقسيم شمال الدلتا الى قسمين متساويين في المساحة تقريباً أحدهما شمال مديرية الغربية والآخر شمال مديرية البحيرة وشمال الدقهلية والشرقية . يزرع الأرز في أحد القسمين والقطن في القسم الآخر في عام وفي العام التالي يعكس الحال

وتباح بالقسم الذي يزرع قطناً جميع الزراعات الأخرى ما عدا زراعة الأرز وفي القسم الذي يزرع الأرز فيه تباح جميع الزراعات ما عدا القطن . وهذا الاقتراح لا يؤثر في المساحة المخصصة لكل من القطن والارز في المتوسط يزرع القطن في هذه المناطق في ثلث الزمام وكذلك الأرز والأذرة والمحاصيل الأخرى . وفي النظام المقترح يزرع القطن في ثلثي الزمام في المنطقة المخصصة له وكذلك الأرز في المنطقة الأخرى . ولهذا الاقتراح المزايا الآتية : —

١ — تقليل نسبة الرطوبة في الجو في المنطقة المزروعة قطناً في شمال الدلتا نتيجة لعوامل الآتية

[ا — منع زراعة ٢٠٠٫٠٠٠ الى ٢٠٠٫٠٠٠ فدان من الارز تكون مغمورة باستمرار بالماء خلال زراعة القطن وما يتبع ذلك من تشبع الجو المحيط لهذه المنطقة بالرطوبة الناشئة من تبخر ماء هذه المساحة الواسعة

[ب — تقليل مقادير المياه المتلفة في الترع في المنطقة التي تخصص لزراعة القطن اذ تكون المناوبات بها ٤ أيام ري و١٢ يوماً جفاف بدلاً من ٤ أيام ري و ٤ أيام جفاف كما تتطلب زراعة الارز

[ج — خفض المياه الجوفية تبعاً لقلة منسوب المياه المطلوبة لري زراعات القطن اذ أن ارتفاع المياه الجوفية له أثر كبير في ازدياد الرطوبة الجوية

٢ — توفير مياه الري لزراعات الارز بتوزيع المياه المخصصة لهذا المحصول على نصف عدد الترع التي توزع عليها في الوقت الحاضر . وسيكون لهذا أثر كبير في تحسين محصول الارز وتقليل الشكوى من قلة المياه في نهايات بعض الترع وفقدي هلاك بعض الزراعات بسبب قلة مياه الري

٣ — حصر القطن في شمال الدلتا في نصف المساحة الحالية يسهل عمل وزارة الزراعة في مقاومة آفات القطن ومراقبته

٤ — مقاومة انتشار الملاريا بمنع زراعة الارز عاماً كل سنتين في المنطقة التي يتوطن فيها

المرض اذ أن البعوض الانوفيلي الفرعوني اتناقل للملاريا في هذه المناطق بضع بويضاته في مزارع الارز على وجه الخصوص

الخطوات التي اتخذت لتنفيذ هذا الاقتراح

تفضل حضرة صاحب المعالي الدكتور علي ابراهيم باشا وزير الصحة العمومية بتقديمي لحضرة صاحب المعالي أحمد عبد الغفار باشا وزير الزراعة لعرض هذا الاقتراح عليه فتفضل معاليه بتحويله على أقسام وزارة الزراعة المختصة لدرسه في ١٤ يناير سنة ١٩٤١ ولم أبلغ بعد بطريق رسمي عن رأي الوزارة بشأنه ولكني قابلت الاخصائيين وتناقشت معهم في وجوه الاقتراح المختلفة كما قابلت حضرة صاحب العزة حسين بك عفان وكيل الوزارة وبعض كبار المشتغلين بالزراعة كما قابلت رجال الجمعية الزراعية الملكية

ويتلخص الموقف في أن الاخصائيين في دودة ورق القطن وفي علم الحشرات موافقون على منزلة الرطوبة الجوية كعامل هام في حياة هذه الحشرة وعلى انه يرى أن ينفذ هذا الاقتراح على سبيل التجربة في نطاق محدود . أما تنفيذه كاملاً في جميع مناطق شمال الدلتا فانه أمر يعني رجال الزراعة كما يعني رجال الري. ولما لم يكن هناك متسع من الوقت لعمل التجربة هذا العام بتخصيص الارض الواقعة على ترعة ما لزراعة القطن وتخصيص اخرى لزراعة الارز ومقارنة الحالة بما يحدث في المناطق المجاورة فقد تقررت الموافقة على جمع مشاهدات لتقدير الرطوبة في محيط شجرة القطن وعلاقتها بالاصابة وقد تفضل حضرة صاحب العزة وكيل وزارة الزراعة بالموافقة على اشراكي في هذه الابحاث . وقد علمت ان لبعض رجال الزراعة الفنيين الاعتراضات الآتية

١ — دل الاحصاء ان مساحة المنزرع قطناً ليست مساوية للمنزرع أرزاً في كل مراكز شمال الدلتا فمركز فوه ورشيد تقل فيها زراعة القطن كثيراً بينما يزرع الارز في مساحات واسعة وفي المراكز الجنوبية ككفر الزيات وطنطا والمحلة الكبرى تقل مساحة الارز جداً بالقياس الى مساحة القطن. أما في مراكز دسوق وكفر الشيخ وبيلا فتكاد تكون المساحات متساوية وعلى ذلك فهناك صعوبة في منع احدى الزراعتين في عام ما في الاماكن التي جل زراعتها واعتمادها على الارز فقط او القطن فقط بزراعة الصنف الآخر

والجواب على هذا الاعتراض هو ان المناطق الواقعة حول مصب فرعي النيل والتي تزرع أرزاً باستمرار في الوقت الحاضر ولا تزرع فيها زراعة القطن تستمر في زراعة الارز ويمنع زراعة القطن فيها وهي مساحة ضئيلة تصاب دائماً بآفات شديدة تجعل زراعته غير رابحة ، أما المراكز الجنوبية فهي تزرع الارز خارج النطاق التي تصرح وزارة الاشغال بزراعة الارز فيه وتتخذ الآن اجراءات لتحريم زراعة الارز في غير المناطق المصرح فيها بزراعته باعتبارها اجراءات ضرورية من جهة الري ومن جهة الصحة ففي هذه المراكز لا يمكن تطبيق نظام

مناوبات ري الأرز حيث ان زراعة الأرز بها تكون مصحوبة بتفشي مرض الملاريا

وعلى ذلك فسيطبق الاقتراح على الأماكن التي يزرع الأرز بها الآن بناء على تصريحات تعطيها وزارة الأشغال وهي المقصودة بالمادة

٢ — قيل إن بعض الملاحين قد يصيبهم غبن اذا صادفهم سوء الحظ وكان ثمن القطن رخيصاً في السنة التي يصرح له فيها بزراعته بينما يكون غالياً في السنة التالية التي يحرم فيها من هذه الزراعة والجواب على ذلك ان هذا قد يحدث في عام ولكن اذا أحصينا الأثمان في عدة أعوام فستكون الأسعار متقاربة اذ ليس من المعقول ان يكون القطن دائماً منخفض الثمن في السنين الفردية بينما يرتفع ثمنه في السنين الزوجية

٣ — قيل ان بعض الأراضي قد يصلح لنوع واحد من الزراعتين دون الآخر فيضطر المالك الى تركها باثرة عند منعه في سنة ما من زراعة الصنف الذي تصلح له أرضه

والجواب على ذلك انه في المناطق التي يطبق فيها الاقتراح تتبع عادة دورة ثلاثية بالتعاقب يزرع ثلث الأرض قطناً وثلثها أرزاً وثلثها الأخير أذرة او يترك بعضه باثراً ومع كل ذلك ففي السنة الخاصة بزراعة ٢٠٠ر٠٠٠ فدان أرزاً فقط في هذه المنطقة وهي تتسع لزراعة ٥٠٠ر٠٠٠ فدان اذا كانت مياه الري كافية فما الذي سيحدث لهذه الـ ٣٠٠ ألف فدان ؟

ان كل تشريع يحد من تصرف الفرد وهذا محتمل اذا كان التشريع مفيداً للمجموع

٤ — قيل ان زمع الري قد لا تتسع لمرور المياه اللازمة لزراعة ثلثي الزمام الواقع في حوضها أرزاً لان المفروض الآن ان الأرز يزرع في ثلث الزمام

والجواب على ذلك ان الاحصاءات دلت على انهُ كثيراً ما يتجاوز الزراع في زراعة الأرز ثلث الزمام وقد زرع فعلاً في الدقهلية ثلثا الزمام أرزاً بدون تغيير في الترع العالية ومع كل ذلك وتعديل فتحات الترع اذا لزم الحال أمر في حيز الامكان كما يرى كبار مهندسي الري بل أنهم يرحبون بالمشروع في مجموعه من جهة الري

وقد يكون هناك اعتراضات أخرى ولكن أساس الاقتراح سليم وهو يؤدي الى النتائج المنتظرة وأعني بها تقليل انتشار دودة ورق القطن في شمال الدلتا حتى تكون الحال مشابهة للاصابة في القليوبية والمنوفية او اقل منهما ولو قدرنا على وجه التقريب قيمة الكسب من هذا الاقتراح لوجدنا انهُ قد يوفر نصف جنيه في المتوسط مما يصرف على فدان القطن في مقاومة الدودة ولو زادت غلة الفدان قنطاراً واحداً نتيجة لقلة اصابته بالدودة لكان مجموع ما يكسبه الزراع أكثر من ٢٠٠ر٠٠٠ جنيه حيث يزرع في هذه المنطقة بحسب احصاء (سنة ١٩٤٠) ٦١٠ر٠٠٠ فدان يضاف الى ذلك التحسين في محصول الأرز وتيسير مقاومة الملاريا

وغاية ما أرجوه ان يلاقي هذا الاقتراح ما يستحقه من العناية وأن يوضع موضع التجربة وان لا تقف الاعتبارات الثانوية كائنة ما كانت عقبة في سبيله . وفقنا الله لما فيه خير هذه البلاد

طبيعة الحضارة

ثمار آدم

كان تصور القدماء للدنيا يجعلهم يعتقدون ان الاشخاص الذين صنعت ملكاتهم وعظمت كفايتهم لابدَّ ان يكون لهم مدد من الآلهة او ان يكون بهم مسٌّ من الجن ؛ وكانوا يلمحون في الرجال الذين يوجهون مصائر الأمم او يأتون بأعمال خوارق شملة مقدسة وفحة الهية ، فسقراط انما استفتح أبواب المعرفة بمونة الآلهة ، والآلهة هي التي أوحت الى هومر بدائع الشعر وأطلت به على الدنيا حافلة بروائع الحسن وآيات الجلال ؛ وهي التي قادت بلتيادس القائد المظفر خلال وهج الحرب الى النصر المؤزر ، ومهدت لافلاطون سبيل الحكمة ومكنته من الوصول الى قمم الفكر العالية

وفي العصور الوسطى كان يسود الاعتقاد بأن كلمة الله تجري على أفواه القساوسة وتدور على ألسنة الأولياء الصالحين وانهُ يقذف في روع المصلحين والقديسين ، وان الحكام الأقوياء انما يحكمون الدنيا بتفويض السماء وحق مقدس ، وان المخترعين انما يوفقون بفضل ما ينعكس في نفوسهم من أنوار السماء وما يشرق عليهم من ضوء مقدس ، وكان الرأي الغالب ان العبقرية قوة خالدة غير محدودة مستعصية على الفهم متعالية تعز على من رامها وتطول

***

وقد ظلت هذه النظرة الخيالية للعبقرية تنتقل من جيل الى جيل حتى أوائل القرن التاسع عشر ، حيث كان العلم قد اشتد ساعده ولم يستصوب ان يقف خاشعاً ناكس الرأس غضيض الطرف تلقاء هذه الآراء وأمثالها ، وقد حاول العلم رد الأمر الى أصوله وتحليله الى عناصره وعمل على تجريد العبقرية من مختلف الحجب والأردية التي خلعها عليها الاوهام ونسجتها حولها الخرافات ، وكان خلال عملية الهدم وانزال تلك المثل العليا من فوق قوائمها الرفيعة يعمل روح المجاهد الذي يبغي وجه الحق ويضعه فوق كل اعتبار

وحاول غير النفس أن يتبين القوانين المسيطرة على العبقرية ، وان يعرفها تعريفاً يراعى فيه النظر الى الحقائق التي تثبت ثبوتاً علمياً . وقد اعتور هذه البحوث نوع من الخطأ أثار الخلاف بين المفكرين ، وذلك ان بعض المؤلفين ذهبوا الى ان العبقرية ضرب من الجنون واعتقدوا بذلك أنهم قد اهتدوا الى اكسير العبقرية وأماطوا اللثام عن سرها ، ولكن لم تتفق آراؤهم مع ذلك على تحديد العبقرية ولا على تحديد الجنون

ورأى فريق آخر من المفكرين ان كل من أوتي مواهب عقلية ممتازة ينظم في سلك العبقريين ، وكذلك كل من يظهر استعداداً فطرياً في أي فرع من فروع المعرفة ، والعبقرية عند امثال هؤلاء مرادفة لقوة العقل فكل رجل كبير العقل راجحه فهو عبقري ، ورأى بعض الباحثين ان العبقرية هي القدرة على انجاز اي عمل من الاعمال ببراعة يعجز عنها الغير مهما كدَّ ونصب

وذهب فريق آخر الى أن العبقرية هي توازن الملكات والأخذ بنصيب وافر من كل منها فالعبقري قوي الذاكرة وثاب الخيال مستنير العقل دقيق الحس ، وفي بعض الاوقات كان يسمى النفوق في ناحية معينة « عبقرية خاصة » والتفوق في أشياء مختلفة « عبقرية عامة »

***

ولكن هذه التعريفات أو الدلالات لا تفرق تفريقاً واضحاً بين النبوغ والعبقرية ومن ثم نشأت الحاجة الى تحديد أدق وبيان أوفى

وقد رأى بعض المفكرين ان الابتكار هو سمة العبقرية ، ويتضمن ذلك ان كل سخافة جديدة يبدو صاحبها عبقرياً ، ومسألة الطرافة ليست وثيقة العلاقة بالعبقرية ، فالطفل في ابان استيقاظ عقله وتفتح مداركه جم الطرافة كثير الاغراب مما يجعل أحاديث الأطفال في بعض الأحيان لماعة موثقة كثيرة المفارقات مثيرة للابتسامات ، وكثيراً ما تصحب الطرافة غرابة الشخصية وشذوذ الأطوار وقد يكون الشخص ضعيف العقل بليد الاحساس يعجز عن فهم المواقف وتقدير الأشياء ويظل عمره عجيب الفهم لشؤون الحياة وأحوال الدنيا ، ومن هذا الطراز السخفاء والحمقى والمعتوهين الذين ينحرف سلوكهم عن الطريق المألوف ، وواضح من ذلك أن الطرافة في ذاتها لا تكفي لتدل على العبقرية وتؤكد وجودها

وحاول بعض المفكرين التفريق بين العبقرية العلمية والعبقرية الفنية وقد بدا لشوبنهاور[1] أن يقصر العبقرية على رجال الفنون وينكرها على العلماء كافة وكبار السياسيين والقائمين ، ولكن هذا الرأي لم يلق موافقة وتأييداً من المفكرين والطريقة المثلى للفصل في هذا الموضوع هو ان

(١) سأعود الى تفصيل رأي شوبنهاور في أحد أعداد المقتطف القادمة

نحاول تحليل بعض الشعراء والموسيقيين والمصورين والعلماء والسياسيين الذين اشتهروا بالعبقرية ومتى تم هذا التحليل فان الموازنة بينهم تمكننا من توضيح لنا الخصائص المشتركة التي نستوعّ لنا بعد ذلك أن نظم الجميع في عقد واحد ونسبغ عليهم صفة مشتركة

***

ويمكننا أن نستخلص من أحاديث الكثير من كبار الشعراء والكتّاب الذين واقبوا أنفسهم في سويعات الخلق والالهام ان الافكار كانت تنثال عليهم انثيالاً وتأتيهم عفواً بلا تعب وعن غير قصد ولا تكلف فجيتي مثلاً يقول : —

« في الرأي القائل أن الشعراء والفنانين المطبوعين يولدون ولا يصنعون صنعة جانب من الحق ، فلابد من وجود القدرة الداخلية على الانتاج تلك القدرة التي تستطيع أن تستحضر الصور من الذاكرة والخيال بدون قصد ولا ارادة »

وفولتير عند حضوره تمثيل احدى مآسيه قال « هل حقيقة اني أنا الذي كتبت هذه » ؟ وقال لامارتين « لست أنا الذي أفكر وانما أفكاري هي التي تسترسل في التفكير من أجلي »

فعلى ماذا يتوقف هذا الخلق التلقائي والتدفق الفكري والفيض الحيوي الذي نكاد نلمسه في كبار الشعراء وموهوبي الفنانين ؟

***

لحظ علماء النفس أن هناك ظاهرتين فكريتين مختلفتين ، احداهما اختيارية ارادية تسيطر فيها الارادة على تسلسل الافكار وتداعي المعاني ، والأخرى غير ارادية تتداعى فيها الافكار من تلقاء نفسها ، وقد أطلقوا على هذه الظاهرة لفظة «التوهم» fancy والواقع أنهُ ليس هناك فاصل حاد بين السلبين ، ويمكن أن تصور ظاهرة التفكير ضرباً من التوهم يتفاوت فيه أثر الارادة ويتردد بين القوة والضعف والظهور والخفاء ، ويبدو التوهم في صورة منقلة عندما نسمح لأفكارنا بأن تنطلق وتشرد بلا كابح ولا رقيب ، وفي صورة فاعلة عندما تعرض ارادتنا للافكار وتخضعها لأحكامها وتفرض عليها رقابتها

وهذا اللون من التفكير الذي لايخضع للارادة يسميه الشعراء التفكير غير الواعي ، وعمل التوهم يتناول الأحاسيس المتبقية في النفس لأنهُ لا يستطيع خلق أشياء جديدة ، وعمله مقصور على تكوين صور مختلفة من بقايا الأحاسيس السالفة وكما يتكون في الكالديسكوب صور مختلفة من قطع الزجاج المكسورة فكذلك يستطيع التوهم أن يكون من بقايا الاحاسيس السابقة مزيجاً من الافكار الطريفة والصورات البارعة ، واذا اجتمع في الانسان الى جانب هذه

الموهبة حسب في الخيال ويسر في تداعي الافكار نتج عن ذلك التوهم الحي الخالق الذي اسعده في كثير الشعراء

واحلام اليقظة اليومية التي يمتلئ فيها الرجل العادي في الأغلب الأعم لا تروق ولا تعجب ، ولكن الرجل المصقول الاحساس المرن الخيال تخف أحلام يقظته اليومية بسري الخواطر وعبقري الافكار ، وهي تتوافد عليه طائفة ذلولة كأنها تنبعث في نفسه ابعاثاً أو تنبثق فيها من ينبوع ، وهذه الحالة توجد في كل نفس وتعرض للناس جميعاً ولكنها تتفاوت فيهم تفاوتاً في الكم لا في الكيف ، وهي مصدر هذا التفوق الذي اعتدنا أن نفسره تفسيراً صوفيًّا غامضاً أو نعزوه الى خوارق الطبيعة ، وقوة التوهم هذه هي التي تفيض على المؤلفات الفنية من سحرها وتطبعها بطابعها ، وهذا هو مرجع الفرق بين العبقرية والنبوغ ، وفي ذلك يقول الجاحظ بوتامير « النبوغ من شأنه أن يعرف علة تأتيه ومدى مذاهبه ومعالم مبادئه ولكن العبقرية ترى ذلك كله معلوماً في الظلام ولاشيء أكثر ابعاثاً في اللاوعي والنبوغ الارادة من خواطر العبقري »

ولكن التوهم الخالق مع ذلك لايكفي وجده لايجاد عبقرية فنية من الطراز الأول وليست نسبة قوته وتساميه متجاوبة مع عظمة الشاعر وتمكنه ورسوخ قدمه وان كان من الحق أن نسلم بأن عامل التوهم من العوامل النفسية التي لايمكن أن يستغني عنها الشاعر ، والشعراء الذين يأنسون في أنفسهم ضعف التوهم يعدون ذلك نقصاً في شاعريتهم يحاولون اصلاحه واستدراكه وشلر الشاعر الالماني الكبير كان كثيراً مايشكو من أن كثرة ادمانه النظر والبحث والنقد كانت تهبط بشعره وتفسد عليه أمره

***

ومن هنا يتضح لنا الفرق الهائل بين شاعرين من الطراز الأول وهما جيتي وشلر ، فقد كان يغلب على جيتي حرية التوهم ، وكان يغلب على شلر تحري القصد وتعمد التفكير وكان ذلك كثيراً ما يقيد خياله ويبيض اجنحته

وقد نستطيع أن نستخلص من ذلك ان التوهم على ماله من مكانة في تأثيل الشاعرية وامدادها ليس مرادفاً للعظمة الشعرية ، لانه مما لا خلاف فيه ان شلر كان أصدق شاعرية وأسمى مكانة من شعراء كثيرين غيره كان توهمهم لا يخضع للعقل خضوع توهمه

والتحليل النفسي للشعراء العظماء يرينا ان وظيفة العقل في بناء الشاعرية ليست أدنى مرتبة من وظيفة التوهم ، والتوهم الخالق كما اوضحت — يتناول المادة التي خلفتها الأحاسيس السالفة ، وكلما كانت معرفة الشاعر أوسع نطاقاً كانت قدرته على استيعاب المؤثرات التي توافيه بها الدنيا

أقوى وكان وزنه للاشخاص وتقديره للمواقف أصدق وأدق ، وكلما كان تفكيره أكثر انتظاماً وأحسن تسلسلاً وكانت ذاكرته أقوى وأحد كان توهمهُ أوفر ثروة وأكثر تنوعاً

وقد توهم بعض الناس ان الشاعر ليس في حاجة الى الاطلاع وتحصيل المعرفة لانهُ يستجلب من مشاعره ما يلزمهُ ، ولكن الأمر على نقيض ذلك فقد اشتهر كبار الشعراء بغزارة علمهم ودقة استيعابهم ، وقد اعتقد بعض الشعراء ان المعرفة تعرقل خيالهم وتفسد خلقهم . وقد كان هذا الاعتقاد من اسباب تخلفهم وتقصيرهم وعجزهم عن مساماة كبار الشعراء ، وحبيبي نفسه يقول « ان اعظم عبقرية تكون بلا قيمة بدون امدادات خارجية ، لان العبقرية ان هي الا القدرة على انتهاز كل فرصة والاستفادة من كل شيء في طريقنا وان تركب الصورة وتفخ الحياة في المادة التي تصل الى ايدينا ، وان نأخذ من هنا الرخام ومن هناك الآجر والقرميد الذي نشيد به الاثر الباقي ، وأين أكون واذا يبقى مني اذا كان هذا الضرب من الاقتباس والاستيعاب والتملك يلقي ظل الشبهة على العبقرية ؟ وما الذي صنعتهُ أنا ؟ لقد جمعت ما رأيتهُ وما سمعتهُ وما لاحظتهُ وأفدت من ذلك كله ، وكل ما كتبتهُ والفتهُ قد أضافني على الجزء آلاف الاشياء المختلفة وآلاف الاشخاص ، وشارك فيهِ بنصيب الكبار والصغار والشيب والشبان والسذج والمهذبون والحمقاء والحمقى ، وقد حباني الجميع بأفكارهم ومواهبهم ومجاربهم وبذروا في نفسي الحبوب التي حصدتها بعد ذلك

***

وهناك ظاهرة نفسية تسترعي نظرنا في الشعراء المعروفين ، وهي رقة الشاعر واتراؤها ووفرتها مما يدل على ان تركيبهم النفسي في غاية الدقة والتهذيب ، ويستتبع ذلك كثرة توالي الحالات النفسية المختلفة الشيات المتنوعة الظلال والتي يعجزهم في بعض المواقف التعبير عنها ووصفها وقد كانت الانغام الموسيقية تفجر الدموع من عيني ، وكانت المشاهد الجميلة تذهل شعوري عن نفسه وتنسيه ما حوله ، وقد مكنهُ هذا الشعور القوي من ان يحلل فلسفة الجمال تحليلاً قلَّ ان ترى له نظيراً في مؤلفات غيره من الفلاسفة النابهين

ويمتاز كبار الشعراء بذلك الدافع الغريزي الذي يرغمهم على التعبير عما يختلج في نفوسهم ، فأعمالهم ليست ثمرة الارادة المصممة وانما نتيجة ذلك الحافز الذي لا يستطيعون له غلاباً ، ومن خطل الرأي ان نعزو اتاجهم الى التلهف على الشهرة او تحري المصلحة الشخصية أو القومية

والميل الى الاعتراف والافضاء الى الغير مما يضطرب في النفس ويكتظ شعابها ميل طبيعي غالب على النفوس يستشعر الانسان فيه التنفيس عن كربه والتفريج من همه ، وهو في حالة الشعراء العبقريين ذوي الحالات النفسية الحافلة المتعددة الألوان والشكول أبين وأظهر ، والشاعر

العبقري يشتق لنفسه طريق التعبير عما يؤده حوله ويثقل عليه كتمانه من الآراء والمشاعر ، ولا يلتفت إلى مسألة تقدير ادبه والاعتراف بفضله ، والاهمال والاغضاء وعدم التقدير لا تشك بؤلمه وتبلبل منه ولكنه مع ذلك لا يبعثه على تغيير خطته ولا يؤثر في عمله

وقد كان جيتي يتخذ الفن وسيلة للتعبير عما في نفسه ، ومن اقواله في ذلك « كل ما نظمت من شعر كانت تثيره في نفسي مناسبات واقعية ، ولم أقدر قط الاشعار المتصيدة من الهواء ، والذي لم اجربهُ ولم يمت الى نفسي بسبب لم أحاول قط ان اعبر عنه أو أتغنى به ، ولم أقل شعراً في النزل الا وقلبي مفعم بالحب » وكانت تعرض لجيتي الحالات النفسية المتناقضة فيحاول التعبير عنها بوصفها وكان توهمه الخالق يوافيه بالمادة اللازمة ، وكانت مسراته وأحزانه وتوازع نفسه واتجاهات تفكيره تبدو جلية واضحة في طبائع ابطاله وأحاديث اشخاصه ، فنحسه يجري في عروقهم وهم يعيشون بحياته ويتقمصون برتبه ويعبرون عن افكاره

***

ولكن هذا النحو من الخلق الفني لا يتبعه الشعراء جميعهم ، ولم يكن الفن على الدوام تعبيراً عن مشاعر الفنان وعواطفه الخاصة ، وقد نهج شعراء آخرون منهجاً غير منهج جيتي وحاولوا ان يقفوا من ابطالهم موقف الحيدة والتجرد ، فشلر مثلاً كان يستمد موضوعاته من الخارج على خلاف جيتي الذي كان يستمدها من نفسه ، وكان جيتي يتصور الشعر تعبيراً عن مشاعره ولذا كان يقول عن اعماله « انها اجزاء متتابعة من اعتراف طويل » وشلر كان يقول « الهدف الذي يرمي اليه الشعر ويتطلع نحوه هو ان يكون أكمل تعبير عن الانسانية » ، وأبطال جيتي من لحمه ودمه ، أما اشخاص شلر فهي من خلق خياله الذي كان يجسم الانماط الخالدة من الأخلاق التي كان يصادفها شلر في الحياة الواقعة او في التاريخ والأقاصيص ، وكان يخلع عليها بعد ذلك الثوب الشعري الملائم ويلتمس الاستعارة المناسبة والقافية والوزن والعقدة الروائية ، ولم يكن جيتي يحفل بشيء من ذلك ولا يعنى به نفسه ، ومن أقوال هرمان جرم في ذلك « كان جيتي في أعماق قلبه نقيض شلر في تفكيره ، وكان يعترف بأهمية شلر ويحترم حياته الدائبة ويقدر عظمته وصدق رجولته ، ولكن ما كان يسميه شلر شعراً لم يكن كذلك في رأي جيتي ، وكانت طريقة شلر في خلق الشعر غريبة غير مألوفة عند جيتي ، فشلر كان يبدأ بالبحث عن المادة واختيار الموضوع ثم يتناولها بالصقل والتهذيب ثم يرسم خططه ويحدد أغراضه ويجعلها نصب عينيه وينطلق بعد ذلك في انجاز عمله ويتوفر على اتمامه كما يشيد البناء القصر الرفيع بحيث يكون مطابقاً للتصميم السابق وبعد ذلك يطلي جدرانه ويجهزه بالأثاث

المناسب والتحف اللائقة ويفتح في النهاية أبوابه للجمهور، وقد كانت هذه الصنعة الدقيقة مصدر قوة شلر، فقد كان شاعراً محترفاً وكان يبز جميع الشعراء في صناعة الشعر، وكان جيتي يقدر ذلك ولكنه لا يستطيع أن يمارسه، وقد بحث صناعة الشعر ووجوه نقده ولكنه كان يحثها من الخارج، وكانت الحالات النفسية تتوالى على جيتي وتنشأ من تلقاء نفسها، وكان توهمه الخالق يتكون من تلك الحالات ومن مختلف الأحاسيس، أما شلر فكانت حالاته النفسية متوقفة على اتجاه أفكاره فهي حالات تستجليها الافكار وتلقفها الارادة ولذا كانت آثاره النفسية ثمرة التفكير والروية

وقد كانا يعرفان ذلك من نفسيهما، فبعد لقائهما الاول كتب شلر الى صديقه كورنر عن جيتي « طبيعته كلها قائمة على أسس غير أسس طبيعتي، وهو يعيش في عالم آخر، وأساليبنا في التفكير جد متباعدة كما يبدو لي »

***

ولنترك الآن الشعراء وننتقل الى الموسيقيين، وأول ما يسترعي نظرنا في ملاحظات الذين كتبوا عن أكثر مشاهير الموسيقيين وشاهدوهم عن قرب ان عنصر اللاوعي ظاهر في أسلوب انتاجهم الفني وموزار نفسه كان يقول ان الافكار تطوف بنفسه كما تم الاحلام بمخيلة النائم، والتوهم المستقل الذي لا يخضع للارادة هو كذلك عتاد الموسيقار والمصور كما هو عتاد الشاعر، وقد يخطر لنا هنا أن نتساءل اذا كان التوهم الخالق هو أساس الانتاج الفني فكيف يتخذ الشعر مرة للتعبير عن نفسه وأخرى الموسيقى ومرة ثالثة التصوير ؟ والجواب على ذلك ان الاختلاف في طرائق التعبير راجع الى طبيعة الاستعداد الشخصي، وهذا الاستعداد أساسه تركيب الذهن وتفاوت النمو في المراكز العصبية، فجامجا الخطيب الفرنسي المشهور عندما شرحت جثته بعد وفاته لوحظ نمو مفرط في ناحية المخ التي يقع فيها مركز الاعصاب الخاصة باللغة والحديث والخطابة، والاستعداد للموسيقى يتوقف على نمو خاص في مركز أعصاب السمع، والاستعداد هو بمثابة الآلة للخلق الفني، وقوة العبقرية الخالقة هي وحدها التي تستطيع ان تستخرج النغمات من هذه الآلة

***

وقد كان موزار يمتاز عن غيره من الموسيقيين بخصب توهمه الذي كان يعمل بلا انقطاع ولا يني يمده بالخواطر والافكار، وكان يختلف عن جيتي ويشبه شلر من ناحية قلة تأثره بالحالات النفسية العارضة، ولم يكن لها كبير أثر في انتاجه، ولم يكن الفن عنده وسيلة للتعبير عن عواطفه واحاسيسه كما كان عند جيتي، وانما كان يستطيع ان يخضع توهمه الخالق لتناول أية مشكلة من

المشكلات التي يحاول ان يروضها ويستظهر عليها ، وكان يتهوفن على نقيض ذلك قانعاً عنده وسيلة للتعبير عن شعوره واحاسيسه ، وانتاجه الفني يمكننا من التعمق في ادراك حياته الروحية ودخائل نفسه ، وهو يصور لنا صراعه الداخلي وثوراته الخفية وألمه الدامي وسروره الطاغي ، وفي موسيقاه تعبير عن الصراع بين الحزن والسرور والأمل واليأس وكان انتاجه الفني كما تاج جبني « اجزاء متتابعة من اعتراف طويل »

وهكذا كان ما بين بيتهوفن وموزار من خلاف يشبه ما بين شلر وجيتي ، والتوهم الخالق هو العامل المشترك الذي لا تستطيع الاستغناء عنهُ العبقرية الموسيقية او الشعرية او التصويرية

والعبقرية العلمية شأن آخر يختلف عن العبقرية الفنية ، وهي تمتاز بعاملين عامل الاستكشاف وعامل الاختراع ، وقد اشتهر كوبرنيكاس وجاليليو ونيوتن بما وفقوا اليه في عالم الاستكشاف ، ونجاح المستكشف يتوقف جانب منه على الظروف الخارجية . ولما سئل نيوتن عن سبب كثرة استكشافاته قال ان الفرق بينهُ وبين غيره من الناس هو انهُ اكثر صبراً وأشد اقبالاً من غيره على ما يعالج من البحوث . وكان جاليليو يعمل طوال حياته ولما اصيب في بصره ظل عقله يدأب ويصارع المشكلات ، وأغلب الاستكشافات العلمية كانت ثمرة اليقظة التامة والجهد المتصل . والاستكشافات العظيمة تستلزم الملاحظة الدقيقة والالتفات الدائم وألمعية الفهم ، وحالات العلماء النفسية تختلف عن حالات رجال الفنون والتوهم الخالق ووفرة الحالات النفسية وكثرة المشاعر والأحاسيس لا تجدي على العالم بل هي تعرقل عملهُ وتقيم العقبات في طريقه

وعبقرية القائد البارع او السياسي المحنك قائمة على حدة العقل وسرعة الادراك والاعتراف بالحقائق وتقدير روابطها وعلاقاتها ، والسياسي لا يجب ان يتأثر بالحالات النفسية الطارئة ولا بالمشاعر المتيسة الغامضة بل يلزم أن يتجه الى غرضه بدافع الارادة الحديدية والعزم المصمم ، والقائد العبقري يمتاز بالحزم والثبات والتفكير الهادىء الرزين وهو يعرف كيف يحتفظ بثبات جأشه وحضور بديهته في المواقف الحرجة ، فتباؤه النفسي يختلف عن بناء الشاعر والفنان

وليست للملكات العقلية والخصائص النفسية والمزايا الاخلاقية منفصلاً بعضها عن بعض بفواصل قائمة حادة بل هي تتداخل وتتشابك . ومن ثمَّ يلتقي في العالم المخترع التوهم الخالق والعقل الاستقرائي

***

ويوجز القول أن العبقرية في فروع المعرفة المختلفة مردها الى الحالات النفسية المتباينة ، والنظر اليها من ناحية التعيين والتخصيص أقرب الى فهم طبيعتها من النظر اليها من ناحية التحرر والاطلاق

فلسفة النشوء الخالق

موازنة بينها وبين فلسفة النشوء التي ألفها سبنسر

لحنا عبود

٦ — نظرة في كتاب النشوء الخالق

اخصُّ هذا الكتاب بالنظر لانهُ محور فلسفة برجسن . ألَّفهُ سنة ١٩٠٧ وهو أستاذ في كوليج دي فرانس . هذا الكتاب آية فنه . راسَّ مكانته . ومظهر جدارته . ورسم فلسفته . وقد جعل مؤلفه بين عشية وضحاها من أعلام الفلسفة في عصرنا بل من أعلام الفلسفة في كل العصور . واليك بعض ما فيه : —

جاء في ص٤ من مقدمته ان فلسفة سبنسر زائفة . لانهُ لم يبيِّن فيها نشوء العقل، ولا نشوء المادة بل اخذ اليقينية ، وقطَّعها قطعاً . ثم حاول ضمَّ تلك القطع بعضها الى بعض ، كما يفعل الاطفال بضمهم قطع الكرتون الحاملة اجزاء صورة ، بعضها الى بعض . اما النشوء الحقيقي (الذي يستحق اسم نشوء) فليس الذي يركِّب قطع اليقينية بعضها الى بعض ، بل هو الذي يبيِّن كيف نشأ العقل ، وكيف نشأت المادَّة . وعبارة برجسن هذه ترسم لنا معنى النشوء الخالق محور فلسفته

قال في ص ١٩٦ : نبيِّن هنا كيف نشأ العقل . وفي الوقت نفسه نبين كيف نشأت المادة. وان خطوط تقدُّمنا العقلي تبين صورة فعلنا في المادة. فقد اشتقَّ كلا الاتيين من وجود أوسع وأسمى ، (ص ١٩٧) فهنالك يجب أن نرقب تولُّدها . وقد يبدو ذلك منَّا أعظم جرأة في التفكير الميتافيزيقيِّ . لانه أيغال في ما وراء علم النفس ، وعلم الكون ، وعلم ما وراء الطبيعة. لان هذه العلوم الثلاثة تتخذ وجود العقل امراً مسلماً به . فلا تُعنى بأمر تكوينه . بل ان فخنت الفيلسوف الالماني الكبير، وهو أعمق تفكيراً من سبنسر، لم يبحث في امر تكوين العقل (ص ٢٠٠)، وعلى هذا جمهرة الفلاسفة. فانهم لم ينظروا في الشعاب العضويات، بل حسبوا الطبيعة كتلة واحدة. وان الفرق بين العضويات وبين غير العضويات انما هو بالكمِّ لا بالكيف. ولكن وظيفة الفيلسوف الفلسفة. والفلسفة تتناول الحقائق لا الظلال. وقد نشعر ان عقلنا الذي يقود كياننا صنع نوعاً من التركُّز او الانكماش (ص ٢٠٢) والفلسفة جهد لتحليل المجموعة الحاصلة من العقل والأصل

الذي منهُ صنع العقل بطريقة التركيز او الانكماش ، واذا رجعنا الى ذلك الأصل فقد نقف على تدرُّج تكوين العقل منهُ بطريق الانكماش . فبين الأصل حالة تحيط بؤرة هي العقل (ص٢٠٤) وترينا أصله ، فالعقل وهو بؤرة في ذلك الأصل لا يختلف عنهُ عنصراً . بل هما واحد .

[حاشية] : ان ما أوردناه من كلام برجسن ينتهي الى أصل منه تكوّن العقل . وذلك الاصل هو البديهة والعقل بحسب رأيه تكوّن بالكماش جزء من البديهة كبؤرة . وظل باقي البديهة الذي لم ينكمش كهالة تحيط به يرينا أصل العقل . هذا هو رأي برجسن في نشوء العقل . فليس هو ظاهرة مادية ، ونشوؤه نظرة واضحة في فلسفة برجسن لم أقف لها على نظير في غيره من فلاسفة الابداع . قال في ص ٢٠٥ . يتناول العلم المادة غير العضوية ، واذا هو بحث في التعضويات فانما ينظر فيها باعتبار مادتها . أما الحياة فلا شأن للعلم فيها . فذلك شأن الفلسفة الخامس ، ولما كانت المادة والعقل ضربين لم يمكن النظر في تكوّن أحدهما دون النظر في تكوّن الآخر

وقال في صفحة ٢١٠ تحت عنوان « العقل والمادية » : — فلنحصر نظرنا في ما هو أعمق من الخارجية ، وأقل تدخلاً في العملية . أعني نحصر نظرنا في أعماق اختبارنا ، حيث نشعر أنا ضمن حياتنا . فنحن اذاً نغوص في بحر الاستمرار ، نائين عن عالم المادة اشتغالاً بالحياة (ص ٢١١) فاذا انسحبنا من بحر الحياة اذا نحن في بر المادة . فوراء الروحية من الناحية الواحدة ، ووراء العقلية والمادية من الناحية الأخرى ، فعلان ضدّان . فنقل من أحدهما الى الآخر ، وبقياس تقدمنا في الاستمرار الصرف نشعر ان أقسام وجودنا تتداخل بعضها في بعض ، فتركز وجودنا في نقطة واحدة كحد الحسام يفري فاتحاً الطريق الى الأمام . هنا الحياة والعقل حرّان . فاذا انسحبنا من هذا البحر ، او هذه الأبحار ، تحصنت ذاتيتنا ، وتبعثرت ذكرياتنا ، وانتشرت في الفضاء — كأجزاء متجاورة — وبذلك نكون قد هبطنا الى العالم المادي . على هذه الصورة تولدت هندسية فضائنا (٢١٣)

[حاشية] : أراد برجسن بذلك ان لاجسامه في عالم اليقظة ، حيث يكون وجودنا كثقطة هندسية ، غير ذات امتداد . فاذا خرجنا من ذلك الوسط تفرق ما كان مجتمعاً بمرتشم ، او تعدد ، ما كان واحداً وتحدد . فهذا هو عالم المادة . هذه هي نظرية برجسن في كيف نشأ العالم المادي . قال : — وهكذا تولد العقل والمادة بشطين ضدين في وسط واحد الحركة

(٢١٤) ليس الفضاء ضد طبيعتنا ، ولا الامتداد ضد عقولنا وحواسنا . فان العقل يقسم المادة في الفضاء أقساماً على ما يلزم لانشاء العلم ، لكل ذرة مادية تأثير في كل الكون المادي . كما أشار الى ذلك فارادي بقوله : كل جوهر فرد واحد يملأ الكون : والعلم الطبيعي مبني على تقسيم المادة ، وعلى تجاور أقسامها في الفضاء ، واستقلالها أحدها عن الآخر

(ص ٢١٧) المطابقة (بين العقل والمادة) حاصلة طبعاً في كون المادة حركة منكوسة (عن الحركة العقلية) في الوسط الذي كوّن العقل

[حاشية] : حل هنا برجسن عقدة الايثيون و نسف فلسفته . وفي اتصال العقل بالمادة عقدة العقد عند خلفاء ديكارت الذي قال بجوهرين متباينين منفصلين أحدهما عن الآخر كل الانفصال هما العقل والمادة

فكيف يؤثر احدهما في الآخر ؟ من هنا نشأ مذهب التوازي ، ومذهب التدبير السابق (الوحي) وغيرهما من المذاهب الحديثة . ولكن برجسن استطاع ان يثبت بطريقه العقل والمادة عنصران واحد لا ينفك عن الآخر فهما متلازمان دائماً

وقد ضرب لذلك مثلاً قال :— اذا قرأ أحدنا شعراً على مسمعي نغمات يحملها الى مخيلتي فأدخل في فكر الشاعر . وأرافق حركته كفعل واحد غير قابل الانقسام . فافهم روحه فاعلاً عن ماديات الشعر من حبر وورق وكلمات وحروف ونحو ذلك . وما دامت نفسي مستغرقة في المعنى الروحي لا أشعر بالمادي . ولا أحتاج في خلق العالم المادي إلا الى شيء واحد . وهو التكوص في عكس الاتجاه الاول . او التوقف في المجرى الروحي . أي التخلي عن معنى الشعر الروحي . فحينذاك تقع العين على الحبر والورق والسطور والكلمات . ثم أنتبه الى الوزن والقافية أعني ان العالم المادي قد خلق لي بخروجي او ارتدادي عن العالم الروحي . فهما حركتان سلبية وإيجابية كونتا العالمين المادي والروحي . او المادة والعقل . اما الأقدمون فحسبوا عالم المادة تدانياً من الكائن السامي الذي هو ايجاب او سكون . على هذا كان الفلاسفة في عهد افلاطون الى عهد بلوطينوس . بناء على ان الكائن السامي منزه عن الحركة او التغير (ص٢٢٢) فكون التغير ، او وجود المادة نقصاً في كيانه . وعلى ذلك قسموا الموجود الى كائن وغير كائن الاول عالم اليقين . والثاني عالم المادة

[حاشية] : اقد وضع ان الحركة او الصيرورة حسبت عند الاقدمين نقصاً . اما عند برجسن فهي اليقينية بالذات . واذا زالت الحركة زال الوجود باجمعه

يطرق برجسن في صفحة ٢٢٢ وما بعدها ابحاثاً في الاستدلال والاستقراء ، مبيناً هندسية صفتهما . وأن الاستقراء مبني على فكرة العلة والمعلول ، وان الناموس الطبيعي يعين التكرار . فيحدث بعد ما حدث قبل . كقولنا الشمس تشرق والنار تحرق . وهذا هو أس الاستدلال . وهو يدهش عقلنا لانه برينا النتائج في المقدمات ، وذلك قانون هندسي . ولكن الهندسة لا توجد ذرة واحدة في الكون . اي ليس فيها خلق . فالوجود انما هو التغير ، او المكان الماجرية الروحية . فالانقلاب تراخ . والتراخي امتداد . والامتداد اس الهندسة . اي امتداد المتكش

يلخ برجسن في صفحة ٢٢٧ نقطة الارتكاز في فلسفته وهي « الحياة » . وان نظامها غير نظام المادة مع ارتباطهما ، قال : نرى في اختبارنا اليومي بعض الاحياء ، او بعض مجالي الحياة يتكرر ذلك امامنا صوراً وواقعات . فنرى فيها مماثلة السابق اللاحق في بنيته وأوضاعه فيمكننا ذلك من التصنيف كما في علم الحيوان وفي غير علم الحيوان ، كعلم البسائط والمركبات . فنتراءى لنا وحدة الناموس في العضويات وفي غيرها . لأن كليهما يقود فكرنا الى التجريد (هذا هو مزلق سبنسر) . ولكن في العضويات ما ليس في غير العضويات . في غير العضويات لا يصحب التكرار ما هو جديد . اما في العضويات ففي كل تكرار شيء جديد . مثلاً : البلورات واحدة منذ الازل . تتكرر على

وتيرة واحدة ، دون تباين او تجديد (ص ٢٣٨) بين سابق ولاحق. كذلك التراكيب الكيميائية ، والاعيان الرياضية . ففي جميع هذه الاشياء المتقدمات تتأخرها دون ادنى تغير او تجدد او خلق . أما في عالم الاحياء فثمة تباين بين كل سابق ولاحق يزداد ذلك التباين بزيادة التكرار حتى ينتهي بنا الامر الى نشوء انواع جديدة او انشعاب الذراري بعضها عن بعض حال كونها من أصل واحد. وبهذا التجدد او الانشعاب يتجلى «النزوع الحيوي» المبدأ المصلح المرمم المجدد الباني المرقي. وبه يحدث الفرق بين النظامين الطبيعي والحيوي. ففي هذا ما ليس في ذاك . في الطبيعي للمعلول عله وللمتقدمات تتأخرها من غير زيادة او نقصان . اما في الحيوي فهناك تباين بين كل والد وما ولد . وعامل هذا التباين «النزوع الحيوي» فالافراد في العالم الحيوي كلية الاختلاف احدها عن الآخر. كما انها كلية الاختلاف عن نتائج التركيب غير العضوي مع تماثل العاملين . فتكرار النسخ في غير العضويات لا يوجد شيئاً جديداً . فاذا طبعنا مائة الف نسخة من كتاب ما فاننا نجد الصفحات والسطور والكلمات في كل سطر واحدة في المائة الف نسخة ، حتى وفي المائة مليون نسخة لو كانت . فالأمر واضح ألا جديد في التكرار حيث لا حياة . وليست العضويات كذلك . هنا لا بدَّ من التباين بين كل نسخة وما قبلها . اذ لا نسخة في العالم العضوي طبق الأصل في كل شيء كما في غير العضويات . ولا تحول الوراثة الحاملة الاعراض النوعية دون التباين في الأفراد . فاذا تكرر التناسل في مائة الف جد فكم يكون الاختلاف . مثلاً ما مدى الاختلاف بين سيدنا ابراهيم الخليل وبين حفيد برجسون ؟ وما مداه بين هذا وبين شخص آخر من الجد الأول ؟ يتقدم برجسن في صفحة ٢٤٩ لتبيان تكوين العقل والمادة فقال : — يراد بما ذكر خروج الكائن من الانكماش الى الامتداد . ومن الحرية الى الضرورة الميكانيكية بطريق الانكماش

— فما هو المبدأ الذي يتحول عن الانكماش ليمتد ؟ : — لما كان لا يوجد في لغات البشر اسم لهذا المبدأ فاني ادعوه شعوراً . على انهُ ليس الشعور الشخصي الخاص الذي في كل واحد منا . بل هو شعور عام او كوني . أما الشعور الخاص الذي في شخص فيميل الى عكس اتجاه ذلك الشعور العام منذ نشأ . هذا هو ميل العقل المادي الصيقة والصبغة والفرض . فقد وجد العقل ليعرف المادة ويقودها ويعمل بها وفيها ويألفها ويدبرها . ولا شأن له في الحياة أو في الشعور العام الذي أوجد المادة والعقل . فهنا شعوران عام وخاص . ولكي يطابق شعورنا الخاص الشعور العام الذي منه كان ، وجب ان ينفصل عما هو كائن ، ويلوذ بما هو في ماجرية الكينونة أو الصيرورة . أي يجب ان ينشئ على ذاته وان يكون النظر ملائماً للارادة . ولكي نبلغ اصل كل مادة وكل عقل يجب ان نجمع ذاتيتنا في فعل حر لنسوقها الى الأمام . فحينذاك

يكون لنا شعور ايجابي بالصيرورة التي بها تنطلق القوى الايجابية في صورة تحمل معها الاثر لنا في امتلاك المجرى الحيوي . حتى اننا في حالة الاستسلام للتيار فاننا نكون في صحبة شخصي لا غير . فاذا رمنا بلوغ المبدأ العام وجب ان نتعمق اكثر . فاذا امتلكنا البسيطة وجردناها حكمها أدركنا موضوع الفلسفة (ص ٢٥٢) واذا استعدنا كياننا الى ارادتنا ، وارادتنا الى الاندفاع الذي تحدده ، أمكننا ان نفهم ، وان نشعر أن اليقينية هي تموستديم وخلق متواصل . الانقطاع فكل عمل انساني ابداعي ، وكل فعل ارادي حر ، وكل حركة عضوية اختيارية ، كل من هذه الأشياء وما هو من قبيلها يأتي بشيء جديد الى الكون هذا هو معنى النشوء الخالق الذي قال به برجسن

لسنا المجرى الحيوي صرفاً . بل نحن هو محمولاً المادة العديمة الحياة بذاتها . وبالفعل الشخصي والجنسي نمد لولب عملنا الى ابعد مداه . فتخلق ما لا يخلقهُ مجرد تجمع المادة . واذا كان توقف الماجرية توقفاً بسيطاً يخلق مادة ، فلا يكون اذاً خلقها امراً غير مفهوم ، أو غير مسلم به . ان مجرد جمع الحروف لا يؤلف شعراً . وانما القريحة تلد الشعر في الفكر . فالخلق هو عمل الفكر البسيط . وتوقف الفكر يشيء الصفة المادية

(ص ٢٥٩) لنا في عالم المادة جسم هابط . ولا خيال يرينا جسماً صاعداً من أسفل الى فوق . ذلك عمل الحياة . فهي التي ترفع الساقط ، وتنهض القاعد . وجميع تحليلاتنا ترينا ان الحياة تميل الى التحرر من القيود المتحكمة في عالم المادة . ولو ان الحياة تركت وشأنها لفعلت ذلك

(ص ٢٦٠) أوجد نشوء الحياة الكلوروفيل النباتي الذي يدّخر الطاقة التي تناولها من الشمس والنبات ينفق طاقة اقلّ مما يدّخر . اما الحيوان فعلى الضدّ من ذلك ينفق اقل كثيراً مما يولّد . وهو يتناول باقي ما يحتاج اليه من النبات عن طريق المعدة . وبذلك يستقيم التوازن في مملكتي الحياة . فنشوء الحياة هو فرع الاندفاع الاول الذي ما فتيء ضد اتجاه المادة . هي الى أسفل وهو الى فوق . تميل المادة الى إرخاء الذراع الى أسفل . اما الحياة فترفع الذراع الى ما فوق الرأس . فالمادة كائن غير صانع ذاته . اما الحياة فكائن صانع ذاته . ومن طبيعة العقل أنهُ يرينا الاشياء والأحوال لا الحركات والتيارات . والاشياء والأحوال مشاهد العقل في الصيرورة . فما اراه في الكون هو نشوء اتوماتيتي غير صانع ذاته (٢٦٢) وهو المادة القابلة السير في حركات غير منظورة مقدماً (كما في دخولها التركيب العضوي) فتمثل عملاً يصنع ذاته

يتقدم برجسن بعد ذلك الى اصل الطاقة ، وينظر في العالم الجزري او العوالم الجزرية ويتطرق الى امكان حصول الحياة في غير الارض ، وبغير الطريقة المألوفة عندنا . وذلك بتناول الطاقة (التي تحل الكربون من الشمس عن غير طريقة الكلوروفيل . وهذا خارج عن نطاق هذه المقالة . فاضرب عنها صفحاً اكتفاء بما ذكر

٧ — تعريف برجسن لفلسفة التطور الخالق

قرأت كتاب جوم في برجسن وفلسفته . وكتاب الدكتور الذي اصطلح عليه برجسن واجازه ، وأذن لتلامذته ان يدعو فلسفته « فلسفة التغير » . وقرأت كذلك مقالة ول ديورنت في برجسن وفلسفته في كتابه « شيوخ تاريخ الفلسفة » . ثم قرأت كتاب برجسن « الزمان وحرية الارادة » . وكتابه « المادة والذاكرة » . قرأت جميع هذه غير مرة ولخصتها

وبعد ذلك قرأت كتاب التطور الخالق مراراً . ولخصته تلخيصاً يقرب من الترجمة وما زلت خلال اثنى عشر عاماً اتردد على مؤلفات برجسن حيناً بعد حين . وبعد كل ذلك لا اراني كفؤاً لتحديد فلسفته . اذ اني لم ألمّ بها الالمام الذي يؤهلني لشرحها قانوماً كما شرح ابن رشد ارسطو . هذا هو عذري لدى قارىء هذه المقالة اذا شام فيها نقصاً او خطأ . فلست بالمغرور ، ولا بالمستخف بخطورة الموقف . والآن اتقدم للقول : —

يبدأ برجسن في تطور العقل وتطور المادة . كيف وجدا ؟ وما هما ؟ وهو موقف غير علمي ولا تاريخي . بل سابق للعلم وسابق للتاريخ : هنا يقف فيرى بين تفكيره مبدءاً كونياً لا كلة في لغات البشر تصلح ان له . فيدعوه « الشعور العام » . او الشعور الكوني . لم يقل برجسن ما هو ذلك المبدأ . أالله هو ؟ ام اول مخلوقات الله ؟ ام الانبعاث الاول منه تعالى بحسب فرفوريون والاسكندريين ؟ ام العقل الاول بحسب ابن سينا ؟ ام هو اثر الله ؟ ام ظاهرة الله ؟ لم يقل برجسن ما هو . ولا انا اقول . لاني لا اقدر ان اسيطر على فكر برجسن فأعين مراده وكل ما قاله في هذا الشأن هو عبارتان في ص ٢٥ من كتاب التطور الخالق . العبارة الأولى : ما هو ذلك المبدأ الذي يترك امكانهُ ليمد ؟ والعبارة الثانية : اذ ليس لنا لفظ أصلح يطلق عليه فاني أدعوه شعوراً عاماً

فهذا الشعور العام عند برجسن هو أصل الاكوان . هو العنصر الأول الذي منهُ نشأ العقل ونشأت المادة . ولقد كان العنصر الاول أو تعيينه هدف الفلسفة الاغريقية الاول ، من طاليس الى أفلاطون . وهذا الشعور أو المبدأ الاول عند برجسن حركة بسيطة ذات اتجاهين ضدين ، سلب وايجاب . كأن يكون الاتجاه الواحد الى اليمين والآخر الى اليسار . أو ان ذاك الى فوق وهذا الى أسفل . فكون الاتجاهُ الايجابيّ العقلَ أو انهُ هو العقل . والاتجاه السلبي كون المادة ، أو انهُ هو هي . هذا هو مذهب برجسن في أصل العقل والمادة وماهيتهما واستمرار الماجرية هو الحياة . والحياة هي الديمومة وهي الذاكرة وهي الزمان الاضافي ، وهي البقية الازلية . فأصل الاكوان عنده الحياة — أقول ذلك بشيء من التحفظ لعدم ثقتي بذاتي تمام الثقة — هكذا يتراءى لي . وقد وصف برجسن دخول الحياة في المادة وتجليها بها

في الفصل الثاني من كتاب النشوء الخالق ، مبتدئاً من صفحة ٣٠ فصاعداً . وخير كلامه ما يأتي (طبعاً بشيء من التصرف) :

تمثل الحياة اندفاعاً متفجراً مفرقعاً فهي كبكرة تتفجر في انطلاقها فتتفجر شذرات . كل شذرة كرة كالأصلي وهذا صفة الأصل . أعني أنها انفجارية فتتفجر الشذرات في انطلاقها ويتولد عن انفجارها شذرات هي أيضاً كرات لها صفة السلف . أعني أنها كرات متفجرة ويتكرر هذا الفعل الى ما شاء الله . هذه هي ماجرية الحياة في المادة ، أو في مشهد الوجود . أما النزوع الحيوي فهو المبدأ الحي في المادة . فهو الأصل المتشعب في هذه الانفجارات ، وينشأ عنهُ الشعابات في المادة المتلبسة بالحياة . ويدعو برجسن ذلك ، المبدأ الحي « Elan Vital » وترجمته النزوع الحيوي . أو المحرك الحيوي أو المحرك الأول اذا شئت بحسب أرسطو . فهو الشعور الكوني ظاهراً في المادة ، أو حاملاً بها وفيها . فالحياة انفجار متسلسل تنشأ عنهُ عوالم ثلاثة ، تتباين بحسب نسبة أو حال النزوع الحيوي في كل منها . فالاول عالم النبات والنزوع الحيوي فيه نائم ويتصف هذا العالم بعدم الحركة الانتقالية . والثاني عالم الحيوان ، والنزوع الحيوي فيه مقيد ويتصف هذا العالم بالغريزة . والعالم الثالث الانسان والنزوع الحيوي فيه حر . ويتصف هذا العالم بالعقل . والغريزة هي البديهة مضيقة . والعقل هو البديهة تكتلت كبؤرة في وسط سحابة البداهة . فالعقل والغريزة صنوان ضدان متلازمان . هما في كفتي ميزان تشيل الواحدة برجحان أختها ، فحيث عمت الغريزة وسادت كان العقل ثانوياً . هذا هو حال الحيوان . وحيث عما العقل وقاد العملية ضعفت الغريزة . هذا هو حال الانسان

فالنشوء الذي قال به برجسون انشعابي ، لا سلسلة صاعدة . فيخالف بذلك أرسطو الذي جعل عوالم الطبيعة سلسلة صاعدة في ثلاث درجات هي الجماد والنبات والحيوان . وذروتها الانسان . فالانسان عند أرسطو وعند سبنسر غاية النشوء . وليس كذلك عند برجسن بل انهُ يرى ان لا غاية في النشوء . وانهُ لا يسير في خطٍّ واحد ، بل في خطوط عديدة . وقف بعضها وواصل التقدم البعض الآخر . وأشهرها خطان ، الاول خط الحشرات ، وعلى رأسها طوائف النمل والنحل . والثاني خط الفقاريات ، وعلى رأسها الانسان

يقول برجسن لو كان النشوء سلسلة صاعدة غرضها الانسان لكان النظام أمامنا يتجلى كلما تقدمنا ، ولكانت الوحدة تسود كلما تقدمنا في ماجرية النشوء ، والواقع ضد ذلك ، فان التشابك او التعقيد هو الذي يزداد كلما تقدمنا في ماجرية النشوء ، وليس النظام والوحدة ، ذلك وراءنا لا أمامنا . فاذا رمنا الوقوف على الوحدة البسيطة فالى الوراء تنظر لا الى الأمام ص ٢٥٣ . فكل من الأنواع الحية يحمل نزوعاً حيوياً ذاتياً . فلا يهتم الا بذاته . كأن لا حي سواه . من هنا تنازع البقاء في الافراد والأنواع والهيئات

وأرى ان نشوء برجسن الانشعابي اكثر انطباقاً على العلم من نشوء سبنسر وأرسطو. فأولاً — لأن الاستمرار هو صفة الاكوان براهنة كما ترى ذلك في دوران الاجرام السموية دوراناً محورياً وانجومياً. والانشعاب مألوف في اشتقاق المجرات والفقاريات والنظم الشمسية من السديم الأزلي العام الذي لا نعرف له حدوداً الى أرقى رتب الحيوان. ونرى ذلك ايضاً في المادة العضوية في شكل محسوس ملموس. فأصل الأحياء واحد له خواص كل من النبات والحيوان وأول انشعاب في هذا الأصل كوّن عالمي النبات والحيوان، وأقدم كوائن هذين العالمين متقاربة حتى لقد عدها بعضهم في عالم الحيوان وهي نبات او في عالم النبات وهي حيوان

تلا الانشعاب الاول انشعابات نشأ عنها انقسام كل من النبات والحيوان الى اقسام وأقسام اقسام الخ. فطوائف الاحياء متعاصرة لا متعاقبة، أصلها الواحد والبسيط، نشأ عنهُ المتعدد والمركب. وهذا حكم يصح في العلم صحته في الفلسفة. فأول النبت فلقة واحدة، بلهِ ذو الفلقتين، وأول الاحياء واحد الخلية بله متعدد الخلايا. وأصل الحيوان حتى يتم وظيفة الجنسين. ثم انشعب الى ذكر وانثى، وأصل المادة الاثير انشعب الى عناصر عرفنا منها الى الآن نحو اثنين وتسعين، هذا هو الأصل والفرع في عالمي المادة والحياة

وتتضح لنا صفة الانشعاب في الحيوان اكثر منها في غيره فلنا القبل، وفي كل قبيل شعاب تدعى صفوفاً، وشعاب الصف رتب، وشعاب الرتبة عائلات، فأجناس فأنواع

فنرى في هذا كما نرى في النبات وفي البسائط والمركبات صفة الانشعاب العامة. فهي أدنى الى العلم من القول بنشوء يتقدم في سلسلة صاعدة. هذا هو نشوء برجسن الخالق

٨ — دوائر النشوئيين

بقي عليَّ ان أورد وجوه التشابه والتباين بين نشوء سبنسر ونشوء برجسن فأقول: —

اولاً: يتفقان في المادة غير العضوية ويختلفان في العضويات

فنشوء سبنسر مفعولي والناشئات قابلة فقط. والعامل في النشوء الانتخاب الطبيعي. فلا شأن للناشيء وانما هو وسط ينفذ فيهِ حكم الناموس. هذا هو نشوء سبنسر. اما نشوء برجسن ففيهِ للعضويات جهود وللجهود أثر او آثار ففي الاحياء ارادة وجهد وأثر ليست في المواد العديمة الحياة

الثاني: نشوء سبنسر تعصبي تاريخي، هو عبارة عن وصف الحوادث الجارية في الكون في موضوعات او اوساط متنوعة، هي الجماد والحي والعقل والهيئة الخ

يرى سبنسر هذه الاشياء رؤية راكب الطيارة مدينة تحتهُ، وقد مرَّ بها فيصف ما رأى. اما نشوء برجسن فكتابة فيلسوف التاريخ. يصف ما رأى. وصف رجل قطر مدينة. فجاز في شوارعها. وسكن بيوتها. وعرف اوضاعها وعاشر أقوامها وخبر شؤونها فيتكلم حقاً عن

خبرة واطلاع . فلا يقتصر على قص الحوادث التاريخية بل يروي الحوادث ويحللها ويعللها ويربط بينها ويعلل أسبابها ولاحقاتها وعللها ومعلولاتها . هذا نشوء برجسن

الثالث : يرى سبنسر أن ناموس النشوء الحياة هو مطابقة العضوي لأحوال محيطه الخارجي . فإذا لم يطابقها هلك ، وزال من عالم الوجود . فنشوء الحياة مطابقة العضوي المحيط والتأثر . فهو متفعل ، متأثر . وثراؤه تراه حتى ورث سلفه . وليس له حول ولا حول . أما برجسن فيرى أن نشوء الحياة هو مطابقة أحوال المحيط الكائن العضوي . فالعضوي مؤثر كما أنه متأثر . وفاعل كما أنه متفعل . فهو كرجل مجاهد يقتني ثروة بجده واجتهاده إضافة إلى ما ورث عن سلفه . فثروة عضوي برجسن هبة طارف وتليد

الرابع : لنشوء سبنسر خط صاعد من أدنى المركبات إلى ذروتها العليا وهي الانسان . كأنه غاية النشوء . أما نشوء برجسن فليس خطاً صاعداً بل انشعابات في انشعابات ، وليس ثمة غاية . وبعبارة أضبط « لسنا نحس في النشوء ، الانشعاب من غاية . فسير هذا النشوء كسطح الأرض كثير التعاريج والعقبات من أغوار وأنجاد وسهول وأودية ، أو كمجرى النهر على سطح الأرض كثير التعاريج والالتفاف »

ويستفاد من سبنسر أن الحياة ظاهرة مادية ، والعقل ظاهرة حيوية ، والعمران ظاهرة اجتماعية ، فلما بلغت المادة درجة معلومة في سلم النشوء بدت فيها ظاهرة ندعوها « الحياة » وفي موقف معلوم تبدو في الحياة ظاهرة ندعوها « العقل » وكذلك في الاجتماع وغيره . وعند برجسن الحياة هي عنصر الوجود ، وبقية الكون ، والعقل والمادة تكوّنا بحركة واحدة ذات اتجاهين ضدين ففي نشوء برجسن وحدة المادة والعقل ، ومطابقتهما

الخامس : أن لنشوء سبنسر ميكانيكي حتمي . ونشوء برجسن ارادي حر خالق خالق . ويقول فيه برجسن أنه يفوق الميكانيكا والحتمية

وأخيراً : نشوء سبنسر « لا أدري » . والعلة الاولى عنده لا يمكن أن تعرف بل هي كما قال Unknowable . أما فلسفة برجسن فصوفية . والعلة الأزلية عنده لا يمكن أن تجهل : « بها نحيا ونتحرك ونوجد » . ولو جاز لي القول لقلت أن فلسفة برجسن تطور فلسفة سبنسر وتكاملها . ونسبتها اليها نسبة البوذية الى البرهمية ، أو نسبة المسيحية الى اليهودية . فكما أن البوذية تطور في البرهمية وعروج عن العقل الى الحقيقة هكذا فلسفة النشوء الخالق الذي قال به برجسن هو تطور فلسفة سبنسر وتكاملها . لا يقينية في فلسفة سبنسر . فهي تنحصر في الصور والاعراض . وفلسفة برجسن تتناول اليقينية التي هي قوام الوجود ولا تنقد بالصور والاعراض . وتلك اليقينية هي الاستمرار ، التغير ، الحركة ، الخلق ، الصيرورة . فهي فلسفة بكل معنى الكلمة . وهي ضربة قاضية على رأس المادية

بياعة التفاح

« بقية في الزاوية »

يا بياعة التفاح ماذا الذي عندك في السلّ تبيعنا
وهل تُراه مشبهاً للذي تحت خلاو الحسن تُخفينا
صفيه لي بالحق ان شئت ان أبتاع منه نحو عشرينا
ما لونهُ ما طعمهُ يا ترى ما عبقهُ بالله أفتينا

***

قالت وأبدت لؤلؤاً ناسماً في ثغرها الفتّان مكنونا
ثُغّاحنا في لونه ما ترى نعلي الذي والله أعطينا
وعبقهُ كالمسك فاشمم ولا تذق فهذا منكر فينا
تشمّ منه الورد جوريّةً صبحاً وفي الآصال نسرينا

***

يا بياعة التفاح قومي بنا نثر على الماضي الرياحينا
ولّى الشباب الغضّ والمنحنى وعهد لقيانا بمبدينا
لم يبقَ مني غير أحدوثة لن يروحون ويغدونا

***

يا بنت رحماك فلا تجهلي او فتجهلي كما تشائينا
أضاعك العشاق طيشاً فلا تضيّعي زين المحيينا
راح الزرازير «ولا تسألي» عوّضك الله الشواهينا

نجيب شاهين

قسطاكي الحمصي الحلبي

في رمز التاريخ

١٨٥٨—١٩٤١

عادل النضاف

في مستهل شهر مارس المنصرم روعت حلب بل روع العالم العربي بأفول نجم من نجومه المنيرة هو المرحوم قسطاكي الحمصي بك نقيا منه آخر كوكب — على ما نعتقد — من تلك الثريا المتألقة التي ظلت مدة نصف قرن ترسل من عليائها أنوار البيان العربي الصحيح

لئن اكبر العالم العربي فجيعته بالحمصي وفقد به مأثراً ساحراً وشاعراً عظيماً لقد فقدت حلب به ابناً من أبنائها البررة كان في العصر الحديث درة تاجها وعنوان فخارها وليست حلب بالمجهولة المكان في سماء الادب فقد أحبت كل عظيم وما فتئت معقل العرب ومستهل قرائحهم بآثارها الخالدة ومكتباتها العامرة وبساتينها النضرة وتاريخها الجليل فان مدينة تكون عربتها سيف الدولة وملتقى النوابغ الأعلام من مثل ابي فراس والمتنبي وابن خالويه وكشاجم الرملي وأبي علي الفارسي والمعري والبحتري والخالدي الى المراش والدلال وحسون والكواكبي والنزي والحمصي انها لحرية أن تباهي البلدان تيهاً وخيلاء وهي التي كان لها في النهضة الحديثة القدح المعلى فأول مطبعة عربية ظهرت في الشرق العربي كانت المطبعة الحلبية ثم نقلت الى لبنان وانتقل معها كوكبة من الحلبيين الأفذاذ ممن أخذت النهضة العربية بشغاف ليهم فبرزوا وقد توفر لهم الملجأ الأمين الى نشر مطاوي محاسنها واذاعة دفائن أسرارها وانتزاع الجرائد والفرائد من مفاوص دوحها بمؤلفات لا تزال الى اليوم ناطقة بفضلهم شاهدة بمجدهم منوهة بجدهم الخالد في حين كانت البلاد العربية الأخرى تغط في سبات عميق

لما شب الحمصي عن الطوق كانت حلب ولاية تركية غير ان الأثر التركي فيها وان شمل الجانب الرسمي منها وتجاوزه أحياناً الى بعض مرافق الحياة ما كان ليتوغل في صميم حياة أهليها وسجاياهم وعاداتهم وتقاليدهم ولاسيما في أدبهم وثقافتهم ولهوهم وطربهم وسياستهم واجتماعهم . وكابروا الى براعتهم في الشؤون المالية بسبب موقع حلب الجغرافي متأثرين بعوامل من الأدب العربي هي ثمرة ما غرسته في نفوسهم النهضة الحديثة من أصول الفنون والآداب وما هو أن يبلغ الحمصي أشده حتى يعمد الى الاستقلال بإدارة مصرف مالي كبير آل اليه من ابيه ولكنه مع ذلك لم يثن عن تحصيل العلم والاستبحار في الأدب متأثراً بذلك الجو الأدبي الذي ألمنا اليه

تبعد مدينة انطاكية عن حلب مسيرة ٩٠ دقيقة تتعلق فيها السيارة في ارض ممهدة قامت على جنباتها الآثار القديمة حتى اذا وصلت السيارة الى المدينة وتبعت سيرها صعداً الى رابية من روابيها تسمى «الحريات» رأى الزائر فيها قطعة من جنان الخلد قد نبتت بها يد التنسيق والتجميل فالصخور في أعلى الرابية تحجرت عن عيون من الماء انزلان قد سار في قوة اندفاع بين الأكم والتلعات الى رواق واسع منجرف الحافة ثم انحدر منهُ الى الوادي شلالات متفرقة بتطاير رشاشها وتلمع اضواؤها ويسكب ذوب اللجين فيها من علو شاهق على روضة أنف باسقة الاشجار غضة الغصون وارفة الظلال ثم يتفرع كل شلال جداول وسواقي تنساب السياب الرقشاء في ارض منبسطة حيناً وذات تعاريج ومنعطفات اخرى حافلة على زرد ضفافها وضاعيف أمواهها الري والحياة الى خمائل النوار ولفيف الشجر وظواهره السهل

وما أشبه الحمصي بهذه الجنة الغناء صورة وأثراً فنفسه كانت تفيض بمذهب البيان على هواها لا سلطان عليها في ذلك الاَّ التفاعل الذي يجري في جوانحه والتأثر الذي يحرك جوانب صدره فتنبثق منهُ عيون الشعر والشعر بقدرة الملكة التي حباه بها الله كما انبثقت تلك العيون الزلال بقدرة الله الذي حباها المتنفس . وما أشبه شتى الموضوعات التي نظم ردتها او نثر لآلئها بتلك الشلالات المتفرقة المبعثة الى الوادي تحمل اليه نسمات الحياة والخير العميم . فالشلال الاول فهو للدين

عرف الحمصي بأنهُ متدين مؤمن ولكنهُ لم يكن يفهم من الدين أنهُ أداة تعصب ذميم بل كان يفهم فيه العلاقة التي تربط المخلوق بالخالق والوازع الذي يقي النفس من نزعات الهوى والسبيل الى الاعتراف بوجود الله وخلود النفس وان تعددت النصوص بتعدد الديانات وكان رأيه في هذه الأديان كرأي جميع العقلاء في أن لشعب الأديان الصحيحة انما هي جداول مختلفة تلتقي عند مصب واحد هو الله خالق الأكوان والى هذا يشير بقوله :

كل يعبد الرحمن مذهبه والعقل يقضي بأوضح الطرق
الدين لله والبلاد لمن توطنوها من سائر الفرق

وللحمصي في هذا المضمار منظومة طويلة تربي على ١٥٠٠ بيت نظم فيها طرفاً من كتاب الاقتداء بالمسيح ونخباً من روائع مزامير النبي داود وحاك بردتها في أخريات أيامه تربى الى الله وزاق ورجاه أن يترك للشبية تراثاً روحيًّا تتوعب معانيه القدسية في هذا العصر الأنكر. واليك مستهل المزمور الخمسين منها وكلها على هذا النمط من السهولة والسلاسة قال .

رحماك ربي لا اله سواكا أنا عائذ بك لائذ بفناكا
فاغفر برحمتك العظيمة كل ما جنايته وتولني برضاكا
واقبل بأنعتك الجزيلة توبتي واغفر معاصي سائل غفراكا

قام الى جوار شلال الدين شلال ثان ما أحراه أن يكون تابعاً لهُ متحدراً منهُ ألا وهو شلال الأخلاق. نظر الحمصي الى الأخلاق نظرة الرجل الحكيم المهذب النفس الصافي السريرة

فأحب أن يتحلى بنو وطنه بمكارم الأخلاق فما أضاع الأمم شيء مثل تدهور الاخلاق وتسفلها ثم نظر الى الاخلاق من ناحية أخرى بعين الفيلسوف الاديب وقدر اثرها في رقي الدول وارهاف الاحساس وسمو العاطفة فراح يشيد بها ويدعو لها دعوة المؤمن بشأنها الرحيب ومقامها الاعلى وخير ما طالعناه له في النثر في هذا الباب كتابه « مرآة النفوس » وقد استهله بفصلين عقدهما في تأثير الاخلاق في الصناعات الجميلة وتأثير الصناعات الجميلة في الاخلاق وكلاهما بحث ممتع فياض الدين فيها للاخلاق من أثر في نفوس الافراد والأمم

اما تغنيه بالأخلاق شعراً فقد أجزل فيه القول في غير موضع فتارة ينفخ في رباب الناصح الشفيق وطوراً يفرع العصا لذي الحلم وحيناً يصف مكنونات الصدور وما تحويه من زيف وزيغ وما انطوت الجوانح عليه من حسد ولؤم الى كثير من مثل هذه المواقف الشريفة التي دوّى فيها صوته بلسان الأخلاق . وللحمصي في الاخلاق قصائد ومقطوعات كثيرة منها مجموعة من المقطوعات سماها « مرآة الأخلاق » ومنها موشحات هي غاية الغايات في هذا الباب

لا بد لمن يدعو الى الدين ومكارم الأخلاق أن يكون من أكبر دعاة الوطنية وهذا هو الشلال الثالث الذي فاضت به جوانب نفسه عن آي الشعر وأخذ السحر

كان الحمصي عين أعيان حلب من المسيحيين وكان منزله مقتدى العظماء والكبراء من الاتراك والفرنسيين فما بعد غير أن صلته بهم ونفوذه لديهم وما كانوا يحيطونه به من رعاية واحترام لم يثنه يوماً عن الجهر بعقيدته الوطنية وعصبيته العربية . أما مبدؤه السياسي فوحدة سورية واستقلالها التام في ظلال الراية العربية مع ما يؤلفها من مختلف أديان وأجناس ومن العدل هنا أن نشير الى أن مسلمي حلب ونصاراها قد ضربوا أروع مثل للتآخي والوداد وفي ذلك يقول إبان ذبح الأرمن في أنطاكية وما جاورها ووقوع الخوف والهلع عند نصارى حلب وما كان من ذمام مجاوريهم العرب بمكان حلب سنة ١٩٠٩

كل حمد لنا صنعتم قليل ... وابر الشكر قاصر والطويل
قد حقنتم دماء قوم لهم في ... ذمة المسلمين عهد جليل
شهد الله انهم أقرب النا ... س اليكم مودة والرسول
هذه سنة الاكارم طراً ... هكذا يحرس الخليل الخليل

ولما كان عضواً في مجلس الشورى بدمشق عهد بعض الساسة الى المناداة باستقلال حلب عن دمشق فاستقال من المجلس وقال قصيدته « الحلبية » المشهورة

انا لقربك بعد الهجر ميعاد ... فكار في وحشة والصحب ارصاد
حاشا لقومي ان يرضوا بفرقتنا ... وبينهم رب غيث ونقاد
اني اضن بقومي كيفما فصلوا ... من ان يفرقهم غل وأحقاد

وكم ثارت نفسه النبيلة عند ما كان يرى زمام الأمر في يد غير أهله وعند ما كان يرى الجهال والأدعياء متربعين في دست المناصب والنيابة فاسمعه يقول في مجلس المبعوثين التركي :

ولا بدعا ونحن في ميدان الكلام عن الوطنية الا ان امرض ولو لماماً لآراء الحمصي في السياسة العالمية وما اتصل بها من شؤون هزت مشاعره وانطقت لسانه فكاد لاتفتق ريح الحرب العظمى حتى ينظم قصيدته الكبرى « داهية الدواهي » وعند ما يدور القضاء دورته وتتمكن جيوش الحلفاء من فتح بيت المقدس يسجل لها ذلك الفتح بقصيدة عصماء يقول فيها :

رتي الحد يا معابد اورث ... لهم للقائمين جداً مضوّع
صدق اليوم قول كل نبي ... نظم الشعر لي حماك وسجع
منك يأتي خلاص الناس طراً ... من عداه عم الشعوب وروع
ويرى الخلق فوق طورك نوراً ... خلة الشرق تنجلي حين يسطع

سافر الحمصي غير مرة الى فرنسا واختلط برجالاتها كما اختلط بمدنيتها وشاهد مجالي ثقافتها وحضارتها ومظاهر لهوها وطربها وأقانين طوبها وآدابها واستمع لخطبائها ودعاتها فنراه قد خص فرنسا بكثير من قصائد ضمنها ذكرياته وأودعها ما وقعت عليه عينه من آياتها وروائعها غير ان حبه وطنه وأمنيته الكبرى في ان يرى سورية مستقلة حرة لم يمنعه في مستهل هذه الحرب الجديدة من أن يدعو لفرنسا بالنصر والتأييد في مقالة منثورة هي قطعة من الادب الرفيع ولما منيت فرنسا بكارثتها الكبرى نظم فيها قصيدته « أصدق الخبر في عبرة العبر » ورثى فيها لفرنسا وحمل حملة شعواء على الاشتراكية والشيوعية قال في مطلعها :

أكذا تكون مصارع الآساد ... أكذا تخر صماك الاطواد
ايه فرنسا ما اصابك بغتة ... حتى نعيت كسيد الاسياد
لو ان برج النسر زلزل بالأ ... ما كنت اعظم منك في الاعضاد

لا مشاحة في ان من يتعصب لوطنه يتعصب للغته وهذا هو الشلال الرابع الذي سال من نبع قريحة الحمصي وانسكب على رياض العالم العربي فأروى وأمرع

أما النثر فتأنق فيه دون ما تكلف ولا تصنع تأنقه في ملبسه ومأكله واختيار تحفه ورياشه بل تأنقه في خطه الفارسي الجميل وله فيه طريقتان لا تقل كلتاهما عن طريقة أكثر كتّاب العربية القدامى والمحدثين فان عمد الى الادب والوصف حتى في رسائله الى اخوانه طرز كتابته بالسجع وان عنّ بنسج بردة بحث لغوي او تاريخي او علمي استخدم النثر المرسل وهو في هذا وذاك يتوخى بالوضوح واشراق الديباجة وشرف اللفظ ومتانة الحبك وجمال الأسلوب قد أخذت منه خلة الاستقراء والاستقصاء ودقة البحث والتحقيق مأخذاً عز له فيه النظير

على ان نحفة نجد في رأينا هو كتاب « منهل الوراد في علم الانتقاد » فقد نحا في هذا المؤلف الفريد في بابه منحىً جديداً في أصول النقد وترتيب أبوابه وتقسيم فصوله ثم موازنته

بين الأسلوبة الالهية لذاتي ورسالة الغفران لأبي العلاء وهي بحث طريف ذهب فيه الى أن الأسلوبة الالهية انما هي صورة من رسالة الغفران فإما أن يكون دانتي قد قصد مدرسية قرطبة وتعلم اللغة العربية فيها واطلع على هذه الرسالة وإما أن يكون قد وقف على ترجمة لها ولا سيما ان أمراء الاندلس كثيراً ما كانوا يبحثون عن المؤلفات الجديدة كما كان علماء اليهود من العرب في الأندلس يترجمون المؤلفات العربية الى اللاتينية أو إلى العبرانية ومنها الى اللاتينية

ومن أمثال غيرته على اللغة العربية قصيدته البديعة ذلك انهُ قام في صيف سنة ١٩٢٠ نفر من الشعوبيين في بيروت ولبنان يدعون الناس الى العالم من حكومتهم أن تجعل اللغة الفرنسية رسمية في محاكمها ودوائرها فألهم هذا الحدث الحمصي موضوع تلك القصيدة التي يقول في مطلعها :

يا لله يا نسمات الرند والبان من نجد جئت أم من روض غسان
فان يكن ريحاً من ملابسها فطيب ليلى بأنفاس وأردان
حاضرها انها والحسن غايتها لها حواسد من أهل وجيران

ولئن بدا الحمصي محافظاً أشد المحافظة على اللغة والأسلوب انهُ لم يكن من المتعنتين الواقفين من جدة العصر ومستحدثاته موقف الجمود فانك ترى في نثره وشعره مع تلك المحافظة على اللغة والأسلوب أغراضاً عصرية شائقة بين معرَّب وموضوع جلاها في مقالات وقصائد وموشحات مثالاً رائعاً للقصص الشعري والوصف الحصري وفي موشحاته التي تناول فيها وصف الشؤون الطبيعية يقول أمام اللغة الشيخ ابراهيم اليازجي أنهُ لم تجر عليها قافية عربية من قبل وهذه شهادة لها قيمتها عند العارفين وان شئت أن تسمع تنديده بالجامدين والمقلدين فاقرأ موشحه «ميلاد الربيع» الذي يقول في مستهله:

انت من يا من على تلك الدمن يذرف الدمع ويستبكي الطلول
كم تناديها ولو أصغت لمن جاءها مستنطقاً كانت تقول
عد عن جهلك ياهذا الفتى كم سوارا او قريطاً او جريرا أو زهيراً أو اياساً أو هلال
او أبا النشناش والجمع الغفير من ملوك الشعر أرباب الفعال
كلكم يفعل أفعال صبي تندبون الربع أو بيت الوتر أو خيالاً زار ليلا ورحل
او حصاناً أو بعيراً قد عقر تضعون الدر في عنق الجمل
وخميس الترب فوق الذهب منذ الفي سنة بل ضعفوا فأبكم ترديد هذا النغم
تلك حال حسبها في وصفها حال قوم سلكوا في الظلم
وأضاعوا وقتهم في الطلب ذاك أو يقرب منه ما رواه عنكم التاريخ في فن القريض
بد حرتم كل شرط في مداه ولكم في نظمه جاد عريض
من نسيب أو مديح كذب وعن النقيب أعرضتم سوى ما أتى من مثل أو قافيه
وعظيم ابكرو مع مافيه وى من أعاجيب شؤون خافيه
لم يكن فيه لكم من سبب

فكأن الشلال من تلك الشلالات كان يتفرع جداول وسواقي كذلك كان شلال الشريعة الحمصي متفرعاً الى كثير من الجداول والسواقي فمن مطارحات ومداعبات إلى إخوانيات وخصوصيات إلى نسيب ومدح ورثاء رسم في ذلك كله صورة صادقة لحياته في جدها ولهوها ولخلجات نفسه في سرورها وحزنها ومجزىء عن هذا الفيض بعض الوصل توفية هذا الإطار الذي أرتضينا ان نحف به صورة حياته

فمن مداعباته ما كتبهُ الى صديقه شيخ العروبة المرحوم أحمد زكي باشا عند زيارته القاهرة سنة ١٩٠٢ ورؤية الخلان والاصحاب قد افترق عقدهم وتفرّق شملهم قال :

أصحابنا في مصر قد سبموا ... أصحابهم واستعصبوا الذكرى
سألت عنهم واحداً واحداً ... فلتة عنهم أحسن البشرى
كأنهم قد حصروا السعي في ... جمع الثراء الغاية الكبرى
وضيعوا كل تقلي بعدها ... للانس في المرجودة الاخرى

ومن هذا الباب ما قاله ايضاً وقد رأى النقاش في غرفة مكتبه يناوش في نقش السقف وتزويقه

هب ان هذا السقف من سجد ... وان هذي الارض من فضة
أليس ذا عزبة كلسه ... والمنزل الآخر في حفرة

وأروع ما قرأناه له في الرثاء رثاؤه الشيخ ابرهيم اليازجي والملك فيصل وسعيد باشا شقير واسعد خليل داغر . على أن أرق مراثيه قصيدته في حفيد له وقد كان له في قلبه منزلة لا تدانى لما كان عليه من حب العلم وما كان متحلياً به من آي الذكاء قال :

كيف أسبت يا حبيبي بعدي ... أسريراً حللت أم عرش مجد
كنت للعين قرة وسروراً ... للفؤادي ونجم أنسي وسعدي
ليتني مت قبل يومك بل يا ... ليتني قد سكنت ملك بلحد

ولعل هذه العاطفة الصادرة عن مثل هذا القلب الجريح هو أن الحمصي كان جم الشغف بأحفاده وحفيداته شغفه ببناته الخمس وكلهن وكلهن في المقام الأول من أدب النفس وأدب الدرس وفي بناته يقول :

انت يمن يوم عمائي ... التقيه بنباني
ذقت من لذات دهري ... كل أنواع الطيبات
كنت فوق الارض روحاً ... ساكناً هيكل ذاتي
تضاعفت فروحي ... هي في خمس بناتي
فحياتي في بناتي ... ان يمن يوم عمائي

هذه لمحة عن حياة هذا الشاعر وعن سحر فنونه بعد اذ جمع في تلك الفنون من حكمة المعري وثبات المتنبي وسلاسة البحتري ووصف ابن الرومي وما أجدر كل فن من فنونه أن يكون موضوع دراسة برأسها

مذهب السلوكية

للاستاذ نويل آي تريب
نقلها الى العربية : حسن السمان
— مدير مطبعة معارف البصرة

السلوكية نظرية جديدة غرضها سبر الحقائق العلمية المتصلة بسلوك الانسان عن طريق المشاهدة واسناد سلوك الكائن الحي الى اسباب فسيولوجية كيميائية وفي مقدمة من حاول ذلك بافلوف وماكدوجل . ولكن الذي تولى بحثها وسعى الى اعادة بناء علم النفس القديم على اسس علمية صحيحة واقنع جون واطسون وفي هذا البحث يحاول الاستاذ تريب تحليل هذه النظرية تحليلا مبسطا معتمدا في ذلك على ما جاء في مؤلفات واطسون الف رأي السلوكية

تمهيد

لم يكن علم النفس القديم الا ناحية من نواحي الفلسفة ، لم يتعد موضوعها دراسة خصائص الروح — تلك التي لم يفز أحد بعد باثبات وجودها . ولكن بعد ما انفصلت الابحاث المتعلقة بالروح عن الفلسفة ورجعت الى مصدرها الأصلي ، علم اللاهوت ، اختص علم النفس بدراسة العقل وما يتصل به ، وبالبحث عن الشعور ومظاهره . اما طريقة البحث فقد ظلت كما هي لا تتعدى دراسة التفكير الشخصي بالتأمل الباطني او بما يدعى بالاستبطان . ومن الطبيعي ان هذا النوع من الدراسة لا يضع علم النفس والعلوم الطبيعية الأخرى على صعيد واحد ، حتى ان فلاسفة القرن الماضي رفضوا ان يطلقوا عليه اسم «علم» لسبب ذاته . فاوجست كونت الفيلسوف الذي جوّز لنفسه اعتبار علم الاجتماع علماً لم يرض ان يضم علم النفس الى حظيرة العلوم ما دام مؤسساً على التأمل الباطني . وقد قال في هذا الصدد : و «بعد اشتغال دام نحواً من الفي عام لم يجمع الباحثون بعد على فرض واحد من فروض علم النفس فذهبوا مذاهب شتى حتى في الأصول الأولى لنظرياتهم . وسبب ذلك واضح جلي وهو ان التأمل الباطني يؤدي حتماً الى ابتكار نظريات لا يقل عددها عن عدد المتأملين . واننا عبثاً نحاول اكتشاف الحقائق النفسية ما دمنا نعتمد في بحثنا على التأمل الباطني»

ومن اشتهر في مهاجمة التأمل الباطني العلامة كرونو فقد كتب عام ١٨٥٩ « إن احدى

الطرق لفهم طبيعة الانسان العقلية والخلقية هي تلك التي لا تعتمد على دراسات الفلاسفة الذين تحدد النظريات عقولهم بناء على دراسات أولئك الذين حتم الطبيعة عقلية تتسع لادراك الناحية العملية من الاشياء ، أولئك الذين لا يتجهون بنظرياتهم من الاستغراق في التفكير والتأمل الباطني بل من ملاحظة سلوك الناس عند ما يكونون في حالات نفسية مختلفة وتحت تأثير عوامل متباينة »

وبعد ما تقدمت العلوم الطبيعية تقدماً بيناً وجد الباحثون النفسيون أنفسهم في مأزق حرج فقد قطعوا صلتهم بالفلسفة ومع ذلك يرفض العلماء الطبيعيون ادخالهم في حظيرتهم شأنهم في ذلك شأن من وقع بين مطرقة وسندان . وكان من جراء حرج موقفهم هذا ان حاول كثيرون من الباحثين النفسيين ادخال الأساليب الموضوعية في علم النفس لكي يبلغوه المستوى الذي بلغه من قبل علماء الفيزياء والكيمياء . وأول من حاول ذلك بطريقة غير مباشرة العالم الفلكي الالماني بسل . فقد كان هذا الفلكي دائم الخلاف مع أحد مساعديه المكلف الضغط على مفتاح عند ما يمر النجم الراقب من خط الهاجرة في مجال المرتب . وكان بسل قد لاحظ قبل عام ١٨٢٢ ان تعدد المراقبين يؤدي دائماً الى تفاوت في ما يخصي ويسجل عن الظاهرة الفلكية الواحدة . ولا يمكن ان يعزى هذا التفاوت إلاّ الى الاختلافات الفردية عند المراقبين أنفسهم . وكان من نتائج ما لاحظه هذا العالم ان أجريت دراسات علمية دقيقة لتعيين الزمن الذي يتطلبه رد الفعل لكل مراقب من المراقبين المشتغلين بالرصد ، وبحث العوامل المكيفة له

السيكولوجيا الفيزيائية

وليس من شك في ان الابحاث التي قام بها الفسيولوجيون الالمان وبصورة خاصة ابحاث أولئك الذين اختصوا بدراسة أعضاء الحس كان لها تأثير كبير في تكوين علم النفس التجريبي ، وكان لدراسات هلموتز في حاستي السمع والبصر الشأن الاكبر في تطور السيكولوجيا الحديثة وقد أثارت هذه الابحاث الفسيولوجية في نفس ارنست هنريك فيبر حب البحث عن الحساسية النسبية لمختلف اقسام الجلد . فاكتشف ان الانسان اذا ما حمّل في احدى كفيه ثقلاً يعادل ٣٢ درهماً مثلاً ثم أضيف الى الثقل عشرة دراهم أخرى فان الشعور بالثقل المضاف يكاد يكون يذاً ، ولكن عند ما يكون الثقل الذي يحمله الشخص ٣٢ أوقية (اونصاً) مثلاً ثم أضيف الى هذا الثقل عشرة دراهم أخرى فان الشعور بما أضيف من ثقل يكاد يكون معدوماً ولا يمكن ان يشعر به الانسان مالم يبلغ نحواً من عشر أوقيات . ومن هذا التجارب استخلص فيبر القانون المعروف باسمه وهو الذي يمكن التعبير عنه بما يأتي : « ان قابلية التمييز بين الاحساسات المختلفة لا تتوقف على الفروق المطلقة للمؤثرات وانما على فروقها النسبية » ولا ينحصر تطبيق هذا القانون على

الاحساس بالضغط فقط بل على الاحساس البصري والاحساس السمعي وعلى غيرها من الاحساسات

ولقد سعى جوستاف فيخنر الفيلسوف الرياضي الى تحقيق ابحاثه هذه وال فراضها في صيغ رياضية واشتقاق قوانين رياضية لنتائجها، ومما توصل اليه ان كثافة الاحساسات تختلف اختلافاً مطرداً مع لوغارتمية القائلية العقلية المتطابقة معها ». وقد عرف هذا القانون بالقانون النفسي الفيزيائي، وتميزت الابحاث النفسية التجريبية المشتقة من اتجاهات فيبر بالسيكولوجيا الفيزيائية. وعمت هذه الحركة العلمية الجديدة جامعات أوربية كثيرة، الا أنها لم تجد تربة أخصب من تربة جامعة ليبزج حيث أسس وهلم فنط عام ١٨٧٩ أول المختبرات السيكولوجية فكان بعمله هذا الواضع لأسس السيكولوجيا التجريبية العلمية. ومنذ ذلك الحين وهذا العلم الجديد آخذ في التطور السريع والتقدم المستمر فأسست المختبرات الخاصة به في اكثر جامعات المانيا والولايات المتحدة وفرنسا وحتى في جامعات بريطانيا

واحتل الباحثون السيكولوجيون الأول مقاماً وسطاً بين العلم والفلسفة فكانوا يحاولون في جميع ابحاثهم التوفيق بين الطريقة التجريبية وطريقة التأمل الباطني. وهم وان استعملوا المختبرات لتحقيق ما ابتدعوا من نظريات الا انهم كانوا يضطرون للتعبير عن النتائج التي يتوصلون اليها بالتعبيرات النفسية القديمة. وكان أغلب هؤلاء الباحثين ثنائيين، يؤمنون بوجود عالمين عالم العقل وعالم المادة، ويعتقدون أن تكيف الكائن الحي بحسب محيطه لا يمكن ان يفسر تفسيراً ميكانيكياً، فعامل العقل دخل كبير في اختيار الحالة الملائمة له او السبل الذي يأتيه. وكثيراً ماصرح هؤلاء بأن السيكولوجيا العلمية هي سيكولوجيا « لا روحية »، مع أنهم لو رجعوا الى أعماق نفوسهم لأدركوا أن الكائن الميكانيكي لا يستطيع التغلب على كثير من أمور المحيط بغير الاستعانة بالعقل وبالشعور

التفرقة بين الاعمال العقلية والاعمال الجسمية

ولكي يدرأ النفسيون عن أنفسهم هجمات الفسيولوجيين الماديين وحملات أضدادهم من الفلاسفة ابتدعوا نظريتين لشرح العلاقة بين الاعمال العقلية والاعمال الجسمية احداها نظرية التداخل [1] وتتلخص في ان العقل والمادة يؤثر أحدهما في الآخر تأثيراً متساوياً ومتبادلاً والنقد الموجه الى هذه النظرية أنها لاتتلاءم ونظرية بقاء الطاقة. كذلك لم يبرهن أحد بعد على صحة القول بأن العقل يؤثر في المادة. والنظرية الأخرى نظرية التوازي [2] ومؤداها ان الامور الحادثة في العالم العقلي لابد أن تكون مصحوبة بحدوث امور نظيرة لها في العالم المادي والنقد الذي يوجهه الفسيولوجيون الى هذه النظرية هو أن العلاقة بين الحوادث العقلية

(١) Interaction (٢) Parallelism

والحوادث الفجائية المتناظرة لم يبحثوا أحد ولم يعين موعدها وان هناك كثيراً من الفعاليات البدنية التي لا ترافقها فعاليات عقلية . وليس هناك عمل فسيولوجي يوازيه عمل عقلي اللهم الا ذلك الذي يؤثر تأثيراً مباشراً في الشعور الصماخية

ونظرية التوازي تفسح المجال أمام السيكولوجيين للاعتقاد بأن الشعور ليس الا نوعاً من الطاقة الدافعة الى توجيه الجسم فتجعله يتكيف بحسب محيطه

وكان الباحثون الأول يعنون بدراسة مختلف حالات الشعور بطريقة الاستبطان عند ما يعرض الأفراد لبعض التجارب الخاصة . الا انهم كانوا يسيرون عما كانوا يتوصلون اليه من النتائج بلغة تجمع بين الأفكار المادية ومثلاً راء النفسية . وقد عُرف هؤلاء بالبنائيين[1] لأنهم سعوا الى تحليل احساسات الانسان تحليلاً دقيقاً . وآخر من ظل مؤمناً بهذه المدرسة الفكرية العلامة تشيز الاستاذ بجامعة كورنيل بالولايات المتحدة الاميركية

أما أتباع جيمس والمحيل فقد تجاوزوا التعرض إلى ذكر العوامل العقلية الثابتة التي كان ينادي بها البنائيون مفضلين التحدث عن الظاهرات الشعورية والمجاري التي يسلكها العقل في شعوره . وتدعو نفسها هذه الفئة من العلماء بالوظيفيين[2] لأنهم كانوا يهتمون كل الاهتمام بمعرفة العوامل البيولوجية لغاية الانسان وفي نظرهم ان الاعمال التي يقوم بها العقل أجدى بالبحث وبالدراسة من محتويات الشعور . ويلاحظ ان هذه الفئة من الباحثين مع عنايتها بالتأمل الباطني في ابحاثها امتازت عن اتباع المدرسة السيكولوجية القديمة بكثرة اهتمامها بالقضايا الفسيولوجية المتعلقة بالامور العقلية

ولم يغير ظهور فرويد وأتباعه شيئاً من الموقف اللهم الا جعل الباحثين السيكولوجيين يؤمنون بتأثيرات العوامل اللاشعورية في الفعاليات العقلية . ولم يمهد السبيل لظهور السلوكية الا أولئك الذين سعوا الى تفسير افعال الحيوانات تفسيراً فسيولوجياً كبافلوف امثال بيت وفون يور وبوركسكول وفيردرن وجينجز وجاك لوب وغيرهم . ولا ينكر ان ما قام به بافلوف وأتباعه من تجارب وأبحاث في استكشاف طريقة الافعال المنعكسة الشرطية كان دليلاً قاطعاً على ان الشعور ليس بظاهرة سيكولوجية صرفة . وقد اهتم الاستاذ وليم جيمس زعيم الوظيفيين في الولايات المتحدة الاميركية باثبات تأثير العوامل الفسيولوجية في انفعالات الانسان والحيوان . وان ما سطره في رسالته « هل الشعور وجود »[3] يكفي لاعتبار وليم جيمس من الساهمين في وضع حجر الزاوية في بناء المدرسة السلوكية . كذلك لا ينكر ما كان للنظريات الخاصة بالحركات الآلية للجسم من شأن ، تلك النظريات التي وضعها ريبو ومولمترزغ وديوي وغيرهم من أساطين علم النفس في بناء صرح هذا الاتجاه السيكولوجي الجديد . ومع ان جينجز استعمل

(١) Structuralists (٢) Functionalists (٣) Does Consciousness Exist

كلمة « السلوك » في مواضع مختلفة في ابحاثه ورغم ان ما كدوجل يعتبر من اعلام علم النفس تعريفاً سلوكيًّا ، الاَّ ان الفضل في اطلاق تسمية « السلوكية » على هذه الابحاث الخاصة من علم النفس يرجع الى الدكتور جون . بي . واطسون استاذ علم النفس المقارن بجامعة جونز هوبكنز سابقاً وهو الذي لقب بزعيم السلوكيين

كفاح الدكتور واطسون

نشأ الدكتور واطسون نشأة علمية صرفة ، وهذه النشأة هي التي جعلته لا يستسيغ نظريات علم النفس القديم ساعياً الى دراسة الظاهرات السيكولوجية بطريقة علمية موضوعية . ولقد جاهر بوجهة نظره هذه عام ١٩٠٨ في محاضرة ألقاها بجامعة ييل ضمنها بعض آرائه عن الوجهة الصحيحة التي يجب ان يتجهها علم النفس الجديد . فكان لهذه المحاضرة شأن في الدوائر العلمية لانها تركت أثر استنكار في نفوس سامعيها من اتباع المدرسة القديمة ، ومع كل ذلك فقد كانت الباعث على تعيينه أستاذ علم النفس المقارن بجامعة جونز هوبكنز . وما انقضى في هذا المعهد بضعة أعوام حتى قذف الى العالم العلمي بقذيفته الأولى فرددت اصداءها الدوائر السيكولوجية جميعاء ولم تكن تلك القذيفة الاَّ رسالة بل احتجاجاً صارخاً على معتقي السيكولوجيا القديمة . وقد صرح في هذه الرسالة لأول مرة أن السيكولوجيا المؤسسة على التأمل الباطني ان هي الاَّ مجموعة من الابحاث الفطرية التي يسيطر عليها الدين وتوجهها الفلسفة ، وهما العاملان اللذان يحولان دون احتلالها المقام الذي تحتله العلوم الطبيعية . وما الشعور الاَّ اسم جديد لما كان يسميه الدين « روحاً » تلك التي لا محل لها في العلوم الطبيعية . ومما قاله أيضاً « أما السلوكيون فلا يريدون لعلم النفس الاَّ أن يكون ناحية موضوعية من نواحي العلوم الطبيعية تستهدف البحث عن سلوك الكائن الحي ، دون أن يكون للتأمل الباطني دخل في ذلك ، دون أن تفسر النتائج التي يتوصل اليها باعتبارها تفسيراً معتمداً على التعبيرات القديمة المستمدة من الشعور . ومهمة السلوكي رسم صورة موحدة للاجابة الحيوانية على أن لا يضع حداً فاصلاً بين الحيوان والانسان »

وما أن نشر هذا البحث واطلع عليه السيكولوجيون حتى ثارت ثائرتهم فتوالت على واطسون الحجات من كل حدب وصوب . وقامت طائفة من السيكولوجيين محاولة التخفيف من شدة الموقف وساعية الى التوفيق بين الوجهتين المتباينتين ، فأبدى الاستاذ انجيل من جامعة شيكاغو عطفه على الثورة الجديدة القائمة ضد علم النفس المؤسس على التأمل الباطني وصرح « بأنه ليس من المتعذر التعبير عن حياتنا العقلية بأساليب موضوعية سلوكية . ومع ذلك ليس من الصواب في شيء نبذ التأمل الباطني في البحث ، فثمة أحوال لا يمكن الكشف عن أسرارها بغير

هذه الطريقة . فالاجدر أن تهذب فتجدد ، وأن يدخل عليها بعض التغيير اللازم ولكن ليس من المنطق ترك أداة للبحث صالحة ما لم نحصل على بديل يقوم مقامها . ويجب أن لا يغرب عن ذهننا أن الاسلوب الموضوعي في البحث لا بدّ أن يركن الى الاستبطان سواء كان ذلك بطرق مباشرة أم غير مباشرة »

ومن الانتقادات الموجهة الى البحث الجديد أن السلوكية تستطيع البحث عن الاحاسة الحسية بحثاً شاملاً ، ولكنها عاجزة عن البحث عن القابليات الخاصة الكامنة في النفس كالتفكير والانفعال ، فهذه أمور بعيدة عن متناول أيدي السلوكية ، ويتعذر بحثها الا بالتأمل الباطني . وكان جواب واطسون على هذه الانتقادات رسالته التي نشرها في أواخر عام ١٩١٣ والتي كان موضوعها « الصور والوجدان في السلوك » (١) وفي هذه الرسالة حاول الاستدلال على أن الصور العقلية والميول الخاصة التي هي أهم عوامل التفكر والانفعال ، اشكال خاصة للسلوك فما التفكر الا النطق الداخلي ، وما الانفعالات الا تغيرات طبيعية في الجهاز التناسلي . وليس من الغرابة ان يثير هذا التوجيه بين اتباع المذهب القديم ضجة صاخبة وانفعالاً شديداً ، وهو ماحمل واطسون على الانصراف الى الرد على من سعى لقضاء على سلوكيته . فنشر في عام ١٩١٤ أول كتبه وعنوانه « السلوك : مقدمة في علم النفس المقارن » (٢) . وقد تضمن الفصل الأول من كتابه هذا خلاصة للرسالتين السابقتي الذكر واشتملت الفصول الاخرى على شرح واف للحالة الراهنة لعلم النفس انذاك . واوردها ايضاً عدداً من المقترحات لتوجيه السلوكية عندما يتقدم البحث التجريبي ، وكذلك طائفة من التنبؤات عن التطور الذي سيطرأ على هذا العلم الجديد

وقد ظهر في الأعوام القلائل التالية عدد ليس بالقليل من الكتب والرسائل والمباحث التجريبية الخاصة بالسلوكية . وفي طليعة هذه الكتب كتاب واطسون « علم النفس في نظر سلوكي » (٣) ولهذا الكتاب منزلة عظيمة في تطور المذهب السلوكي ذلك لأن واطسون حاول فيه التعبير عن الحقائق السيكولوجية الخاصة بالانسان بلغة موضوعية وبأسلوب علمي صرف . وفي الطبعة الثانية لهذا الكتاب التي ظهرت عام ١٩٢٤ وفق واطسون الى إظهار السلوكية بشكل لا يقبل الجدل ولا يسهل انتقاده ولم يستطب واطسون بعد هذا الاستمرار في التدريس بجامعة جون هوبكنز ففضل الانصراف إلى البحث العلمي وتوطيد دعائم النظرية التي اخرجها للعالم

(١) Image and Affection in Behaviour

(٢) Behaviour : An Introduction to Comparative Psychology

(٣) Psychology from the Standpoint of a Behaviorist

نشوء الاعتقادات

وقد صرح واطسون في كتابه هذا « ان الروح فكرة انحدرت الى الانسان الحديث من أسلافه الأولين الذين كانوا يستسلمون الى البطالة والكسل ويتسرعون الى التخيل والتصور. فقد وجد من بين الجماعات البدائية نفر ممن لم يرغب في الكد والتعب فأعرض عن الصيد وحمل الاسلحة الصوانية واستخراج الجذور من الارض مستسلماً الى التأمل والملاحظة . ومما استوقف نظر هذا النفر من الناس ان الاحلام الناتجة عن انكسار جذع شجرة او عن وعد قاصف او عن اي شيء يحدث ضجة وصريراً تبعث في نفوس الافراد الفزع والرعب فيتركون العمل الذي بين ايديهم مولين الادبار الى حيث لا تجد تلك الاصوات سبيلاً الى آذانهم . وسرعان ما ابتكر هذا النفر من الناس — وقد حبته الطبيعة قوة في الملاحظة وحدة في الذكاء — وسائل لاثارة مثل تلك الاضطرابات في نفوس الأفراد كلما وجدوا الى ذلك سبيلاً . فاستطاعوا بذلك ان يتسلطوا على سلوك الناس وتوجيه تصرفهم توجيهاً يسر النفع المادي عليهم . وما زلنا ، وقد قطعنا هذا الشوط البعيد في التقدم ، نرى مثل هذه الأمور تقع بين ظهرانينا . فالحكم يكيفون خلق الاطفال الناشئين ويمعنون في نفوسهم الشجاعة عند ما يخيفونهم بالشياطين السارية في الظلمة الحالكة وبالقوى الخفية في الرعد »

***

وتوسل هذا النفر الى التمويه على عقول الناس وللسيطرة على تفكيرهم بمختلف الوسائل ، فقد توسلوا بالرموز والطقوس ، بالشعوذات والوصفات ، بتفسير الاحلام وبالنبوءات . واستحال امرهم حتى صار الناس يخشون بأسهم ويظهرون لهم من ضروب الطاعة والاحترام ما لا يمكن وصفه . وكان من نتائج ذلك ان تجمع حول كل واحد من اولئك عدد من الناس يمتثلون لأوامره ويعملون لتحقيق مطالبه . فكونت بهذه الكيفية المعتقدات المختلفة وأسست المعابد والكنائس وغيرها من المؤسسات التي يراد بها التسلط على نفسيات الناس . وقد هيمن على تلك المؤسسات اناس عرفوا بالمرشدين والواعظين والمعلمين ، وكانوا يعلمون الناس تعاليم فلسفية ادت الى الاعتقاد بأن الانسان مؤلف من قسمين الروح والجسد . وظل هذا الاعتقاد سائداً بين علماء النفس لا يجرؤ أحد على مناقشته او الشك فيه الى ان قام الدكتور واطسون صارخاً « وممن من الناس يستطيع الادعاء بلمس الروح او بتحضيرها في انبوبة اختبار او كانت له علاقة بها كعلاقته بالأشياء المادية الأخرى ؟ ومع كل ذلك لا يجسر احد على الشك بوجودها خوفاً من ان يتهم بالكفر والالحاد الأمر الذي أدى بالكثيرين من المفكرين الأحرار الى الموت

الخلاصة

والسلوكي لا يؤمن بوجود روح او عقل او شعور . وهو لا يستعمل للاستدلال على معرفته للافراد مصطلحات ذاتية مثل الاحساس والادراك والانفعال والدوافع والفكر وغيرها من المصطلحات التي نجدها في كتب علم النفس القديم . وكل ما يقتصر عليه دراسته سلوك الكائن الحي دراسة موضوعية بمعرفته العوامل المؤثرة فيه وادراك الاستجابة الناجمة عن ذلك التأثير . ويقصد بالمؤثرات الاشياء المادية الموجودة في المحيط والتغيرات الناجمة عن ظروف فسيولوجية طارئة على الانسجة كالتغير الذي يطرأ على الحيوان من جراء الجيلولة دون تغذية قنواته الهضمية ، او تناوله ما يفتك به ، وبناء المنجأ الذي يلتجىء اليه في ساعات فراغه . ويعنى بالاستجابة مجموعة الفعاليات المنظمة التي تظهر على الحيوان عند ما يتأثر بمؤثر ما كالتفاته نحو النور ونزعه من الصوت العالي . ويعنى بالاستجابة ايضاً ما يقوم به الفرد من الاعمال المنظمة العليا كبنائه ناطحات السحب وقيامه بالمشروعات الهندسية الكبرى ، وتأليفه الكتب وغيرها من الاعمال التي تعود عليه وعلى ابناء نوعه بالفائدة المادية

ولا يمكن ان يكون علم النفس ذا فائدة للبشرية ما لم يكن الوسيلة لمعرفة الحقائق الخاصة بحياة الانسان . وتتعذر معرفة هذه الحقائق الا بدراسة الافراد في مختلف ادوار حياتهم دراسة تجريبية موضوعية كما تدرس حياة الحيوانات بالمختبرات . وعند ما يتم لنا ذلك نكون قد اقتربنا البشرية من الادوار المحيطة بها . ويقول واطسون في هذا الصدد « من الحبث ان يؤتى بالاطفال الى هذا العالم ان لم نعلم الآباء كيفية التسلط على سلوك الطفل في اعوامه الاولى لتوجيهه في حياته الاجتماعية توجيهاً صالحاً . اما الزعم بان البشرية توصلت الى معرفة اصول تربية اطفالها تربية اجتماعية صحيحة فمردود من جميع الوجوه والدليل على ذلك كثرة الذين يشذون بسلوكهم وبانجاحاتهم عن الحياة التي تحياها الجماعات »

وقبل ان نختتم هذا البحث نود للقارىء ان ينتهي معنا الى ان السلوكية او هذا العلم النفسي الجديد لا يختلف عن الفسيولوجيا الا في طريقة تصنيف الحقائق التي تؤلف مادة بحثه . اما مادة العلمين فواحدة فالفسيولوجيا تهتم بالبحث عن وظائف كل قسم من اقسام جسم الحيوان كالبحث عن وظيفة الجهاز الهضمي وعن عمل جهاز الدوران وفعالية الجهاز الحركي وميكانيكية الجهاز العصبي . والسلوكية وان اهتمت بالبحث عن هذه الوظائف بحثاً مستفيضاً الا انها تهتم بالدرجة الاولى في البحث عن سلوك الكائن الحي كمجموعة واحدة منذ ان يستنشق نسيم هذه الحياة حتى يستسلم الى الرقدة الأبدية

التصوير بالاشعة التي تحت الاحمر

تمثل الصورة اعلاه تمثالا نصفياً وقد حاول وقد صور تصويراً عادياً بضوء الشمس وبنفس المسافة والصورة الثانية للتمثال نفسه في حجرة مظلمة وانما أضيئت للتمكن من التقاط صورة له بالاشعة التي تحت الاحمر أثرت في فيلم حساس خصيصاً

[اعداد كتاب فلاشات صفحة ٢٤ في هذا الجزء]

كشاف الطائرات

الحربية والأشعة التي تحت الحمراء ومجراتها في الحرب والطب والعلم والصناعة وتحقيق الجرائم

لعوض جندي

نعني بهذا الكشاف جهازاً يدل على مكان الطائرات الحربية البعيدة في الجوّ . وفوائده الاشعة التي تحت الحمراء وهي أشعة الحرارة التي لا ترى بالعين . وقد أشيع حديثاً أنهُ يُظن أن بريطانيا العظمى تستعين بأجهزة حساسة من هذا الطراز لاستكشاف طائرات الاعداء[1] التي تطير في أجوائها لشنّ الاغارات على أهدافها . ومبعث هاتيك الاشعة الخفية ، محركات الطائرات أو أي جسم ساخن ، فتم الأشعة على ذلك الجسم الخفيّ ، بوسيلة تشبهها في المجهر الكهربي[2] الذي اخترع حديثاً

ويقال ان جهازاً أميركيّاً من هذا النوع قد تمّت تجربتهُ في التجربات الحربية التي قام بها حديثاً الجيش الاميركي الاول ولكن لم تنشر بشأنه معلومات ما

في دسمبر سنة ١٩٣٥ عرض الدكتور فلاديمير . ك . زوورِيكن Dr. Vladimir K. Zworykin الروسي المولد ، خبير الراديو المصوّر بشركة الراديو الاميركية ، في احدى جلسات جمعية تقدم العلوم الاميركية ، مبرقاً تستطاع به رؤية الاشياء ، التي تنعكس عنها الاشعة التي تحت الحمراء ، فأثار اعجاب العلماء . ثم وصفهُ في حينه المستر واطسون ديفيز Watson Davis مدير دائرة نشر العلوم الاميركية ومحرر رسالة العلم الاسبوعية فقال : —

يشبه هذا الجهاز الجديد ، المرقب في مظهره الخارجي ، ولكنهُ يستجلي الاشباح بالأشعة التي تحت الحمراء ، وهي الاشعة الخفية التي لا تتمكن العيون البشرية المجردة من رؤيتها

قلب هذا النظار الجديد مؤلف من غشاء رقيق من الفضة الممزوجة بمعدن السيزيوم المؤكسد مرسباً على لوحة معدنية . وهذه المادة شديدة الاحساس بالضياء الذي تحت الاحمر ، الذي تتفاوت طول موجته بين ٨٠٠٠ و ١٠٠٠٠ وحدة من وحدات قياس موجة الضوء المعروفة باسم مخترعها الفيزيائي Angstrom (وهي جزء من مائة مليون جزء من السنتمتر)

---

(١) راجع بحثنا عين الضباب — في مقتطف مارس سنة ١٩٣٤ في باب الاخبار العلمية

(٢) راجع مقتطف ابريل ١٩٤١ صفحة ٣٤٧

وحتى جعلت في الغد واحدة على هذه الوجه صورة شبح ما ، يتصوّر بالأشعة التي تحت الحمراء ، سواء كان ذلك الشبح شبح جسم تصدر عنهُ تلك الأشعة عينها او تعكس عنهُ ، من المصباح الكهربائي الذي يولدها . فتولد في الوجه مجرى من الكهربات ، وذلك في الاجزاء التي تتم انارتها من الصورة . ثم يمرُّ ذلك المجرى مروراً عاجلاً في أنبوب حيث يصادف في طريقه سلسلة من الحلقات ، المشحونة بالكهربائية ، فتحييه ، أسوة باحياء العدسة للضوء . ويسمى هذا الجزء من الجهاز بالعدسة الكهربية . ثم حينئذٍ تضيق الصورة من مجرى الكهربات المركزة ، وإن تكن هذه الصورة خفية ، فتصيب هدفاً آخر وتعني به حاجزاً مغشّى بمادة متألقة يعمل عمل الفلوروسكوب المعتاد المستعمل في حجر الأشعة السينية في المستشفيات فيحول ذلك الحاجزُ ، الصورةَ الخفية المؤلفة من الكهربات الى صورة ضوئية جلية . ويمكن تلخيص هذه العملية في ثلاث درجات ، أولاها — الاشعة التي تحت الحمراء التي تصدر عن الشيء نفسه او تنعكس عنهُ ، وثانيتها — تحويلها الى مجاري كهربات وثالثتها — تحويل تلك الكهربات مرة اخرى الى صورة ترى مضيئة ضوءها تراه العين

وقد توضع الحمراء في ذلك الحين ، الانتفاع بهذا المنظار ، في اثناء الحرب . فالاشعة التي تحت الحمراء تتولد ليلاً ونهاراً وتخترق البخار الخفيف والضوء والضباب والدخان بسهولة . ولا يعوق مسيرها ضباب ما الاّ اذا كان كثيفاً . ومع ذلك فالضباب الخفيف ، يعرقل حركات الطائرات في أية حال

وتتولد الاشعة التي تحت الحمراء من مداخن البوارج ، ومحركات الطائرات ، والغازات الساخنة التي تنتشر من أنابيب عادم المحركات ، على شكل سحب . ويستعمل هذا الجهاز لأجل اعطاء الاشارات الخفية ، على أن يكون مبعث أشعته التي تحت الحمراء ، مصباحٌ من المصابيح الكشافة ، ومستقبلها ، مرقبٌ من مراقب الأشعة التي تحت الحمراء . وعلى ذلك لا يستطيع الرقيب الذي لا يزود بذلك المرقب ، الشعور بتلك الأشعة وان مرّت بجانبه

***

أما المرقب الكهربي الذي عرضهُ الدكتور زوروريكن في شهر ابريل من السنة الماضية ، على أعضاء الجمعية الاميركية الفلسفية ، فقوامه العدسة الكهربية . واذا كان المجهر المألوف ، يكبر الاشياح تكبيراً محدوداً لأنهُ لا يوضح شيئاً تكون دقائقه أصغر من أمواج الضوء ، التي تبينه ، فان الكهربات وهي أدق من موجات الضوء تستطيع اذا ركزت في موضع معين ان تكبر المرئيات الى ٢٠٠٠٠ ضعف أو أكثر . اه — هذا ما رواه مجلة خلاصة العلم الاميركية

فوائد جديدة للاشعة التي تحت الحمراء

وقالت مجلة الميكانيكا العامة في جزئها الصادر في شهر سنة ١٩٤٠ ما تأتي ترجمته تحت عنوان المنافع الجمة للاشعة التي تحت الحمراء : —

اذا انتشر الضياء الابيض انتشاراً تاماً ، بمنشور زجاجي ، تمكن المرء من رؤية شتى الالوان وهو خطه المؤلف من الوانه السبعة وهي البنفسجي — النيلي الازرق — الاخضر — الاصفر — البرتقالي — الاحمر ويضاف اليها الاحمر القاتم . وهذه الالوان مجتمعة ، تمثل النور وان اختلفت اطوال أمواجها وهي تتباعد على تفاوت في قوس قزح . ولكن العين البشرية تعجز عن رؤية الاشعة الخفية التي في طرفي ذلك الطيف ، كما تعجز عن مشاهدتها في طرفي قوس قزح . وقد تبين ارباب العلم والصناعة أن هاتيك الأشعة غير المرئية تنقسم كل القسم فالخط المعروف باسم الاشعة التي فوق البنفسجية يمتد وراء الأشعة البنفسجية التي في طيف النور . ويمتد الخط الآخر المشهور باسم الأشعة التي تحت الحمراء ، وراء الاشعة الحمراء . والاشعة التي فوق البنفسجية ، قصيرة الامواج . أما الاشعة التي تحت الحمراء ، فأمواجها أطول منها في الحمراء قسما . وعند ما تزداد أطوال الامواج في مجموعة الاشعة التي تحت الحمراء تندمج في أمواج الحرارة ثم في الامواج المغنطيسية الكهربائية (الكهرطيسية)

وللاشعة التي تحت الحمراء منافع خطيرة في ميدان الصناعة . فقد اخترعت مصابيح للتجفيف تولد قوة فعالة من الاشعة التي تحت الحمراء أي أشعة الحرارة بدلاً من الضوء المرئي . والشعاع الذي يصدر منها يجفف الاشياء المصقولة ويحميها على اختلاف انواعها ، فيجفف الصور الفوتوغرافية المطبوعة ، والمواد الغذائية ومصنوعات الورق وما شاكلها ، وهذا التجفيف أسرع وأرخص منه بأجهزة التجفيف المعروفة . وتستخدم في صناعة السيارات طائفة كبيرة من هذه المصابيح وفي مصانع فورد وحدها اكثر من عشرة آلاف مصباح من هذا النوع ، مستعملة في عمليات شتى ، منها تجفيف طبقات البطين من الدهانات الزيتية ، والطبقات الاولى التي تصنع من الميناء ، والطبقات الخاصة من الميناء تمهيداً للترقيع . وفي مصنع فورد بريفر روج River Rouge بأميركا ، نفق طوله تسعون قدماً ، محتوٍ على ٤٨٠ مصباح للتجفيف كل منها قوته ٢٦٠ وط ، يستطاع بها تجفيف ، طبقة الدهان ، الزيتي التي تدهن بها اجسام السيارات في زمن يتفاوت بين عشر دقائق وربع ساعة ، بينما كانت عملية التجفيف بالطرق القديمة تستغرق ساعة كاملة

وتجرب الآن تجارب عظيمة لاختراع جهاز قوامه الاشعة التي تحت الحمراء لتجفيف مداد الطبع . وهذا من شأنه زيادة انتاج الجرائد والمجلات . وقد تم في خلال السعي لتذليل احدى العقبات الكأداء التي تعترض تجفيف الطبع ، اختراع أنواع الحبر أو المداد الطيار التي يثبت

معصم اليد فتكون هناك مقدمة تنتهي الى الحافة من جهة الاولى الى الخارج والجانب الثاني يدور الى الداخل نحو النصف بالاتجاه المقابل للاول تقريباً . ومن المنافع الصناعية الاخرى ، لتحضير الخشب الصلب المتصلب بالاسفلت لا سيما لجعلها طبقاً لشكل المطلوب ، انه كان ويسمى حتى هذه المادة بتسخينها بحرارة يتراوح ارتفاعها بين ١٥٠ درجة و ١٨٠ درجة بمقياس فهرنيت . وتفسير فائدة هذا العمل طبق المرام بالأشعة التي تحت الحمراء

وتستخدم هذه الأشعة في ميدان الطب ، استعمالاً ناجحاً كذلك ، فتدخل في علاج الجلد عند ترقيعه عقب اصابته بالجروح . وفي علاج الامراض والرضوض والحروق ، وفي اندمال الجروح عقب العمليات ، وفي توليد الحرارة التي يحتاج اليها لتليين السيفان والقواعد المصابة . وفي العلاج عقب تعرُّض لكسر مركب مصحوب باصابة العصب الزندي ، هذا الى استعمالها في العلاجات الرضية اي وضعها وضعاً مباشراً على العضو المصاب إذ ان الحرارة تعدُّ من أنجع وسائل العلاج عندما يشير بها الطبيب

واذا استعملت هذه الأشعة في التصوير الضوئي (الفوتوغرافيا) مدَّت نظر الآلة المصورة ، مدًى يفوق حدود البصر البشري ، فترى وتصوِّر بها اشياء لم تكن رؤيتها او تصويرها متاحاً من قبل ، وأوجدت سجلاً نفيساً وصوراً فوتوغرافية فنية يستحيل احرازها بأية وسيلة من الوسائل الاخرى . وفي وسع كل من لديه آلة التصوير الشمسي التقاط صور مفيدة فاخرة بالأشعة التي تحت الحمراء إذ يوجد فيلم لكل طراز من هاتيك الآلات التي يقتنيها هواة التصوير . وكل ما يحتاج اليه في هذه الحالة شيء مرتشح من طراز A خال من الجيلاتين لا يزيد ثمنهُ (في اميركا) على بضع سنتات

ويتوقف نجم التصوير بالاشعة التي تحت الحمراء على ارتشاحها والضوء كثيراً ما يتكسران ويتقلان عكساً وتقلاً مختلفين الواحد عن الآخر كل الاختلاف بعين الاجسام المألوفة . فالخضور الذي في الاوراق الخضر يمتص مقداراً كبيراً في المائة من الشعاع الظاهر الذي يسقط عليه ولكنهُ لا يمتص الاشعة الحقيقية التي تحت الحمراء فتنكس انعكاساً يكاد يكون كليًّا عن نسيج الورقة ولذلك يسجل ذلك الانعكاس بالالواح والشرائط التي تحس بتلك الاشعة . وكثير من الاصباغ الزاهية الالوان ، اذا نظرنا اليها بالعيون المجرَّدة ، لا تمتص الاشعة التي تحت الحمراء ولذلك تسجل بيضاً . والجلد البشري شفاف قليلاً تجاه هذه الاشعة الخفية فتفيد احياناً صوره التي تلتقط بها في الطب وذلك لتبيين الحالات الشاذة التي تستقر تحت سطح الجلد مباشرة

وقد نجحت الصور التي التقطت بهذه الاشعة في أساليب البحث عن الاجرام والمجرمين ، وفي تصوير الأجسام الدقيقة بالمجهر ، وفي علمي النبات والكائنات الحية المتحجرة المتقرضة

الآن . وهو العلم الذي يطلق عليه ايضاً اسم «البترولوجيا» أي الآثار المستخرجة من باطن الارض

ويغلب عادةً على صور مناظر الارض التي تصور بالاشعة التي تحت الحمراء السوداء الجوُّ فيها ، وتظهر فيها السحب والثلج بيضاً ، والتلال وارفة كل الوراق ، والحشائش وأوراق الأشجار خفيفة جداً كما لو كانت مغطاة بالثلج. بيد أن اوراق النباتات الدائمة الاخضرار تبدو للناظر في الصورة سوداء لان الاوراق الدائمة الاخضرار لا تمكن قدراً يستحق الذكر من الاشعة التي تحت الحمراء . والصور الفوتوغرافية التي تلتقط في الخلاء في وضح النهار ، بالاشعة التي تحت الحمراء ثم تُطبع بلون أقتم قليلاً من لونها الطبيعي تظهر للرائي كأنها أخذت في ضوء القمر . وأبرز الأشياء في ذلك النوع من التصوير الفوتوغرافي ، اختراق الضباب الجوي ، بآلة التصوير اذ الأشياء الخفية عن العيون البشرية يمكن تصويرها بالاشعة التي تحت الحمراء ، تصويراً جيداً واضحاً برتوقير او ألواح حساسة . وقد تم على ذلك الاسلوب التقاط بعض صور دائمة للمدن والجبال على بعد خمسين ميلاً او اكثر

ومن حيث ان الاشعة التي تحت الحمراء خفية ، فيمكن بها التصوير الفوتوغرافي في الظلام الحالك فيمكن عمل صور فوتوغرافية للاجسام الساخنة مثل المكاوي الحامية ، وذلك باستعمال الاشعة الخفية التي تحت الحمراء التي تنبعث من تلك الاجسام . ولهذا الضرب من التصوير الفوتوغرافي ، منفعة عظيمة في دراسة توزيع درجة حرارة الاجسام الساخنة ، مثل سبائك المعادن والقوالب الآخذة في البرودة والمواقد وأجزاء الآلات المحركة والمراجل الشديدة الضغط ، وما اليها

***

واذا اقترنت الأشعة التي تحت الحمراء بالآلة المصورة ، أتيح استعمالها في اغراض شتى في مكافحة الجرائم [1] مثل كشف التزوير وتفسير الكتابة المطموسة ، وفحص الدم وعيوب المنسوجات ، وكشف بعض أنواع الكتابات السرية واستجلاء غوامض المستندات المتفحمة ودراسة بصمات الأصابع ومحتويات الظروف المختومة وما شاكلها . واذا أضيفت الأشعة التي تحت الحمراء الى التصوير بالأشعة التي فوق البنفسجية أفادت في ميدان فحص المستندات اذ يستعان بها على استجلاء خفايا التنبيح [2] والترميح والطمس ، التي تحدث بمداد غير المداد الاصلي ، وكذلك يمكن بهذه الوسيلة قراءة الكتابة التي تكتب بمداد خفي ، واظهار عمليات

(١) راجع مقالنا (الكشف عن الجرائم بالاشعة) المنشور في مختطف يناير سنة ١٩٣٢ حيث قلنا في صفحة ٦٧ من ذلك الجزء ما نصه :— وقد أصبح استخدام الاشعة غير الحمراء ، احدث ما اهتدى به الى اتقفاء آثار المجرمين» (٢) التنبيح over writing — نسبة الخط وترك بياض — والتنبيح ايضاً . والترميح افساد سطور بعد كتابتها

البيض الكيميائية المعروفة . المكتابة المخطوطة كشفاً مكانيكياً . والاحماد والاصباغ وغيرها من المواد المختلفة التي تلوح للعيون البشرية متشابهاً بعضها لبعض ، كثيراً ما تظهر في الصور المأخوذة بالاشعة التي تحت الحمراء مختلفاً بعضها عن بعض كل الاختلاف

ويجد الاطباء في الصور المصورة بالأشعة التي تحت الحمراء خير معوان على (تشخيص) الداء اذ يتيسر لهم تصوير ما بين العروق السطحية التي لا تستطيع الصور الضوئية المعتادة اظهار بعضها . كما ان الصور المصورة بتلك الأشعة لتزحية العين ؛ تبين دقائقها التي تختفي في الصور المألوفة

ولهذه الأشعة فائدة عظمى في علم امراض النباتات وطبيتها (الباثولوجيا النباتية) اذ تساعد على فحص امراض النبات ووصفها وتعني بها الأمراض التي تغير المادة الملونة للنبات أو مادته الخلوية . واذا سلطت الأشعة التي تحت الحمراء ، على انواع مختلفة من الخشب ، لاح للناظر اليها مبلغ شفوف كل منها ، بفعل نفوذ تلك الأشعة فيه

وقد أسفر استعمال الصور المصورة بهذه الأشعة في صناعة النسج ، عن النجاح التام ، وذلك باظهار العيوب التي تقع في صباغة المنسوجات ولسجها ، والتلف الذي يصيب الخيوط الدقيقة . وللالواح الحساسة بالأشعة التي تحت الحمراء ، نفع في تمييز الألوان الزرق القاتمة من الحذيفة ، وفي ميدان البحث في الفنون والعلوم ولاسيما الفحص منها بالصناعات منافع أخرى للاشعة التي تحت الحمراء وهي فحص بواطن الالوان في أثناء اضرام النار فيها ، وكشف الكربون في زيوت التزيت وفي فحص مسامية الصفائح الفصدرية . وبمساعدة الصور التي تلقطها هذه الاشعة ، أتيح تسجيل مئات من الخطوط الطيفية الجديدة في تحليل العناصر ، وعرفت معلومات كثيرة في تكوين الكواكب ، وطبيعة اجواء السيارات . وقد اكتشفت طائفة كبيرة من الكواكب الجديدة ، وذلك بالشعاع الذي تحت الاحمر المنبعث منها . ولهذه الأشعة منافع كثيرة في التصوير الضوئي الجهري اذ هي تميط التام عن دقائق التركيب الداخلي للانسجة القاتمة الاتون والاجزاء الجهرية التي تفوق غيرها في الغلظ ، والنماذج التي تكون خفية في التصوير الضوئي الجهري المعتاد

وهي أصلح دليل لاثبات حقيقة الصور المرسومة بالزيت او زيفها ولاسيما الصور التي رسمها أعلام الفن القدماء ، وذلك بتصويرها بالأشعة التي تحت الحمراء مقرونة بالفحص الكيميائي وأشعة رنتجن وبالصور التي تصور بالاشعة التي فوق البنفسجية ، اذ الصبغات يختلف بعضها عن بعض في طريقة نقلها وعكسها الاشعة التي تحت الحمراء ، وإن خُيِّل للناظر انها متشابهة اللون . وبهذه الوسيلة يمكن كشف وجود المادة الملونة التي أضيفت الى الصبغة الأصلية للصور المرسومة بالزيت ، وتبيان ما يحتمل احداثه فيها من ضروب التزييف واثبات هل الصورة هي القديمة الأصلية نفسها أو نسخة جديدة لها

على هامش الحرب العالمية الحاضرة :

مصر وطريق الهند

— ٢ —

في القرن الثامن عشر

جمال الدين الشيال

بينا في مقالنا السابق «مصر وطريق الهند في القرنين ١٦و١٧» قيمة طريق مصر والبحر الاحمر من الناحية التجارية في عهد المماليك ، وكيف كان لمرور التجارة عبر هذا الطريق بين الشرق والغرب أكبر اثر في نمو الثروة المصرية مما ساعد حكومة المماليك على ان تحيا حياتها المشهورة بالبذخ والترف ، ومما ساعدها أيضاً على ان تقف مجهوداتها الحربية دائماً على صد كل عدوان خارجي مدمر عن مصر وعن العالم الاسلامي أجمع

ثم عرضنا بعد هذا لاكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وتحول التجارة عن الطريق المصري اليه ، ولأثر هذا التحول في الحياة الاقتصادية بمصر طيلة العهد العثماني . ثم تناولنا بالبحث المختصر أيضاً بدء العلاقات التجارية بين مصر والشرق في القرنين ١٦و١٧

وحديث اليوم تفصيل لبدء اهتمام انكلترا بطريق مصر والبحر الاحمر في القرن الثامن عشر وسنة ندرك كيف كان الانكليز عمليين عندما أعرضوا عن الدولة العثمانية وحاولوا الاتفاق مع أمراء المماليك مباشرة لتيسير نقل التجارة والرسائل عبر مصر والبحر الاحمر الى الهند والشرق الاقصى وبالعكس

﴿ اهتمام انكلترا بطريق مصر والبحر الاحمر في القرن ١٨ ﴾ لم يكد ينتصف القرن الثامن عشر حتى تابعت الحوادث تتابعاً غير منتظر ، وغيرت بذلك من مركز مصر ، ومن الاتجاهات التي كانت تسيطر على توجيه الطرق التجارية نحو الشرق

ففي سنة ١٧٦٦ استطاع علي بك الكبير القبض على نواصي الأمور فقتل بعض منافسيه ونفى البعض الآخر وشيّع الباشا الى القسطنطينية ، ومنع الجزية عن السلطان ، وضرب السكة باسمه ، واتخذ لنفسه لقب سلطان مصر ، وبذلك استطاع علي بك بضربة واحدة قوية ان يخلق من مصر دولة مستقلة

ولكنه لم يتمتع بهذا الاستقلال طويلاً فقد قتلته يد آثمة ، بعد أن ضرب المثل الأعلى لأعاده من الباشات ، وهكذا فإن مصر قضت الربع الأخير من هذا القرن كالبرجل المضطرب قلقة لا تستقر ، ثائرة لا تهدأ ، وبدت في فترات مختلفة وكأن زمامها قد أفلت من يد السلطان العثماني (١)

وفي نفس الوقت كانت تركيا تعاني أزمة دولية خطيرة ، فقد كانت في حرب مع الروسيا والنمسا مجتمعتين ، فمن اليسير إذن أن نستنتج أن هذا الاضطراب الداخلي في مصر وهذه الحرب المشتعلة في أوربا بين تركيا وجارتيها لا بد وأن يسترعيا أنظار الدولتين اللتين تهمان بشؤون الدولة العثمانية ، ويشؤون الشرق عامة : وهما فرنسا وانكلترا.

أما فرنسا فقد كانت تعتقد تمام الاعتقاد منذ ذلك الوقت أن حبل الدولة العثمانية قد حان وأنه من الواجب عليها أن تسرع فتقتطع لنفسها نصيباً من التركة ، وليكن نصيبها مصر أغلى درة في التاج العثماني ، والطريق إلى الهند وإلى الشرق الأقصى

أما انكلترا فقد اهتمامها بمصر شكلاً جد مختلف ، فقد حاولت قبل هذا محاولات للوصول إلى الهند عن طريق البحر الأحمر ، لم تسفر عن نجاح وها هي ذي ترى الآن بكوات مصر يكادون يستقلون بالأمر فيها

إذن قد رأى الخطر التركي الذي كان يمنعها من استعمال هذا الطريق ، وإذن لا مانع من أن تصل انكلترا بكوات مصر لتتفق معهم اتفاقاً يمكنها من الحصول على بغيتها

من هذا نتبين أنه كانت هناك وسيلتان لانشاء نوع من الصلة بين أوربا والهند عن طريق مصر : إحداها بالتقرب إلى الباب العالي صاحب السلطة الشرعية والنفوذ الأسمي على مصر ، والأخرى بالتقرب إلى السلطة المحلية ، سلطة البكوات ، الذين يديرون شؤون هذا القطر . أما فرنسا فكانت سياستها التقليدية تقضي عليها منذ أيام فرنسوى وسليمان بالاتصال بالباب العالي مباشرة

أما انكلترا فقد فضلت الوسيلة الثانية ، وبدأت تسعى لدى المماليك ، وأصبح لمصر بالتالي اعتبار هام في توجيه السياسة الانكليزية الخارجية منذ ذلك الحين

(جيمس بروس يعقد اتفاقية تجارية مع مماليك مصر سنة ١٧٧٥ م) ولكن سرعان ما تغيرت الأحوال السياسية في مصر والحجاز ، فقد ثار العرب بالحاميات المصرية في مكة وجدة وطردوها من هاتين المدينتين ، كما ثار علي بك في مصر أحد قواده حتى ألجأه الى الفرار إلى

(١) Charles Roux, L'Angleterre, l'Isthme de Suez, et l'Egypte. pp. 20-21

سوريا ، وبذلك أصبح عندلاء إلى الذهب العرض يهدد التجارة التي كانت تمر عن طريق البحر الأحمر

وفي هذا الحين — يناير سنة ١٧٧٣ — وصل الى القاهرة جيمس بروس James Bruce بعد ان درس الصعاب والأخطار التي صادفته في طريق عودته من جدة ، واستطاع بلباقة ان ينال عطف الحاكم الجديد ، وان يسوي معهُ نظاماً دقيقاً يمكن التجارة الانكليزيه من الاستمرار في طريقها ، كما استطاع بلباقة أيضاً ان يتفق مع الأمير المملوكي على تخفيض النسبة المئوية التي كانت تدفع كرسوم جمركية على التجارة الانكليزية من ١٤٪ الى ٨ ٪

ولم يكد بروس ينتهي الى هذا الاتفاق حتى أرسل نبأه الى القائدين «ثورنهل» و «برس» Thornhill and Price وأرفق بخطابه صورة من الفرمان الذي أصدره أبو الذهب لتأمين التجار الانكليز، وأرسل كذلك صوراً أخرى من هذا الفرمان الى حكام بنغال وبمباي. وحسب بروس أنهُ بهذا قد نجح في مهمته فترك مقاليد الأمور في يد القنصل البندقي ، واتخذ طريقه الى وطنه كي ينال الحكومته نبأ هذا النجاح الباهر

ولكن بروس لم يلق في وطنه النجاح الذي لقيهُ في مصر . بل لقد أظهرت الحكومة الانكليزية القائمة حينذاك عداءها لهذا المشروع، وذلك لأنها رأت في تحويل التجارة الانكليزية الى طريق السويس ضربة قاضية على الاحتكار الذي تتمتع به شركة الهند الشرقية ، كما رأت أيضاً ان التجارة بمرورها عن هذا الطريق ستكون مهددة بالأخطار لدى الحكومة الهولندية للفكرة في حدّ ذاتها

أما التجار الانكليز في الهند فسرعان ما رحبوا بهذه المعاهدة الجديدة ، وسرعان ما وصلت سفنهم الى مدينة السويس لتفريغ ما تحمل من بضائع الشرق. وأرسلت هذه البضائع الى القاهرة ومنها إلى الاسكندرية ، ومن الاسكندرية نقلتها إلى اوربا بعض السفن التي كانت تفد إلى هذا الثغر بين الحين والحين، ووصلت إلى انكلترا عبر الطريق الذي كان يصل بين تريستا Trieste وثغور انكلترا (١)

وأخذت السفن الانكليزية خلال الثلاث او الأربع سنوات التالية لمعاهدة سنة ١٧٧٥ تفد إلى السويس من الهند والى الاسكندرية من انكلترا في نفس الوقت ، وأدرك التجار الفوائد الجمة التي تعود عليهم من اتباع هذا الطريق ، ولكنهم ادركوا كذلك ان هناك بعض الصعوبات التي يجب عليهم العمل على تذليلها . هذه الصعوبات كانت تتلخص فيما يلي :

(١) Charles Roux Op. Cit. p. 52

١ — الرياح الموسمية الغابة على المحيط الهندي ، ٢ — ثغور البحر الأحمر الصخرية ، ٣ — الطريق الصحراوي بين السويس والقاهرة

ولكن هذه الصعوبات مجتمعة لم تثنِ عزم التجار الوافدين من الهند ، كذلك لم يثنِ عزمهم احتجاج الباب العالي على اتفاق ١٧٧٥ ، واستمرت العلاقات على أحسن ما تكون بينهم وبين بكوات القاهرة

﴿ التاجر بلدوين يحاول اتمام جهود بروس ﴾ ظهر في ذلك الحين في أفق هذه العلاقات تاجر انكليزي آخر أخذ على عاتقه إتمام المهمة التي بدأها Bruce . كان هذا الرجل واسمه (G. Baldwin) تاجراً من النوع المخاطر الكثير التجارب ، وقد اشتغل بالتجارة مع الشرق سنة ١٧٦٠ ، واستطاع بثاقب فكره أن يدرك المزايا الجليلة التي يمكن استغلالها إذا نظمت طرق التجارة المارة بمصر

رأى بلدوين أن مصر خالية من أي فرد يمثل التجار الانكليز تمثيلاً رسمياً أو غير رسمي ، فسعى لدى الحكومة الانكليزية لسد هذا النقص واستطاع أن يحصل أولاً على موافقة شركة الهند الشرقية والاعتراف به كممثل لها في مصر ، وذلك لأن شركة الهند كانت لا تزال تتمتع باحتكار التجارة في الشرق الأدنى تحت رعاية الحكومة الانكليزية

اعترفت شركة الهند ببلدوين كوكيل لها في مصر على أن تدفع له أجراً معلوماً ، ومبلغاً خاصاً عن كل ملف من ملفات المراسلات يمر خلال مصر عائداً ، وبذل بلدوين كل ما في جهته من جهد في السنتين التاليتين لاختصار المدة اللازمة لتبادل المراسلات بين لندن والهند ، وقد نجح في هذه المحاولة نجاحاً باهراً بحيث أصبحت السفن الواردة إلى السويس سنة ١٧٧٧ لا تكاد تفرغ حمولتها ، وتأخذ أهبتها للعودة الى الهند حتى تكون الرسائل الخاصة بلندن قد وصلتها وأرسلت الرد عليها فتحمله هذه السفن معها وهي عائدة ، وبحيث أصبحت السلطات العليا في انكلترا والهند تعتمد على هذا الطريق اعتماداً كلياً في كل مراسلاتها الهامة ، وبحيث أصبحت الرسائل التي تمنون بأنها « وصلت بالطريق البري » تثير اهتمام ذوي الشأن وعنايتهم

﴿ العقبات تعترض بلدوين ﴾ ورغم هذا النجاح كانت لا تزال هناك في سبيل استعمال هذا الطريق عقبات كأدوات يبينها بلدوين في قوله :

« بدأ الترك — الذين لزموا الصمت حتى هذا الوقت — الشكوى ورغب رئيس الجمارك في اقتسام الأتاوة التي تدفع ، كما اشتكى شريف مكة من أن ثغر جدة قد هجر ، واشتكى مديرو

شركة الهند الشرقية لأن تجارتهم ستتحمل خسائر فادحة ، كما أنشأت الشركة التركية واستانبول لأنها ستتحطم» (١)

فرح مديرو شركة الهند الشرقية أول أمرهم لأنهم حسبوا ان هذا الطريق سيكون وسيلة جديدة للاتصال بين الهند وانكلترا ، ولكنهم سرعان ما اكتشفوا أن هذا الطريق باعظ النفقات ان لم تنله يد الاصلاح ، كذلك أدركوا أن شركة الهيفات قد تتقدم لحمل البضائع الشرقية التي تفد على مصر من كل حدب وصوب فتحملها الى انحاء العالم الأوربي ، وتكون بذلك منافساً خطيراً ، وفي نفس الوقت أرسل القنصل الانكليزي في القسطنطينية (واسمه هايس Hayes) الى حكومته ينبئها بأن الحكومة العثمانية قد اعتزمت عزماً أكيداً أن تقضي على التجارة المارة عن طريق البحر الأحمر . ووافق هذا النبأ الرغبة الانكليزية فأرسلت الحكومة في الحال الى تجارها في الهند تأمرهم بالاقلاع عن استعمال هذا الطريق ، كذلك أرسل الباب العالي للباشا في القاهرة يأمره بمطاردة هذه السفن وألا يسمح لاحداها بتفريغ بضاعتها في مصر

كان بلدوين قد بذل كل ما في وسعه لانجاح هذا المشروع ، ولكن المعارضة واتته من كل حدب وصوب : من حكومته في لندن ، ومن الدولة العثمانية ، ومن شركة الهند الشرقية . وقد حاول بلدوين التغلب على هذه الصعاب ولكن اضطراب الحالة الداخلية في مصر بموت أبي الذهب سنة ١٧٧٦ زاد في حرج مركزه

وصل الى البلاط العثماني في ذلك الوقت القنصل الجديد انسلي Ainslie . وكان البكوات المماليك قد رفعوا الرسوم التي تحصل على البضائع التي تفرغ على أرض مصر الى ٢٠٪ فذعر التجار . وذعر بلدوين ، وطلب التجار الى حكومة السلطان ان تنصفهم من هذا الاجحاف كما طلبوا الرجوع الى معاهدة سنة ١٧٧٥

ولكن انسلي — لعداء الشخصي بينه وبين بلدوين — لم يؤيد هذا الطلب لدى حكومة الباب العالي بل أرسل تقريره الى الحكومة الانكليزية يبلغها رغبة الحكومة العثمانية الشديدة أن تمنع السفن من المرور في مياه البحر الاحمر والاتصال بموانيه — ماعدا ثغري جدة وموخا — لأنها تعتبر أن البحر الاحمر كطريق الى مكة والمدينة يجب أن يستمر حرماً آمناً لا حق لأية سفينة مسيحية بالمرور فيه

ونتيجة لهذا الخطاب أرسلت الحكومة الانكليزية أوامرها المشددة الى حاكم البنغال والى بلدوين تلزمهما تنفيذ هذه الرغبة [للبحث بقية]

(١) Hoskins, The British Routes to India, p.p. 11,12.

جزيرة كريت

وأصول العمران الاوروبي

للسر آرثر أفانس

إن عمراننا الحديث مبنيٌّ على عمران العصر الظراني الحديث الذي استقى من سنن وادي النيل ووادي الفرات . ولقد كان العلماء يحسبون ان العمران اليوناني نشأ دفعة واحدة كما كان القدماء يزعمون ان أثينا ولدت من رأس المشتري وكانوا يقولون ان ما انتبهَ العمران اليوناني من المشرق حديث او مقصور على شيء استعارهُ كالحرف الهجائية وبعض العبارات والتقاليس وكانوا يستثنون مصر الى عصر الاسكندر الا ان المكتشفات الحديثة أوضحت ان نشوء العمران اليوناني لم يكن شيئاً قائماً برأسه إذ قد ثبت ان بلاد اليونان اتصلت بمراكز العمران القديمة شرقاً وجنوباً بانتباسها العمران كريت السابق لعصر التاريخ وبالدرجة السامية التي بلغتها في كل الصناعات والفنون . فان جزيرة كريت وهي حلقة متوسطة بين ثلاث قارات كانت بحكم الوضع الجغرافي مهد العمران الأوربي الحديث والعمران الذي دخلها من هذه القارات وجد فيها عمراناً قديماً جداً كما يستدلُّ من بعض الدلائل الجيولوجية فان تل غوسُس الذي وجدت فيه آثار العمران المينوي (١) يشبه تلال العراق ومصر في كونهِ مؤلفاً من طبقات من أنقاض المباني . وآثار العمران المينوي فيهِ لا تشغل أكثر من ارتفاعهُ ١٩ قدماً ويعتد تاريخها الى سنة ٣٤٠٠ قبل المسيح على الأقرب . وسمك الانقاض في التل كلهِ أكثر من ٤٥ قدماً . ولم تكن تتراكم بكثرة في العصر الظراني الحديث كما كانت تتراكم بعدهُ ولكن لو فرضنا سرعة تراكمها بقي ابتداء عهدها بعيداً عنا نحو ٩٠٠٠ سنة . فليس في أوروبا آثار من العصر الظراني الحديث أقدم من آثار هذا التل وهي تقسم الى ثلاثة أقسام قديمة ومتوسطة وحديثة والطبقات السفلى تدل على عمران قديم راقٍ بما وجد فيها من فؤوس الصوان المنحوتة والخزف المصقول . فعصر كريت الظراني الحديث متوغل في القدم وآثاره أقدم من آثار العصر الظراني التي وجدت في بلاد اليونان وبر الأناضول ولكن بين هذه وتلك مشابهات كثيرة تدل على أن عمران كريت كان جزءاً من عمران قديم واسع النطاق شامل للقسم الجنوبي من بلاد اليونان وجزائر بحر سفيد وجانب كبير من آسيا الصغرى

(١) نسبة الى الملك مينوس الذي يقال انه ملك كريت وسن شرائعها

ومما يستحق الالتفات في العاديات الفنوسية (١) تماثيل نساء مصنوعة من الخزف كبيرات الأرداف وأيديهن على صدورهن ولهن ميلات في بلاد الساميين وفي الآثار المصرية السابقة لعصر التاريخ وبلاد اليونان. وحيث توجد هذه التماثيل في كريت وآسيا الصغرى يكون الناس يعبدون الآلهة التي يحسبونها أمًّا للبشر ويقرنونها بتمثال ثعبان. وقد بقيت آثار هذه العادة في الأديان الحديثة. وهناك دليل آخر يدلُّ على الاتصال القديم بين كريت وآسيا الصغرى وهو الفأس المزدوجة التي صارت شعاراً لمعبد قصر فنوسس

ومن المحقق ان سكان كريت الاصليين اقتبسوا كثيراً من عمران غيرهم ولكن عمرانهم بقي راسخاً في نفوسهم وكانوا يكتفون بما يحتاجون اليه ممَّا يجودونهُ عند غيرهم كما يفعل سكان الجزائر عادة. ولذلك كانوا يستفيدون مما يرونهُ عند الغير ولا يتقيدون به كما فعل الفينيقيون فاقتبسوا كثيراً ولكنهم لم يفقدوا استقلالهم

وأول مؤثر أثر فيهم كان من مصر أما المؤثرات الشرقية فجاءت متأخرة. وقد دلني البحث والتنقيب على ان المؤثرات المصرانية وصلت كريت من شمال افريقية قبل ان قامت في مصر دول الفراعنة كما يستدلُّ من شكل الآنية الحجرية واختيار المواد لها حسب اختلاف ألوانها وأنواع الرموز المنقوشة عليها وشكل الختوم المشابهة لما كان يصنعهُ سكان وادي النيل الأقدمون. والمشابهات كثيرة جدًّا تحمل على القول بأن بعض المصريين الاقدمين هاجروا الى كريت حينما تغلب على مصر الشعب الذي منهُ الفراعنة

ثم بقي الاتصال بين مصر وكريت في عهد الفراعنة كما يستدل من وجود المصنوعات المصرية في كريت ومن اهتمام الكريتيين بتقليدها. وقد وُجد نصب مصري في دار قصر فنوسس من عهد الدول المصرية الوسطى. وأغرب من ذلك ما كان لعمران كريت من الأثر البين في عمران مصر كما تدلُّ الدلائل الكثيرة كالكؤوس الحجرية الكثيرة الألوان البديعة المنظر. وأهم منها تأثير الصناعة الكريتية في الصناعة المصرية حتى في القسم الديني منها وتأثير الديانة المصرية في الديانة الكريتية فان إلاهة الكريتيين تشبه إلاهة العالم السفلي المصرية

وقد أثبتت لي مكتشفاتي وأبحاثي الحديثة ان الاتصال كان تامًّا بين كريت ومصر في العصر الميني واذا عرفنا ما اقتبسهُ العمران اليوناني من العمران المينوي السابق له اتضحت أهمية هذا الاتصال بمصر ولذلك لم تكن الديار المصرية منفصلة عن غيرها بل كان لها أكبر أثر في العمران الاوروبي

والعمران الراقي الذي نشأ في كريت قبل التاريخ المسيحي بأربعة آلاف سنة وضارع عمران بابل استمر الفي سنة وهو زاهر زاهر وتسلط على كل جزائر بحر سفيد وعلى جانب كبير من البلاد

(١) نسبة الى مدينة فنوسس التي كانت قصبة كريت

بحر افريقيا وقد شجعه على تسميته بالعمران المينوي نسبة الى الملك مينوس ملك كريت وشارعها على ما في الاخبار المأثورة ووافقه العلماء على هذه التسمية . ويمكننا أن نقسم زمن هذا العمران الى ثلاثة عصور قديم ومتوسط وحديث وهذا التقسيم يقابل تقسيم الدول المصرية الى ثلاثة أقسام قديمة ومتوسطة وحديثة

ويضيق بي المقام عن وصف هذا العمران الاوربي الأقدم لكثرة مناحيه فقصور الملوك المينويين في أيام عزهم تفوق ما يماثلها من المباني المصرية والبابلية في هندستها وشمولها لما هو نافع مع ما هو جميل عظيم وفيها تحويه من التدابير الصحية . ومايرى في هذه القصور الرحبة الكثيرة الطبقات من المزايا يرى في سائر المساكن القديمة في الجزيرة كلها فقد كان فيها مدن كثيرة غير مدن غنوسس وكان في هذه المدن صناعات بلغت غاية الاتقان أخصها صناعة ترصيع المعادن التي اتقنها الكريتيون فلم يفقهم فيها أحد في عصر من العصور ولا في بلد من البلدان وظهرت بدائع صناعاتهم في القصور بنوع خاص فان سراديبها وحاشيها وأروقتها بزدانة جدرانها بالصور والنقوش البارزة التي تمثل الحيوانات أصدق تمثيل وفي أوضاعها ونصباتها من حسن التنسيق ما لم يشهد العالم مثلهُ من قبل كما يرى في صور موقف الثيران الكبير عند باب غنوسس البحري وفي المناظر المؤلفة في قاعة القصر العظيم

والذي يرى هذه المناظر يدهش من مشابهتها لما هو جار الآن في ترتيب اماكن الخدم وقيام السلالم بعضها فوق بعض واختيار الاماكن الامامية في المشاهد السومية للنساء وصور ثيابهن المتكتكة وكفوفهن وقد لبسنها بأيديهن او علقنها على كراسيهن وأساليبهن وقت الكلام وما يظهر عليهن من النتج والدلال كل ذلك مما لو وجد في صورة من صورنا القديمة لأعجبنا به اشد الاعجاب . وما من مكان وجدت فيه صور تمثل احوال الناس في العصور الغابرة تمثيلاً أكثر انطباقاً على الحقيقة من تمثيل قصر مينوس ولا تستثنى خرائب بمباي . ولا يقتصر الاتقان على الاشياء الكبيرة المهمة بل يتناول ايضاً الاشياء الصغيرة الطفيفة كالحمام الصغير الملاصق لغرفة الملكة ومغطسه الدهون ورقعة الداما المبطوحة في الدار وقوارير الزيت الذي يدهن به والخوابي التي كانت تملأ منهُ على مقربة من عرش الملك الكاهن والمقاعد التي يجلس عليها مشيرهُ والغاريت المقدسة على جانبيه وكانت للشعائر الدينية دخل في كل شيء وكانت القصور حياكل للعبادة والقبور مقامات للزيارة . ولعلَّ التديُّن منع المصورين والنقاشين من رسم شيء مخلٍّ بالآداب

وهنا أمرٌ آخر في العمران المينوي لا يصحُّ اغفالهُ فانهُ لما اجتمع هذا المجمع في اكتوبر سنة ١٨٩٦ تباما عرفت نتائج النقب في كريت اشار فيه عالم مشهور بعلم العاديات في خطبة لهُ موضوعها « الانسان قبل الكتابة » الى الدرجة العليا من الحضارة التي بلغتها بلاد مينا قبل استنباط الكتابة . أما انا فأرى ان عمران مينا مقتبس من عمران كريت وان الناس كانوا قبل

ذلك يعبرون عن افكارهم باشارات يرسمونها . ثم اننا قد رأينا في آثار كريت القديمة نوعاً من الكتابة وعرفنا درجات نشوئه وارتقائه ووجدنا كثيراً من الختوم المنقوشة وهي قطعة من الخزف المكتوب اكثرها عقود لم تقرأ كتابتها حتى الآن ولكن فيها صور تدل على معنى الكتابة وفيها ما يظهر انهُ ارقام تدل على الاعداد حتى عشرة آلاف وبعض هذه الختوم مختوم وترى تحت التوقيع توقيعات اخرى كأنها تزكية لهُ وهي تدل على انهُ كان في البلاد حكّام ونظام مدقق وتؤيد ما رواه الرواة عن الملك مينوس الذي يقال انهُ تناول الشريعة من الله على الجبل المقدس مثل حمورابي وموسى . واما القطع الخزفية التي وجدت في كريت في العصر المينوي الحديث فمقتبسة أصلاً من الشرق ولعلها مما اقتبسهُ الكريتيون من قبرص لما احتلوها ومن ثمَّ كثر اتصال الشرق بكريت وجلب الكريتيون منهُ المركبات واقتدوا بهِ في استعمال الختوم الاسطوانية

ولما اتسع نطاق العمران المينوي حتى بلغ سواحل فينيقية وفلسطين كما بلغ قبرص كان قد تمكن من بلاد اليونان وبلغ صقلية واسبانيا والجزائر المجاورة لها والظاهر انهُ تناول شيئاً مما استبده من بر الاناضول . وبعض اليونان الآريين اتصلوا بالعمران المينوي وهو في اوج مجده كما يستدل من اشعار هوميروس فان الاسلحة التي وصفها مينوية وترس اكلس بما عليه من الصور البديعة كان مثالاً لصناعة المينويين المتقنة والقيثار الذي كان الشاعر يغني عليهِ من اختراع اهل كريت واذا التفتا الى الشعائر الدينية وجدنا الهياكل اليونانية مشتقة من المباني المينوية ورسوم واجهاتها القديمة مقتبسة من واجهات المباني المينوية . وأقدم الالهات اليونانية مثل اورنا الاسيرطية توصف باوصاف مثل اوصاف الام المينوية

وبعض اصول هذه الحضارة القديمة بقي في بلاد اليونان وبعضها دُفن في مهده ثم أينع في السواحل والجزائر الشرقية حيث كان العمران المينوي ثم اعادهُ الفينيقيون واليونانيون الى مواطنهِ وبقي جانب كبير منهُ رغماً عما حاق بالمملكة المينوية من الخراب قبل التاريخ المسيحي باثني عشر قرناً ورغماً عما فعله الغزاة الذين هاجموها من الشمال فبقي عليهِ العمران اليوناني وأضاء مصباحهُ مرة اخرى بالنور الذي انبعث منه في زمن سكان الكهوف الذين كانوا في العصر الظراني الاقدم

وجاء الرومان بعد ذلك فاستلموا الميراث الذي ورثهُ اليونان من كريت وبنوا عمرانهم على أسس واسعة يحيط بها شاملاً

فان كانت الحضارة الاولى التي وجدت في عصر الرنة قد شملت أكثر من شعب واحد واستجمعت أصولاً مختلفة من جهات شتى فاحر بعمراننا الذي انشأ من العمران اليوناني الروماني أن يبلغ درجة سامية من الاتساع والارتقاء ولا ينحصر في بقاع ضيقة او يكون ملكاً خاصاً بشعب دون آخر . ومهما تعددت الشعوب والالسنة فلسان اهل العمران واحد ومصالحهم مشتركة

فن تيمور

في آثاره القصصية

لحسن كامل الصيرفي

يعتبر الأثر الدائم للقصة في الأدب العربي الحديث في مصر نتيجة للجهود التي بذلت في سني الحرب الماضية وما بعدها لخلق القصة المصرية، وهذا الأثر هو الطور الأخير لهذا الفن الجديد في الأدب العربي، وأقول الجديد لأن القصة — كفنٍّ — لم يكن لها نصيب وافر من العناية عند العرب. فلم تكن القصص تؤلف لتكون فناً ولكنها توضع للسمر على أنها نوع من التسلية، وكان القصص الديني منها يوضع كتفسير لما ورد منهُ في القرآن الكريم فلا خيال واسع يتطلق فيرسم عوالم شتى او يتعمق فيحيط بأسرار النفس، ولا دافع يدفع الى خلق القصة

لقد كان العرب حريصين كل الحرص على عدم الامتزاج بالشعوب الأخرى، وكانوا يشعرون أنفسهم فوق هذه الشعوب في كل شيء فظلوا محافظين على تقاليدهم وآدابهم، ومن هنا نشأ حرصهم على حفظ الانساب حتى تعدى ذلك الى الحرص على تسلسل الأصول لخيولهم. وكان للبادية واتساع آفاقها وتنقل العربي من مكان الى مكان وراء السكلاً والمرعى أثر في انشغالهم عن القصة، كما كان اشتهارهم بالجاولة بين الحيين اذا شاع أمر هذا الجلب أثر في كبت العواطف فلم يجد هؤلاء متنفساً لهم في غير الشعر، لهذا لا نرى في قصص المجنون وغيره أثراً من آثار الفن ولا عملاً من عمل الخيال المطلق، ولكننا نرى سرداً تافهاً وعرضاً أقرب الى الرواية التاريخية منهُ الى القصة. وما يصري على القصة يصري على بقية الفنون، كفنّ الغناء وفنّ البناء وفن النحت والتصوير

فلما امتدّ سلطان العرب على الشعوب المجاورة، ونشأ من وراء ذلك الامتزاجُ الجديد، ودخلت العناصر الفارسية خاصة على الأمة العربية، وبدأت حركة النقل والترجمة تأثر الأدب العربي بهذه الموجة الجديدة من الحضارة فنشأ فن الغناء والبناء ووقف الامر عند فن النحت والتصوير كما وقف بعض الوقوف عند فن القصة، انهمّ إلاّ ما وضع بعد ذلك متأثراً بكتاب «كليلة ودمنة» كـكتاب «الصادح والباغم» لابن الهبارية وكتاب «فاكهة الخلفاء» لابن عربشاه

وغيره في هذا النوع. ولا نكاد نرى شخصية أدبية ممتازة انطبعت بقصة أو قصتين، في شتى الآداب الأخرى. أنهم الأدب العربي في « رسالة الغفران » كان أن الآداب القصصية التي وضعت لسمر العامة وتسليتهم لم تكن ذات أسلوب فني ممتاز أو اطلاع فني قادر على أسلوبها التركيبي المضطرب الدال على ما أصابها من تحوير وتسخيف على أيدي الناسخين وأمواه الرواة محشوة بالخرافات والأخبار التاريخية المشوهة

أما المقامات التي نشأت في الأدب العربي في القرن الرابع على يد بديع الزمان الهمذاني واتفق أثره فيها الحريري ونسج على منوالها في أغراض شتى الزمخشري وابن الوردي وغيرهما والتي يعتبرها بعض الأدباء أساس القصة في الأدب العربي فهي أثر لغوي أكثر منه أثراً قصصياً إذ كان منشؤها يميلون الى الظهور فيها بالاناقة اللغوية والتلاعب بالمحسنات البديعية

ويكاد يكون كتاب « ألف ليلة وليلة » هو المرجع الوحيد للقصة في العربية الذي يحمل من عناصر القصة الكثير. وهذا الكتاب قد اعتوره الفساد على أيدي الناسخين، ولكنه بالرغم من ذلك نال من عناية الباحثين في تاريخ القصة العربية

ولقد حاول الكثير من أدباء العربية في أواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحالي انشاء فن قصصي واتبعوا في ذلك طريقة المقامات فكان السجع والتزامه سبباً في عدم الالتفات الى العناصر المقومة للقصة. ونحيل الى حد ما في هذا الغرض محمد المويلحي في « حديث عيسى ابن هشام » إذ استطاع ان يرسم صوراً للمجتمع المصري يكشف فيها عن عيوبه ومحاسنه

فاذا كانت حركة النقل في العصر الحديث وحركة البعوث العلمية الجديدة واتجاه الأدباء العرب الى الثقافة الغربية وغزو هذه الثقافة ميادين التفكير في الشرق وقيام النهضات السياسية كانت القصة لوناً من ألوان الأدب الذي استطاع ان يجتذب اليه نفوس الأدباء. وكان ان اتجه البعض منهم الى درس هذا اللون من الأدب والعناية به وسلوك طريقه حتى كانت الثورة المصرية والمناداة بالقومية المصرية فتنبه الأدباء الى فكرة خلق القصة التي تصور الحياة المصرية الصميمة والتي تكشف عن نواحي الضعف في بيئاتنا. ومن هنا يبدأ تاريخ القصة المصرية في الأدب العربي الحديث بالوضع الذي انتهت اليه

وتاريخ القصة المصرية الحديثة هو تاريخ التيمورين: محمد ومحمود، فلقد بدأ المرحوم محمد تيمور اتجاهه الجديد بعد عودته من أوروبا حاملاً معه آثار الثقافة الغربية في روحه فاقتحم المسرح وألف فيه بالعامية، وعالج موضوعات مستخلصة من حياتنا المصرية في فن جديد امتاز بوصف بديع وتحليل دقيق وأسلوب جذاب، ومارس كتابة القصة فاستحدث طريقة تكاد تكون غير مألوفة في أدبنا في ذلك الوقت وكان أدبه مبتكراً مادته الحياة المصرية والنفس

القصصية وقد نحا في أقاصيصه نحو المذهب الواقعي. أما محمود تيمور فهو الآن في طليعة كتّاب القصة المصرية سَوْقٌ لها الطريق مع أخيه وبقية أدباء القصة الذين عملوا على خلقها يومئذٍ واستمرّ يغذيها بمواهبه حتى استقام عودها وأتت أكلها بعد حين.

فقد بدأ هذا القصصي حياته الأدبية متأثراً بالوجهة التي وجهها أخوه نحوها بعد أن كان قد تفرغ الى الاطلاع وكان نصيب الشعر وافراً في مطالعاته في الأدبين العربي والافرنجي وكانت الحركة التجديدية التي أثارها في المهجر الأميركي جبران ورفاقه من الاشياء التي لفتت نظره وكان يفضل من الشعر ما كان خيالياً مغرقاً في الخيال فلما قرأ لجبران كتابه «الأجنحة المتكسرة» تأثر بنزعته الرومانسية في أولى كتاباته، وانضم هذا الأثر الى الأثر الذي تركته في نفسه قراءته لآثار المنفلوطي حتى عاد أخوه من أوربا بما يحمل في نفسه من آراء جريئة كان يتحدث بها اليه ولكنه كان يستقبلها بعاطفتين لا تخلوان من تناقض: عاطفة الحذر وعاطفة الاعجاب. فلما كان مرضه باليفوئيد وهو في العشرين من عمره واشتدت عليه وطأة المرض وألزمته فراشه زمناً طويلاً استطاع أن يهضم الكثير من الآراء التي تلقاها من أخيه أو استمدها من قراءاته ونصح له أخوه فيما نصح بأن يطالع حديث «عيسى بن هشام» للمويلحي ورواية «زينب» التي نشرها الدكتور حسين هيكل قبل الحرب الماضية فوجد فيها لوناً يختلف عن ألوان الرمزي والرومانسي الذي كان غارقاً فيه، لوناً واقعياً يرى فيه الناس على فطرتهم التي خلقوا عليها. وامتدح له أخوه قصص «موباسان» فتابع قراءته في شغف عظيم فأثر ذلك في نفسه

وكان القصص الروسي قد غزا الدوائر الادبية العالمية ووجدت فيه البساطة في التصوير والصدق في التعبير وكانت القصة منه قطعة متنوعة من صميم الحياة فوجد تيمور في هذا القصص ما دفعه الى الاعجاب، ولاسيما وقد أحسّ في آثار «تشيخوف» و«تورجنيف» ومن ماثلهما تأثير «موباسان» الذي أعجب به، واضحاً في بعض اتجاهم

فلما بدأ أخوه في وضع قصصه بالطريقة التي اختطها لنفسه والمذهب الواقعي الذي نهجه دعاه اعجابه بها الى أن يؤلف على غرارها فوضع باكورة اعماله القصصية «الشيخ جمعة» التي أخرجها للناس سنة ١٩٢٥ ثم أردفها بأقصوصة عنوانها «يحفظ بالبوسطة» وكان وقتذاك لا يحفل بالاسلوب احتفاله بتصوير الواقع

يقول تيمور بك في المحاضرة التي ألقاها بالجامعة الاميركية في القاهرة سنة ١٩٣٨ وعنوانها «المصادر التي ألهمتني الكتابة» وهي التي صدّر بها مجموعته القصصية «فرعون الصغير وقصص أخرى»: «اني عندما التفت خلفي متكشفاً ماضي حياتي أرى أربعة عوامل أساسية قد عملت في تكويني كاتباً. الأول: والدي أحمد تيمور، والثاني شقيقي محمد. والثالث: حوادث خاصة

كان لها تأثير في تحويل مجرى حياتي . والرابع الأخير : مطالعاتي ، فوالدي جدير أن يكون قد أورثني مؤهلات الكتابة ، وقد تعهدني منذ النشأة ، وحبب إليّ مطالعة والتأليف . وأخي هذّب ذلك الحب وأذكاه . وحوادث حياتي ثم مطالعاتي هي التي هيئت لي تلك الوجهة التي أترسمها الآن في حياتي الأدبية »

ولقد كانت للحياة التي عاشها تيمور في طفولته في المنزل الذي ولد فيه في « درب سعادة » والذي يشبه القلعة المهدمة ، والحياة التي كانت تحيط به فيه من مظاهر العصر الماضي أثر في الرغبة المتقدة إلى التحرر في الأسلوب ظهرت تأثيراته بعد ذلك في قصصه وفي الصور التي رسمها في مجموعاته الأولى التي عاد فهذبها بعد ذلك وأخرجها تحت عنوان « الوثبة الأولى »

لقد كانت البيئة الأدبية التي نشأ فيها مدعاة الى تقوية الحافز الشخصي في نفسه فانبعث هذا الحافز على يد أبيه العالم وشرعته السيدة عائشة التيمورية وتوجيه أخيه الأديب القاص . وكانت الصور التي انطبعت في ذهنه من صور عهد يحس أن ظله يتقلص وأن تياراً من المدنية يكاد يجرفه سبباً في تقوية ملكة الملاحظة الدقيقة في نفسه فاختزن صوراً عديدة ظهرت بعد ذلك في قصصه وكانت قوة الملاحظة سبباً في تثبيت المذهب الواقعي في نفسه

يقول الاستاذ محمود المنجوري : « في الحق أن محمود تيمور هو صورة من هذا المزاج الأدبي فهو يصوّر عن الشاعرة في نظرته الزاخرة بالخيال عندما تحتاج القصة الى لون من ألوان الخيال وهو يصوّر والده الشيخ الأديب الحافظ في دأبه وأمانته لفنه عندما يعالج صور هذا العصر القديم ، وهو يصوّر أخاه محمداً في ثورته وتمرده عندما يسخر بالقيود التي تعترض تفكيره فينتزع من المجتمع صوراً لأشخاص قصصه في أسلوب مرسل يبرز به ما في جوف مجتمعنا من عيوب وأضرار »[1]

والمذهب الواقعي الذي اتبعه تيمور متأثراً بأخيه ومتأثراً بهمته التي جاهد في سبيلها من ناحية ، ومتأثراً بالبيئة التي عاش فيها والملاحظات التي اختزنها من مرئياته في « درب سعادة » و« عين شمس » وفي مزارعهم بين الفلاحين المزج من ناحية أخرى هو الطور الأول لفنه القصصي . يقول المستشرق السويسري الاستاذ ج . ويدمار في مقدمة كتابه الذي ألفه بالالمانية عن تيمور وترجم له فيه نخبة من أقاصيصه « قد تبدو قصص المؤلف لاول وهلة بسيطة . ولكن هذه البساطة هي السر في قوتها وتأثيرها . وترى الشخصيات المختلفة الواردة فيها ظاهرة بوضوح وجلاء ومملوءة بالحياة ، فالمؤلف يتغلغل في أعماق نفس الشخص الموصوف لكي يبرز عقليته الحقيقية » . ويرى الاستاذ شاده المستشرق الالماني ومدير دار الكتب المصرية سابقاً في المحاضرة

(١) مجلة « الثقافة » العدد ١٢٠ ص ٣٠

التي ألقاها في مؤتمر المستشرقين بأكسفورد صيف عام ١٩٢٨ ان تيمور « يشعر طبقاً للفكرة السائدة التي يعتنقها عند صياغة في مرضه كما كاتب غريب بأنهُ يستطيع أن يجعل أمام أعين مواطنيه صفحة من أخلاقهم وتقاليدهم وجملة هذه النزعة يقلُّ ظهورها عند بندر، تردد عند أخيه الذي كثيراً ما دفعتهُ غيرته الاصلاحية لأن يكون أقرب الى المعلم منهُ الى الأديب » . كما يرى المرحوم اسماعيل احمد أدهم انهُ ربما كان ما في طبيعة تيمور « من الهدوء هو الأصل في علة النزعة الواقعية الساذجة التي تتراءى للقارئ من آثاره . فالهدوء يفسح لفكره المجال للتدأخل لتنسق ألوان الشعور وضبطها في نسب دقيقة مع الفكر بحيث يسوق الى خلق توازن بين العقل والشاعر وهذا التوازن يخلق الواقعية حين يتصل بموضوع أقصوصة . وهو عادة يدور من ناحية بتكلية فتجد نظرة محمود تيمور ترتبط بمظاهر الاشياء وسطوح الحياة ، ومن هنا يمكن أن نقول بأن الأصل الواقعي في فن تيمور بك ساذج إذ هو نتيجة للوصف الحسي »[1]

« بهذا المذهب أثر تيمور فيمن تبعهُ بعد ذلك من كُتَّاب القصة الذين جعلوا سادة همهم الحياة المصرية والنفسية المصرية وبخاصة الحياة الريفية أو حياة الطبقات البسيطة التي تزخر بألوان من الثر القصصي . وعلى هذا المذهب أخرج تيمور مجموعاته الأولى : الشيخ جمعه ، وعم متولي والشيخ سيد العبيط وهي التي ضمها بعد ذلك وأخرجها تحت اسم « الرواية الأولى » ثم « الحاج شلبي » و« أبو علي طاسل ارتست » و « الاطلال » و« الشيخ عفا الله » . وفي كل هذه يبدو للقارىء الى أي مدى بلغت فكرة المصرية التي كانت تشغل ذهن الكتَّاب المصريين عامة وكتَّاب القصة بنوع خاص ، كما يتجلى تأثير القصص الروسي في فن تيمور

على أن تيمور قد أفاد من وراء هذا المذهب فائدة كبيرة تجلَّت آثارها في جميع قصصه ، تلك الفائدة هي إتاءة المقدرة على وصف المشاهد والمرئيات التي تقع تحت بصره أو التي يحاول جعلها مسرحاً لأغراضه ، ولقد ساعد على نمو هذه القدرة قوَّة الملاحظة التي أشرنا اليها والتي وُلدت معهُ والتي كانت تنظر الى كل شيء فتأخذ منهُ كلَّ شيء

وفي الحق أن الوصف عند تيمور من أدق مظاهر فنه ، ومن أوضحها ظهوراً ، ومن أغزرها فيضاً بالحياة . ولذلك عندما حاول الابتعاد عن الواقع في بعض القصص — فيما بعد — كانت لديه المادة الوفيرة لتكوين المسارح الجديدة للقصة المتخيلة

هذا هو الطور الاول لفن تيمور ، وأما الطور الثاني فقد بدأ عندما وجد تيمور أنهُ قد أدَّى رسالته التي وضعها نصب عينيه يوم اراد ان يجعل القصة وسيلة من وسائل الكشف عن عيوب المجتمع المصري ليعالجها المصلحون . وعندما وجد أن الطريقة التي اتبعها قد وجدت لها

(١) مجلة « الرسالة » العدد ٣١٩ السنة السابعة ص ١٦٢١

من يتلقاها عفواً ويسير في طريقها . وكانت النزعة التي دفعت بالكتاب الى عهد النهضة قد بدأت في السكون حيث بدأت يد الاصلاح في الحركة . وهنا يقول تيمور :

« ولما هدأت نزعة المصرية الحادة بألوانها المحلية الصارخة ، واستقرت الأمور في مجراها الطبيعي ، تحولت نظراتي الى الأدب ، فكانت في طورها الجديد أوسع وأعمق

« وسافرت في تلك الفترة الى اوربا ، ومكثت بها حيناً يزيد على العامين قضيت معظمه في سويسرا فتفرغت للقراءة ، واتصلت بالادب الاوربي الحديث اقرب اتصال . وطالما اثناء اقامتي هناك مرئيات ومناظر هزت نفسي ، وتغلغلت في صميم قلبي كما ان خبرتي بالحياة ، ومعرفتي بها قد اتسعت وتنوعت ، فكان لهذه الحياة الجديدة التي عشتها هناك أثر لا ينكر في تطور تفكيري ، ورأيت على ضوء مطالعاتي الجديدة وفهمي لنظريات الأدب العالي أن اللون المحلي ليس كل شيء بل هو بعض الشيء ، وما الأدب الكبير إلا ان يولي الانسان وجهه شطر النفس البشرية . فحولت اتجاهي نحو هذه الوجهة ، محاولاً التقدم فيها ما استطعت الى ذلك سبيلاً »[1]

ويظهر اثر هذا التحول في غير قوة في رواية « الاطلال » حتى اذا كانت سنة ١٩٣٧ أخرج للناس مجموعته المسماة « قلب غانية وقصص اخرى » وفيها يظهر أثر هذا التحول قوياً بعض القوة . فالنزعة المحلية قد اختفت وراء عوالم جديدة مستمدة من النفس البشرية ومظاهر ضعفها أو قوتها

وفي هذا الطور الجديد يبدأ تأثير مطالعات تيمور في مطلع شبابه وميله الى النزعة التخيلية « الرومانسية » التي دفعته الى الاعجاب بآثار المنفلوطي اولاً ، وبآثار جبران ورفاقه ثانياً ، والتي طبعتها في نفسه آراء اخيه عند عودته من أوربا واتجاهه نحو خلق القصة المصرية في كل شيء حتى في أسلوب الكتابة تظهر من جديد . وتبعاً لظهور النزعة الرومانسية من جديد في نفسه بدأ أسلوبه يتغير ويميل نحو الروح الشعري فكان لذلك أثر قوي في فنه

وبظهور القوة التخيلية ظهرت النزعة الرمزية التي كانت قد تسربت بعض ظلالها الى روحه من الآثار الاولى التي طالعها فبدأ أثرها ممتزجاً بالنزعة التخيلية في قصة « فرعون الصغير » خاصة ثم في روايته « نداء المجهول » ثم بعد ذلك في قصة « كان في غابر الزمان » التي ظهرت ضمن مجموعته الأخيرة « مكتوب على الجبين وقصص أخرى » وفي قصة « خيلة الحب » من قصص المجموعة الاخيرة ايضاً . وقصة « خيلة الحب » مع قصتي « فرعون الصغير » و « كان في غابر الزمان » ترتفع الى مصاف أرفع القصص العالمي من حيث قوة الفكرة وقوة الاداء . وهنا يظهر أثر التحول الجديد قوياً كل القوة

(١) « انصاف رأيي في الكتابة » ص ٢٢ و ٢٣ من مجموعة « فرعون الصغير وقصص أخرى »

ومن يدقق النظر في المجموعات الأخيرة لتيمور « قلب غانية » و « فرعون الصغير » و « نداء المجهول » و « مكتوب على الجبين » يرَ ان الصور الأخير تكاد ينقسم الى شعبتين : شعبة تشرح تشريحاً نفسيا على الحياة المصرية ولكن بطريقة غير الطريقة التي تناولتها في الطور الأول وان كانت متأثرة به بعض التأثير ، وحول شخصيات تختلف عن شخصياتها الأولى وفي محيط أعلى من المحيط الأول فهي تصور لنا الحياة المصرية بعد ان تطلقت تلك المدنية في كيانها كما في قصص « قلب غانية » و « سراب » و « غريم » و « أفديك بالروح » و « قلب كبير » و « بنسانة » و « الباب المقفل » وغيرها . وشعبة تنطلق فتحتضن العالم وتجعل من اطاره المختلفة مادين فنها كما في « نداء المجهول » و « بسمة الهنانة » و « صحبة الورد » وفي هذه القصص يبدو تعمقه في درس النفس البشرية على ضوء البحوث الحديثة في علم النفس

وقد يظن حنين تيمور الى نزعته الاولى عند ما كان يأخذ لقته صوراً من المجتمع الساذج فقراء يعود الى هذه الناحية ولكن عن طريق قصصه الاولى، فقد يحس القارىء لقصة « مكتوب على الجبين » انها صورة استحدثها قائلها من قصة « المزواج » وان كانت مختلفة عنها، ويبدو لنا هذا العمل ايضاً في قصة « تاج من ورق » المنشورة في مجموعته الاخيرة حيث يلوح من ورائها أثر قصة « أبو علي عامل ارتست »

ولقد اتجه في قصته « نداء المجهول » اتجاهاً جديداً نحو أدب المغامرات ولكنه جعلها رحلة في الكشف عن اغوار النفس البشرية وما ينطوي وراء آفاقها من أسرار . يقول الدكتور بشر فارس إن « في تيمور في « نداء المجهول » لايرجع الى الأدب العربي، ثم إنه ليس من فن كبلنج Kipling لأن هذا يتلاءم ما كتب، وليس من فن إسترائي P. Istrari لأن هذا صاحب عنف ، وليس من فن فورنيه A. Fournier لان الرجل شاعر في نثره وصاحب وسوسات، وليس من فن مارك اورلا P. M. Otlar لأن هذا خاض الحياة الشاقة . إن اللون التخيلي عند تيمور في « نداء المجهول » يقارب بعض المقاربة ما نعرفه من فن القصصي الفرنسي P. Benoit مع اعتبار ما يميز الكاتب من الكاتب من حيث الاسلوب والتفكير »[1]

ومن هنا يتضح إن فن تيمور دائم الحياة مستمر النبض ، ينقل عن الحياة فيحسن النقل ، ويأخذ من الخيال فيحسن الاخذ والتصوير ، ويعمل على التغير والتبديل بشأن الفنان المخلص وهو حريص كل الحرص على ان يرقى بالقصة الى الغاية التي ينشدها ، وقد استطاع ذلك ، ووفق فيما قصد كل التوفيق

(١) الرسالة : العدد ٣٣١ ص ٢١٠١ السنة السابعة

باب الأخبار العلمية

التقدم الصناعي في مصر

للدكتور حافظ عفيفي باشا

عقدت في الساعة السابعة بعد ظهر يوم ٣ مايو الماضي الجلسة الثانية من جلسات مؤتمر المجمع المصري للثقافة العلمية في قاعة المحاضرات بجمعية فؤاد الاول لعلم الحشرات بشارع الملكة نازلي وألقى سعادة الدكتور حافظ عفيفي باشا بحثاً نفيساً موضوعه « التقدم الصناعي في مصر وتأثيره في الاقتصاد القومي » تكلم فيه عن تحول النهضة الصناعية في مصر واستثمار رؤوس الاموال المصرية والاجنبية في الصناعات المختلفة وعارض فكرة الاقتصار على استثمار الاموال المصرية وحدها في الصناعات لان ذلك يؤخر تقدمنا الصناعي كثيراً. وضرب مثلين بشركتين كبيرتين للدلالة على مدى ماتنفع به الحكومة والبلاد من وراء تقدم الانتاج الصناعي فذكر ان شركة السكر مثلاً تحصل الحكومة منها سنوياً على نحو مليوني جنيه كضريبة انتاج وحصة ارباح عدا ملايين اخرى هي قيمة ما يدفع لزراع قصب السكر ثمناً لقصبهم وما يدفع للموظفين والعمال من أجور ومرتبات وما يدفع للساهمين والاعضاء

وذكر ان شركة مصر للغزل والنسيج تنتج من الغزل والنسيج ماتبلغ قيمته نحو ثلاثة ملايين من الجنيهات وتستخدم الوفاً من العمال والموظفين وتستهلك كميات كبيرة من القطن المصري

ثم تحدث عن الضرائب الصناعية ووجوب اعفاء الصناعات الناشئة منها وعن وجوب الاهتمام بتحسين حال العمال وحل مشكلة اقبال الفلاحين على الالتحاق بالأعمال في الشركات وترك العمل في الزراعة لأنهم في الشركات يقبضون اجوراً مضاعفة

ونوه بتأثير تحسين طرق المواصلات في تنشيط الصناعة وطالب بمضاعفة الاهتمام به لا في ما يتعلق بالمواصلات الحديدية وحدها ولكن من ناحية الطرق النهرية والطرق الزراعية والطرق العامة كذلك . وقال ان العراق وسوريا وفلسطين وتونس والجزائر والمغرب الاقصى — وهي بلاد اقل منا ثروة — اهتمت اكثر منا بتحسين طرق النقل فيها وربطت مدنها والمراكز الصناعية والتجارية والهامة فيها بشبكة من الطرق الجيدة

وتناول مسائل اخرى كثيرة هامة وذكر سعادته ان الصناعة محتاجة الى برنامج مرسوم وسياسة واضحة تسير عليها الحكومة في المستقبل لاكمال نموها وانه يتعين على وزارة الصناعة ان ترسم هذا البرنامج وقد لخص سعادته فيما يلي:

أولاً — الاسراع بتنفيذ مشروع كوبري حزران أسوان

ثانياً — انشاء بنك للتسليف الصناعي

ثالثاً — المعرفة الجركية ويرى سعادته أن من المستطاع أن تلغي الحكومة الضريبة الجركية الغاء كاملاً عن الموارد الأولية المستعملة في الصناعة وتلغيها عن الآلات الصناعية الحديثة وتضاعفها على الآلات الصناعية المستعملة

رابعاً — توحيد المصالح الشاغلة بمسائل الصناعة

خامساً — تشريع المباني

سادساً — تسهيل المواصلات

سابعاً — الضرائب التي فرضت على الصناعة ويرى سعادته أنها معتدلة فيما عدا الضريبة الخاصة بالارباح الاستثنائية المقترحة فقد عارض في تطبيقها لأسباب بينها تلاً ونشرت بالصحف

اصلاح القرية وقرية الانتقال

الدكتور سيد كريم من مهندسينا الشبان الملمعين حماسة وغيرة يعززها علم واطلاع واسعان . وقد ألقى في مؤتمر المجمع المصري للثقافة العلمية محاضرة قيمة عن اصلاح القرية المصرية لا يتسع المقام هنا الا لنشر خلاصة لها . أما الذين يهمهم الموضوع فيمكنهم ان يطلعوا على المحاضرة بحذافيرها في العدد القادم من مجلة « كتاب المجمع السنوي ».

قال حضرته ما ملخصه : ان كل الذي فكر فيه المفكرون الى الآن لاصلاح القرية لا يحقق الغاية المرومة . وإن فكرة القرية النموذجية بعيدة عن الصواب فيجب أن نعد أولاً فلاحاً نموذجياً . وقال ان علة برنامج الاصلاح هي عدم توازن نواحيه وعلة القرية هي تنقل الداء فيها

وعنده ان الخطوة الأولى التي يجب ان تسبق اصلاح القرية هي تمهيد الطرق الموصلة اليها . وإن المطلوب هو انشاء « قرية انتقال » لا « قرية نموذجية »

وتبنى قرية الانتقال على قواعد تتلخص في الاصلاح الصحي بمقاومة وسائل انتشار المرض خارج القرية وداخلها كتطهير مجاري الماء من يرقات الدفيليات وفرز السكان فرزاً مستمراً وعلاج امراضهم في اطوارها الأولى وفرز الحيوانات وعلاجها

ومن هذه القواعد مراعاة العامل السيكولوجي بدرس عقلية الفلاح وقيادته قيادة لا يشعر فيها باكراه على ترك عاداته

وانتقل حضرته الى بناء قرية الانتقال فتكلم عن أهمية « التوجيه » إذ يجب ان لا ننسى عند وضع مسقط كامل للقرية أن في مصر نسمة بحرية مستمرة هي عامل تنقية الهواء وتلويثه ونظافة القرية وردمها بالقمامة . ونشر الحرائق وحصرها . وتكاثر الذباب وتقليله

وتكلم عن التقسيم الصحي للقرية مخطط طرقها وتقسيم منزل الفلاح مع مراعاة العامل المتقدم ذكره وهو الزيغ البحرية . وأثبت ذلك برسم مسقط القرية ومساكنها . وانتقل الى الكلام عن توزيع الماء على القرية ووقاية الطفل ونظافة المسكن القروي من الداخل وطريقة التخمر في عمل الوقود من «الروث» وانتقل الى الكلام عن الناحية المالية للاصلاح واقترح حلا سهلا لها وقال ان بناء مساكن للقرى لا يكون باقتراض الأحجار والطوب والخرسانة والحديد بل بمواد البناء المحلية

وذكر حالة الاقتصادية وتدهورها في القرى وقال ان علاجها هو في تنمية الصناعات الزراعية . وعدم الاعتماد على محصول القطن وتحسين العلاقة بين الفلاح والحكومة فلا يكون نظره اليها نظر الفريسة الى الصائد بل نظر الجندي الى القائد . وختمها بعبارات بليغة تفيض عطفاً على الفلاح

الصينيون هم مخترعو الورق والطباعة

ظهرت أدلة جديدة على ان الصينيين هم أول من عرف ورق الكتابة وعرف الطباعة كما قيل غير مرة . فقد عثروا على ورقة عليها تاريخ يقابل سنة ٢٦٤ ميلادية وكان التبرز عليها في تركستان الصينية وهذا أقدم تاريخ للورق عرف الى الآن . فان أقدم كتاب عندنا عليه تاريخ سنة ٨٦٨ وقد وجد في هيكل بوذي منحوت في الصخر في ولاية صينية

وعرف الورق في الصين قبل سنة ١٠٥ للميلاد فان علماء الآثار عثروا في قلب الصحراء الاسيوية على ورقة يزيد عمرها الف سنة على أقدم ورق في أوربا ولا يزال عليها بعض تواريخ وكتابة مقروءة . وقد عثروا عليها في خرائب ابراج وقلاع هجرت حوالي السنة المذكورة

تدل أدلة أخرى ان فن صنع الورق عرف في سمرقند (من تركستان الروسية) نحو سنة ٧٥١ للميلاد وعرف في بغداد سنة ٧٩٣ (نحو عهد الرشيد) وفي مصر نحو سنة ٩٠٠ واسبانيا سنة ١١٥٠ وفرنسا ١١٨٩ وايطاليا سنة ١٢٧٦ ونورمبرج الالمانية سنة ١٣٩١ وانكلترا سنة ١٤٩٤ بعد اكتشاف كولمبس لأميركا بسنتين

جوع الحيوانات وسط السمن والثراء

عرف عن حيوانات وطيور انها ماتت جوعاً وسط الخير والشبع لأنها جهلت أكل طعام لم تتعوده . فقد قضى طائر السماني بضع سنوات في ولاية فلوريدا وجورجيا الاميركيتين حتى عرف ان الفلاحين انما يزرعون لطعامه بعض الحبوب التي يجهلها تخفيفاً لفتكه بالحبوب التي يأكلها الانسان . فتلفت أسراب منه قبل اهتدائه الى الحقيقة

الحرب وتقدم البحث الكيميائي

ظهر لباحث أميركي ان البحث الكيميائي الى تقدم الباحث الكيميائية في روسيا واميركا هبط ٣٠ في المائة في هذه الحرب منذ ابتدائها وتأخرها في ألمانيا فتقدمت ألمانيا القيادة وكان هبوطه ٢٤ في المائة في الحرب السابقة الكيميائية التي كانت طامة سنة ١٩١٨. وكان نصيب الماضية وسبب هذا الفرق تحول البحث الكيميائي اميركا من الاكتشافات الكيميائية ٢٧٠٥ في المائة من مناطق جغرافية الى أخرى فأدى ذلك وروسيا ١١٤١ وألمانيا ١٨٤٤ وبريطانيا ١٤

التبخر من البحر

ليس بصحيح أن تبخر ماء البحار يكون على أعظمه سيفاً كما هو المفروض بداهةً لان التبخر لا يكون الاَّ اذا كان الهواء أبرد من البحر . وفي الصيف يكون الهواء أحرّ من البحر . ويبدأ ارتفاع الحرارة عادة كل سنة في شهر مارس (في اميركا) والبرودة في آخر اغسطس . وتكون سرعة التبخر عظيمة جدًّا في خليج بسكي وأعظمها التبخر من تيار كورسيو الذي يجري من مكان قرب اليابان ويحمل ماءه الساخن شمالاً حيث يكون التبخر عظيماً جدًّا بسبب الرياح الباردة التي تهب من سيبيريا

تحول الطيور من انوثة الى الذكورة وقتيًّا

يقول الدكتور بالو والبروفسور كاريك من جامعة ليدز البريطانية ان انثى الزرزور الانكليزي تتحول ذكراً في الخريف كما يستدل على ذلك من غنائها واصفرار منقارها وهذان من خواص الذكور ويتوقفان على افراز الهرمونات نبها من غددها .

فاذا جعل شهر اكتوبر ينصرم جعلت الانثى تغني وجعلت منقارها يصفر وتبقى كذلك مدة شهر نوفمبر فتتوقف عن الغناء ويعود منقارها الى لونه الاسود العادي . والظاهر ان هذا عائد الى كون مبيضها يفرز هرمونات الذكور في هذا الاوان

والغريب ان الزرزور الأوربي الذي يكثر وجوده في بريطانيا لا يظهر عليه مثل هذا التحول

لماذا لا تنصار العناكب بنسجها

ظهر من مراقبة وقوف العناكب على نسجها ان سبب عدم وقوعها في الشرك الذي تنصبهُ لأعدائها هو وقوفها على خيوط أغلظ من غيرها وهي خيوط خالية من المادة اللزجة التي تضعها على الخيوط الدقيقة فتصيد بها فرائسها من ذباب وغيره من الحشرات

السم في الكبد والبصل

قرأنا النبذة التالية بالعنوان المتقدم :

اذا اصطدت دبًّا قطبيًّا فلا تأكل كبده فقد حدث لعالم من علماء الحيوان انهُ خرج هو وجماعة من العلماء الى الاصقاع القطبية وهناك صادوا دبين أبيضين وشَوَوا وليمة من كبديهما وأكلوهما مع بصل هنيئاً مريئاً الى الساعة الواحدة بعد نصف الليل وعندئذٍ استيقظ أحدهما وهو يشعر بصداع وثقل في رأسه . ثم تذكر فجأة انهُ قرأ ان كبد الدب الابيض سامة ولم يأت الصباح حتى كان العلماء جميعاً مرضى وظهرت اعراض الصداع والقيء والدوار وشيء من التماس عليهم . فداووا أنفسهم بالمسهلات وبقوا يومين او ثلاثة حتى عادوا الى حالتهم الطبيعية

مشاهدة تحول الانواع

ان تحول الانواع على ما في مذهب داروين يتم في قرون كثيرة فلذلك تعسر مشاهدته على الناس وأعمارهم تقاس بعشرات السنين على اطولها . ولكن بعض العلماء وفقوا الى مشاهدة شيء من ذلك في بعض أنواع السمك الذي يعيش في الماء الملح فقد فحصوا خياشيم سمكات كثيرة منهُ وهي من نوع «التاربون» صيدت في منطقة قناة بناما فوجد في الخياشيم نسيجاً من نسيج الرئة فاستدلوا من ذلك على أنها لا تعتمد في اكسجين تنفسها على خياشيمها وحدها . ولعلَّ هذا يعلل قدرتها على الانتقال من الماء الملح الى الماء العذب حتى تمكنت بما يشبه الرئة في خياشيمها من عبور برزخ بناما بطريق قناتهِ وطولها ٤٠ ميلاً وهي من الماء العذب والانتقال من المحيط الأطلسي الى المحيط الباسفيكي وهي السمكة الوحيدة التي أمكنها الانتقال الى الآن من محيط الى آخر بهذا الطريق

تشابه خصائص النوائم

من غرائب ما هو في التوائم تشابهها في الطوارىء العارضة فضلاً عن تشابهها في منظرها الدائم فقد لقح توأمان بالبصل المضاد للجدري في وقت واحد . وبعد التطعيم بيومين ظهرت بثرتان على ذراع كل منهما واربع بثور على ركبته في المواضع عينها ثم بعد ثلاثة ايام ظهرت بثرتان في القسم الوحشي من الساق عند الركبة ، واحدة امام الاذن اليسرى من كلٍّ واختفت هذه البثور في وقت واحد ولم تخلف ندوباً وراءها وكانت علامات التطعيم واحدة في كل

تحول العناصر

وردت على الدكتور لاس البروفسور الفخري للجيولوجيا في كلية تافت رسالة من فنلندا بأكتشاف سلسلة جديدة رابعة من العناصر التي يتحول بعضها الى بعض وأشهر سلسلة منها العناصر التي تبدأ بالاورانيوم وتنتهي بالرصاص وهو الحلقة السادسة منها. ثم السلسلة التي تبدأ بالثوريوم وحلقتها الثالثة الى الآن عنصر الاكتينيوم

وكان العلماء يقولون بوجود هذه السلسلة الرابعة ولكنهم لم يهتدوا اليها قبل الآن ومكتشفها هو الدكتور واهل من جامعة هلسنفورس عاصمة فنلندا. وقد حلل بعض المعادن القديمة جداً في عرف الجيولوجيا فوجد دليلاً على وجود عنصر مجهول من نقل ٢٣٧ وبما كانت جميع العناصر التي بهذا الوزن من عناصر الراديوم استنتج أن هذا العنصر لا بد أن يكون منها. ولم يتمكن من اثبات ذلك الى الآن وانما اثبت أنهُ لا يمكن أن يكون من عناصر السلاسل الثلاث المعروفة

ومعلوم أن الجيولوجيين عرفوا أعمار بعض المعادن في الصخور القديمة من تعيين مقدار الرصاص الناشيء عن اضمحلال الراديوم فيها. وعليه يقال إنهُ اذا ثبت وجود هذه السلسلة الرابعة حقًّا وثبت أن الرصاص أحد منتجاتها أدّى ذلك الى تصحيح بعض الحلل في حسابات الجيولوجيا

ازدياد المزارع في القرى أعظم منهُ في المدن

قال وزير اميركي أمام لجنة مجلس الشيوخ : —

ربما لا يعرف اجمالاً ان سكان اميركا يزداد في الأرياف ازدياداً أعظم منهُ في المدن وان الزحام الآن في مزارعنا أعظم مما يسمح بمعيشة راضية فيها فان الفلاحين فيها يتمون بمتوسط ٤٤٥ فدانًا في السنة والزيادة على أعظمها في المناطق التي هي أفقر من غيرها وأشد زحاماً

زيادة حوادث الانتحار في اميركا

ظهر من احصاء رسمي ان حوادث الانتحار في اميركا الآن ضعفا ما كانت سنة ١٩٢٠ ولم يبين الاحصاء السبب فانتحر ١٩٨٠٢ شخصاً سنة ١٩٣٨ اي بنسبة ١٥٫٢ في كل ١٠٠ الف من السكان وكان عدد المنتحرين ٨٩٥٩ سنة ١٩٢٠

التطرف في مصر القديمة

قالت مجلة الجمعية الجغرافية الملكية بمصر:

« أبدى القدماء المصريون القدماء ظرفاً ظاهراً في تماثيلهم النسائية فاصطلحوا على ان لا يمثلوا المرأة بدينة ولا مثقلة بحمل السنين. وأبدوا بعض هذا الفرق وهو التسامح مع الرجال ايضاً فمثلوا في تماثيلهم تحافة الشباب وكانت من المثل العليا عندهم وقرنوها بمظاهر النشاط والقوة ولكنهم كانوا يسمحون احياناً باظهارهم بمظهر درجة من السن وأوصاب الشيخوخة

فقد عرض تماثيل مثل هذه في «قاعة مصر» من متحف شيكاغو وكانت هذه التماثيل تمثل عند المصريين القدماء رموزاً سحرية للاجسام الأرضية وتدفن مع الأموات وكان المصريون القدماء يعتقدون أن النفس تستطيع الحلول في هذه التماثيل الرمزية متى شاءت لتشترك فيما يقدم من الأطايب الى الموتى في أعياد الآلهة. وكانت الفكرة السائدة لهم ان النفس تعرف الجسم الذي كان يأويها في هذه الحياة الدنيا

ظاهرة غريبة

يقول العلماء الخبيرون ان الحديد والخشب او البرتقالي وتزداد خفة اذا دهنت بالازرق وغيرهما تزداد ثقلاً اذا دهنت باللون الاحمر او الاصفر

حيل الحيوانات في الفرار من الخطر

تبذل الدئبة الاميركية كل حيلة لحماية صغارها. منها انها تنقل وجارها كل يوم من مكان الى آخر ليكون الصغار في مأمن من عيون أعدائها

واذا عثرت على كوخ ذي اوجرة كثيرة وضعت كل جرو من جرائها في وجار منها بعيداً عن أخيه حتى اذا اهتدى العدو الى وجار

وعبث بالجرو الذي فيه سلمت الجراء الأخرى

ويعرف عن فصيلة القوارض (كالجرذ) انها مبرعة في تعلم حماية نفسها من السموم التي توضع لصيدها. فقد وضعوا لها طعماً فيه سم الستركنين فاذا أكل الجرذ شيئاً منه ولم يمت بقي يتناول منه في المرات التالية بمقدار صغير لا يضره

فقر الصينيين

يشتري الصينيون الابر والدبابيس والسجاير والسردين بالواحدة لا أكثر لأن الذين يستطيعون شراء هذه السلع اكثر من واحدة، هم قليلو العدد

مكتبة المقتطف

مسند يعقوب بن شيبة

ولد سنة ١٨٢ ومات سنة ٢٦٢

نشره الدكتور سامي حداد سنة ١٣٥١

جزء مخطوط قديم ، من نفائس الآثار العلمية الحديثة ، وهو من أقدم المخطوطات العربية التي حفظت لنا على الدهر ، فقد كتبهُ كاتبه في آخر القرن الرابع ، وسمعه العلماء في أوائل القرن الخامس ، وتواترت سلسلة السماعات فيه الى أواخر القرن الخامس أيضاً ، أعني من سنة ٤٠٣ الى ما بعد سنة ٤٨١ وعنوان هذا المخطوط هكذا :—

[الجزء العاشر من مسند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب]
[رضوان الله عليه عن النبي صلى الله عليه وسلم]
[تأليف أبي يوسف يعقوب بن شيبة بن الصلت]
[مما رواه عنهُ أبو بكر محمد بن أحمد بن يعقوب]
[رواية أبي عمر عبد الواحد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن مهدي]
[سماع لمحمد بن أحمد بن علي بن الأشناني الدقاق]
[نفعه الله به آمين]

وقد سبق المقتطف أن نشر تمهيد الناشر في الجزء الثالث من المجلد ٩٧ عدد أكتوبر سنة ١٩٤٠ وقد وصف المخطوط وصفاً جيداً لا بأس به ، ونريد أن نزيد القارىء تعريفاً بالمخطوط ونبينه العلمية والأثرية ، وتنويهاً بفضل الناشر وما بذل من جهد مشكور في اخراجه للناس أنيقاً فاخراً . ثم نستدرك بعض ما لاحظنا من سهو أو خطأ ، مما لا يعصم منه إنسان أو كتاب

وللمتقدمين من علماء الاسلام رضي الله عنهم اصطلاحات علمية ينبغي أن يكون القارىء على بينة منها حتى يعرف المراد مما يقرأ من آثارهم . فكلمة « الجزء » مثلاً — يريدون بها الكتاب الصغير في أوراق معدودة ، مما يسمى في عرف المتأخرين « رسالة » وهذا العرف

الأخير غير جيد ، لأن « الرسالة » من « الأوسان » . ليس كل جزء صغير مرسلاً من شخص الى آخر . وقد بينا ذلك في مقدمتنا لكتاب الرسالة للشافعي (ص ١٢) . وكلمة « المسند » يريدون بها الكتاب الذي يجمع الأحاديث المروية بأسانيدها عن النبي صلى الله عليه وسلم مرتبة على أسماء الصحابة ، أعني أن يذكر المؤلف أحاديث كل صحابي وحدها ، من غير ترتيب لها على الأبواب أو المعاني . وبعض العلماء يكتفي برواية الأحاديث بأسانيدها ولا يتكلم عليها من جهة فن الحديث الا نادراً ، كمسند الامام أحمد بن حنبل ، وهو مطبوع معروف ، وبعضهم يجمعها ويتكلم عنها ، فيذكر حال بعض رواتها ، ويبين ما اختلفت رواياتهم فيه منها ، من زيادة في إسناد ، أو خطأ في لفظ ، أو غلط في تسمية بعض الرواة ، وهكذا ، مما يسميه علماء الحديث « تعليلاً »

فمؤلف هذا الكتاب ، الحافظ أبو يوسف يعقوب بن شيبة بن الصلت ، جمع كتاباً « مسنداً معلَّلاً » فرتب فيه الأحاديث على أسماء راويها من الصحابة ، وتكلم على كثير منها أو على أكثرها ، ولم يكمل هذا الكتاب ، كما قال الخطيب في تاريخ بغداد (١٤ : ٢٨١) : « ووصف مسنداً معلَّلاً ، إلا أنه لم يتمه » . ونقل عن الأزهري قال : « قيل لي إن نسخة لمسند أبي هريرة شوهدت بمصر ، فكانت مائتي جزء . قال الأزهري : ولم يصنف يعقوب المسند كله . وسمعت الشيوخ يقولون : لم يتم مسند معلَّل قط » قال الخطيب : « والذي ظهر ليعقوب مسند العشرة ، وابن مسعود ، وعمار ، وعتبة بن غزوان ، والعباس ، وبعض الموالي ، هذا الذي رأينا من مسنده حسب » ، وقال الحافظ الذهبي في تذكرة الحفاظ (٢ : ١٤١) : « بلغني أن مسند علي له خمسة مجلدات »

ومسند يعقوب بن شيبة هذا فقد من المكتبات الاسلامية فلم نجد أحداً من علماء الحديث في القرون الأخيرة ذكر أنه رآه أو نقل شيئاً منه . وآخر من ذكر ذلك — فيما نعلم — الحافظ الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ فانه قال في تذكرة الحفاظ : « وقع لي من مسنده جزء » يريد من الكتاب مطلقاً لا من مسند علي خاصة كما يوهم كلام الاستاذ الناشر في ترجمة المؤلف (ص١٤) ولعل الجزء الذي وقع للذهبي هو هذا الجزء الذي نشره الدكتور سامي حداد ، وإن كنت أرجح غير ذلك ، لأن الذهبي لو كان وقع له هذا الجزء لكتب عليه ما يفيد القراءة أو السماع أو النقل ، كعادة العلماء المتقدمين المتقنين

وما ندري كم كانت أجزاء مسند عمر بن الخطاب في كتاب يعقوب بن شيبة ، وهذا الجزء العاشر منه هو في أربع وعشرين ورقة في الأصل الأثري الذي وقع للدكتور حداد ، وطبعه في ٧٨ صفحة منها عشر صفحات للسماعات التي كتبت في المخطوط في الصفحتين الأولى والأخيرة

وقد عني الناشر حضرة بضبطه أتم عناية ، فقابله وأتقنه ، وحفظ الأماكن كلها التي تكاد تكون أصل الكتاب كما قرأه ، وأثبت نص الساقط كما وجدها ، وإن تدّ عنه شيء في بالي قارئ الخطوط الأثرية بين علماء وعصرية ، لا من تقصير أو إهمال ثم ترجم لجميع الرجال والنساء الذين وردت أسماؤهم في الجزء تراجم مختصرة في ٩٠ صفحة ، ثم ترجم كذلك لمن وردت اسماؤهم في النباتات في ٢٠ صفحة ، وذكر مفردات الألفاظ الغريبة وأسماء الأماكن في ست صفحات . وهذا جهد مذكور مشكور

وقد لاحظت في هذه المجموعة النفيسة أشياء أحببت أن أنبه اليها ، لا نقداً واستدراكاً ، ولكن إتماماً لما فات الناشر حفظه الله ، أو تصويباً لما كان خطأ في نظري ، وقد أكون أنا المخطيء وفوق كل ذي علم عليم . ولم أستوعب كل مواضع البحث والنظرية ، لضيق الوقت أولاً ، ولأن صورة الخطوط الفوتوستاتية ليست في متناول يدي ثانياً

١ — ص ٩ س ١٤ وما بعده ، وص ٢١٥ س ١٢ وما بعده : مالك النسخة وكاتبها «محمد بن أحمد بن علي الأشناني الدقاق أبو طاهر» ترجم لهُ الخطيب في تاريخ بغداد ، كما ذكر الناشر . وكلمة « الاشناني » رسمت في الأصل المخطوط واضحة النقط في الشين . والحرف الذي بعدها غير واضح النقط ، فتبع الناشر ما كتب في تاريخ بغداد وجعلهُ باء . والراجح عندي أن هذا خطأ . لأنه ليس في أنساب المحدثين من يقال لهُ « الاشناني » ، فانهم يذكرون ما يتشابه في الخط ويختلف في النقط والنطق من أمثال هذا ، فنجد الحافظ الذهبي ذكر في كتاب المشتبه (ص ١٤ طبعة ليدن سنة ١٨٦٣) « الأشناني » و « الأسناني » وهذان بضم الهمزة و« الأسناني » بفتحها ، و « الأسناني » بفتحها أيضاً . وذكر أن الأول يطلق على عدة من الرواة ، وعين أشخاص الباقين . فتبين لنا على قواعدهم أن هذا الراوي « أشناني » بضم الهمزة وبالنون بعد الشين ، نسبة الى بيع « الأشنان » ، وهو بضم الهمزة وبكسرها ، والضم أعلى ، ولنسبة المحدثين اليه بالضم فقط ، ويؤيد صحة ما قلنا أن هذا الراوي وصف أيضاً بأنهُ « الدقاق » وهو النطار الذي يبيع هذه الفقاقير المعروفة ويدقها ويخلطها . ثم إن المتأمل المدقق في صورة الصفحة الأولى في خط الأشناني هذا يجد أن نقعة النون ثابتة منحرفة الى اليمين قليلاً بجوار نقط الشين ، ولكنها ضئيلة جداً ، لا تكاد تظهر

٢ — ص ٣٥ س ٩ و ١١ وص ١٣٧ س ٢ و ٤ « شريح بن النعمان » هكذا بالشين المعجمة والحاء المهملة ، وذكر في ترجمته عن التهذيب أنه «العاشدي الكوفي» الذي يروي عن علي بن أبي طالب . وهذا خطأ وتصحيف . فان الذي يروي عن علي في القرن الأول لا يروي عن سفيان بن عيينة في أواخر القرن الثاني ، ولا يروي عنهُ يعقوب بن شيبة في أوائل القرن

الثالث . بل هو « معربح بن الثعلبان » بضم الثاء المثلثة وآخره جيم . وهو أبو الحسن الأولوي الجوهري البغدادي شيخ الامام أحمد بن حنبل والبخاري . عبرهما . مات سنة ٢٠٧ . ترجمته في التهذيب (ج ١٠ ص ٢٩٤)

٣ — ص ٦٣ س ٨ و ١٣ « فاجتملوها » . أخشى جداً أن تكون خطأ . وأن تكون صواب قراءتها « فاجتملوها » . والشحم للذاب يقال له « جَمِيل » ويقال « اجتملهُ » و « أجملهُ » أي أذابهُ واستخرج دُهنه . ونحسبنا نقول أن الأولى أصح من الثانية . وأما « اجتمل » فان معناها أكل الجميل أي الشحم المذاب . وليس هذا مراداً في الحديث ، بل المراد أنهم « جملوا » الشحوم أذابوها ، وبعوها فأكلوا ثمنها ، تحيلاً منهم الى استحلال ما حرَّم الله عليهم من أكل الشحم ، فأكلوا ثمنهُ

٤ — ص ٦٣ س ٧ و ٨ و ١٣ وص ٦٤ س ٩ وص ٦٥ س ٩ وص ٦٧ س ٢ و ٨ و ١٣ « أبو عبد الملك بن الفارسي وهو عبد الرحمن بن عبد العزيز » ذكر هذا الراوي مرتين ، روى عنهُ المؤلف يعقوب بن شيبة سماعاً منهُ

وقد ذكر الناشر ترجمة عبد الرحمن هذا في ص ١٤٧ — ١٤٨ عن التهذيب وغيره ، وأشار في باب الكنى ص ١٨٧ الى إنهُ أبو عبد الملك بن الفارسي ، ولكنهُ أخطأ خطأ غريباً إذ ذكر ترجمة رجل آخر ، هو « عبد الرحمن بن عبد العزيز بن عبد الله أبو محمد الأنصاري الأموي » وهذا توفي سنة ١٦٢ فكيف يسمع من المؤلف المولود سنة ١٨٢ بعد وفاته بعشرين سنة ؟ فليتعلم الناشر أن أبا عبد الملك بن الفارسي غير أبي محمد الأنصاري . ولكني لم أعرف بعد أين أبو الفارسي هذا ؟ ولم أجد له ترجمة

٥ — ص ٦٣ س ٩ و ١٣ « سمعت أبا سنان » ، « أخبرني أبو سنان » والذي يقول هذا هو أبو عبد الملك بن الفارسي . وذكر الناشر في التراجم أن أبا سنان هو المترجم في ميزان الاعتدال . وقد ترجم له ابن حجر أيضاً في لسان الميزان (ج ٣ ص ٢٤٩ — ٢٥٠) وذكر أن اسمه « عبد الله بن أحمد بن حرب الحرثوي الشاعر البصري » وأنهُ روى عن الأصمعي وغيره ، ومات سنة ٢٥٧ ومما أوقن به أن هذا غير الذي يروي عن الأوزاعي ، فبينهما مائة سنة ، الأوزاعي مات سنة ١٥٧ أو سنة ١٥٨ وأما الأصمعي فانهُ مات سنة ٢١٣ أو بعدها

٦ — ص ٦٤ س ٩ « أخبرني ابن جابر » والذي يقول هو ابن الفارسي أيضاً ، وأشار الناشر في ص ١٩٥ الى أن ابن جابر هو عبد الرحمن ، يعني عبد الرحمن بن يزيد بن جابر ، وهذا خطأ عندي أيضاً ، لأن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر قديم مات سنة ١٥٤ أو بعدها ، وهو من طبقة الأوزاعي ، فلا يدركه ابن الفارسي شيخ المؤلف

٧ — ص ٧٠ س ١٢ وص ٧٢ س ٨ و ص ٧٣ س ١ « وقال عمرة في حجته » صوابه « وقال عمرة في حجته » والحديث في البخاري (ج ٢ ص ١٣٥—١٣٦ من الطبعة السلطانية) وفتح الباري (ج ٣ ص ٣٩٠ طبعة بولاق) بلفظ « قل لا نعمل أمرا » وليس فيه رواية أخرى بلفظ الماضي . فعمل قراءة الحرف اشتبهت على الناشر الفاضل .

٨ — ص ٨٨ س ١١ و ١٣ « برقا » هكذا بالباء الموحدة والقاف، وهو خطأ . صوابه « يرفأ » بالياء التحتية المثناة والفاء وبعدها همزة . وهو مولى عمر بن الخطاب ، ذكر في القاموس في مادة « رفأ » وضبطه بوزن « منع » وله ذكر في قصة الربيع بن زياد الحارثي في الكامل للمبرد (ص ٨٨ طبعة أوربة) (ج ١ ص ٨٩ طبعة الخيرية سنة ١٣٠٨) وكتب في بعض النسخ المخطوطة من الكامل « يترقى » . وفي قبائل العرب « يترفى » بن ولد الهميسع بن الأزد . قال ابن دريد في الاشتقاق (ص ٢٨٦) : « ويترفى من قولهم رفيت القوم ورفوتهم : اذا سكنتهم »

٩ — ص ٩٦ س ٨ وص ١٧٢ س ١٦ « منصور بن زاذان » بالذال المهملة ، وهو خطأ ، صوابه « زاذان » بزاي وذال معجمتين

١٠ — وضع الناشر لنفسه اصطلاحاً في الرمز الى كتب التراجم التي رجع اليها بأرقام ، وقد وقع بعض الخطأ فيما أشار اليه بالأرقام . ففي ص ١١٣ س ١٠ رقم (١٢) وهو رمز لكتاب لسان الميزان ، ولكن الذي نقله إنما نقله من الميزان للذهبي ، فصواب الرقم إذن (٧) . ومما وقع من الخطأ في الأرقام أيضاً ما أشار في ترجمة « الفتار بن عاصم » الى رقمه في الاصابة فجعله « ٧٠٠٦ » في ص ١٦٢ س ١٤ وفي حاشية ص ١٦٣ وصوابه « ٧٠٠٠ » وأن يذكر أنه في الجزء الخامس من الاصابة

١١ — وذكر الناشر في تراجم رجال السماعات ص ٢١٢ س ١٠ و ١١ « علي بن هبة الله بن جعفر » ولم يعرفه فلم يترجم له . وهو الأمير الكبير الحافظ ابن ماكولا ، وهو « علي بن هبة الله بن علي بن جعفر بن علي بن محمد بن دلف » ولد سنة ٤٢٢ ومات سنة ٤٧٨ وفي تاريخ وفاته خلاف . وله ترجمة حافلة في تذكرة الحفاظ للذهبي (ج ٤ ص ٢—٦) وشذرات الذهب (ج ٣ ص ٣٨١) وهو صديق الحافظ أبي عبد الله الحميدي صاحب الجمع بين الصحيحين ، وكانا متلازمين في السماع على الشيوخ . وقد سمعا معاً كتاب الرسالة للشافعي وثبت سماعهما في سماعات نسخة الربيع بن سليمان ، التي حققنا الكتاب عنها وطبعناه في مكتبة الحلبي بمصر ، وسماعهما ثابت على أبي بكر الحداد السلمي في سنة ٤٥٧ بقراءة الحميدي . انظر السماعات رقم ٨ و ٩ و ١٠ و ١١ في مقدمتنا لكتاب الرسالة (ص ٣٦—٣٩)

١٢ — في تراجم رجال الكتاب عنوان « من كنى باسم أبيه » وهذا خطأ في التعبير ، فان

الكنية ما صدر بأب أو أم ، فالاسم المضاف الى « أبيه » يكون اما حقيقة أو اعتبارا . فعنوان « من كنى نفسه ابنه » وحبس منه أن يقول « من ذكر بكنية » لأن كنا و « الكنية » كافية في الدلالة على المراد

ثم إن ما ساقه الناشر أغلاطاً إملائية في الأثر المخطوط ليس على ما ظنه ، فان قواعد الاملاء تغيرت جداً ، والمتقدمين فيها اصطلاح لعله أدق اتقاناً من اصطلاح المتأخرين ، ولو ذهبنا نفصل القول في هذا لطال الكلام جداً ، وفي الاشارة غنية

وبعد ، فهذه عجالة من رأس القلم ، ولعلي أن أوفق الى إعادة الحديث عن هذا الأثر النفيس ، بعد أن تصل يدي الى صورة المخطوط الأصلي ، فأقابله بها ، وأكتب ما تراني في كلمتي هذه ، إن أذن لي أخي مؤاد صروف محرر المقتطف ، حفظهُ الله

ولو كان لي رأي في نشر الكتاب ، لأشرت بوضع الساعات مرتبة ترتيباً تاريخياً ، الأقدم فالأقدم ، كما صنعت في إثبات الساعات المكتوبة على نسخة الربيع بن سليمان من كتاب الرسالة للشافعي ، وهي أقدم مخطوط عربي كامل ، مما حفظ لنا من كتب الأقدمين ، إذ هي الأصل الذي كتبهُ الربيع بن سليمان بخطه في حياة الامام الشافعي المتوفى سنة ٢٠٤ كما حققت ذلك وبينتهُ بدلائله في مقدمتي هناك

أحمد محمد شاكر
القاضي الشرعي

العمارة الاسلامية

للاستاذ الكبير كريسويل عميد معهد الآثار الاسلامية

أمامنا الجزء الثاني من هذا المؤلف النفيس وهو عمل يسر كل العلماء والباحثين والهواة في ميدان الآثار الاسلامية ، والكتاب صورة واضحة من شخصية الاستاذ كريسويل الذي كرّس حياته لبحث كل الآثار الاسلامية في العالم منذ نشأة الدين الاسلامي الحنيف الى اليوم . ولن نتحدث في هذه الكلمة عن الاستاذ نفسه فهو عالم معروف لهُ اسمه الذاري في مصر وفي الجامعات العالمية الكبرى

وهذا الكتاب يشتمل على آثار العباسيين والدولة الاموية في الغرب الاسلامي (الاندلس وشمال افريقية) والدولة الطولونية في مصر والدولة السمانية (٧٥١ — ٩٠٥) في شمالي افريقية وقد أضاف اليه اربعة بحوث هامة كتبها الأساتذة فيلكس هرنانيه وجورج مارسيه وعبد الفتاح حلمي وحسن عبد الوهاب من المشتغلين بالآثار الاسلامية

ولكي نعطي فكرة عن هذا الكتاب نقول أن المؤلف الفاضل يتبع التنسيق الزمني في كتابته بغض النظر عن العوامل الجغرافية . فقد تناول بالشرح المستفيض تأسيس بغداد في أيام الخليفة

المقصورة وأضافت مدينة سنة ٢٦٥ هـ الخطة التوسعية المقصورة وقصر الحكومة وأكبر الجامع وهو مسجد العتيق ثم الزلفة والأخيضر والاصابع البحرية والبرجوانية في المسجد الأقصى والمسجد الكبير في مدينة قرطبة ورباط سوسة وجامع عمرو بن العاص وجامعة القرويين والمسجد العظيم في الصين وان وقد تناول تأسيس مدينة سكرا وتطور مبانيها والعوامل الفنية الجديدة التي نشأت فيها

وقد انتقلت فيها بعد الى الفسطاط والقطائع من وادي النيل عند ما جاء اليه احمد بن طولون وشيد عاصمة ملكه الجديد وبنى قصوره ومسجده الرائع في عمارته وجمال هندسته وزخارفه الجميلة والخشبية التي يقدرها رجال الفن الاسلامي

وقد ختم الاستاذ كريسويل كتابه بمراجع المكتب العربية والافرنكية التي يرجع اليها بجانب مئات المقالات والبحوث والمحاضرات ويخيل الينا انه لم يترك صغيرة ولا كبيرة الا قلبها بحثاً

وكذلك تبت تاريخي عام لجميع الآثار الاسلامية في العالم . وقد سهل المؤلف بعمله هذا على الباحثين مهمة التنقيب عن اي اثر في الآثار . ولنضرب مثلاً لذلك فان عدد المراجع الخاصة بقبة الصخرة ١٧٣ ومسجد دمشق اكثر من ١٤٠ مرجعاً ومسجد قرطبة ١٣٠ وبجامع عمرو ١١٠ وبمقياس الروضة ٧٣ وبجامع ابن طولون ١٠٧

ويلوح لي يطلع على هذا السفر العظيم ان الاستاذ كريسويل قد حاول محاولة جارة لكي يجمل من كتابه هذا أكمل واوفى ما حوت المكتب عن العمارة الاسلامية خلال القرون الثلاثة الهجرية الأولى . وقد أثبت لنا ان العرب الأول الذين لم تكن لديهم « عمارة » بالمعنى المعروف اليوم — اذا استثنينا بلاد اليمن — عند ما فتحوا البلدان المجاورة اندفعت قواتهم في شكل سروحة نحو بلاد الجزيرة وشرقوا وبلاد الشام وامتزجوا بحضارتين عظيمتين — حضارة الرومان وحضارة الفرس — الأولى في سوريا والثانية الى شرق بلاد النهرين ومن هؤلاء اكتسبت العمارة الاسلامية عناصرها وانتشرت فيما بعد الى بلادنا المعروفة في مصر وشمال افريقية والاندلس وجزر البحر الابيض المتوسط .

وقد اتبع الاستاذ كريسويل في تأليف كتابه طريقة الترتيب التاريخي . فيتناول الاثر من الناحية التاريخية ويتكلم عن أسباب بنائه ثم يصفهُ من الناحية المعمارية ويحلل الاجزاء الباقية من البناء ثم يبحث أصوله المعمارية ومواردها ونشأتها الأولى في البلدان التي عرفت طرق البناء . وقد دعم نظرياته وآراءه بصور ومخططات ورسوم قديمة باليد نقلها عن المؤلفات القديمة أو صورها بنفسه . ولكي نرى كيف عني الاستاذ كريسويل بدحض آراء من سبقه أنهُ خص فسيفساء مسجد الصخرة ببحث كتبهُ الاخصائية الآنسة مرجريت فان برشم تشغل عشرات الصفحات وقد ضمَّ تسعين صورة فوتوغرافية و٦٨ صورة للفسيفساء وحدها

ان هذا الكتاب وحده لكفيل بتخليد اسم العالم كريسوفورد الذي تفاني نيفا منذ ترك خدمة سلاح الطيران عام ١٩١٨ وكرّس حياته لخدمة الجمعيات الخيرية ... وهذا السبيل قد اكسبه بحق احترام كل منقب ومؤرخ ومهندس . وقد أشار لنا الدكتور كريسوفورد السبيل الى ما يسعه العلم في صمت وهدوء بعيداً عن ضوضاء الدعاية الخلابة . وليس من شك ان كتابه سيظل تحفة نادرة وأثراً خالداً على مرّ الزمن ... كذلك الآثار العظيمة التي كتب عنها ووصفها في بغداد ودمشق وبيت المقدس والقاهرة ... الصاغ عبد الرحمن زكي

ضحكات ابليس

قد تكون القصة اكثر ألوان الأدب ظهوراً وأسرعها خطواً ، فهي تجتذب الى جظيرتها أكثر الأدباء . ذلك لأنها لونٌ جديدٌ من الادب من ناحية ، ولأن الكاتب من ناحية أخرى يستطيع فيها ان يعالج كثيراً من مشكلاتنا الاجتماعية في رفق وفي فن يبعد به عن جفاف المقالات المطولة ولأنها أسهل ألوان الادب يقرأها والمثقفين عليها . وفي عصر اليوم جيلٌ جديد استطاع على هدى طلائع هذا الفن من الكتّاب الذين شغفوا له في الأدب طرقاً ثم عبّدوها ، وأقاموا له مكانة رفيعة سموا بها الى أن تكون جديرة بالدرس والعناية ، ان يسير في نشاط ، وان يتجه في المناحي التي يراها متفقة مع مزاجه الأدبي حيث كثرت هذه المناحي وتعددت السبل

من هذا الجيل صاحب مجموعة « ضحكات ابليس » الذي وقف في فترة وجيزة من حياته الأدبية الى ان يلفت النظر الى أدبه ، على ما في هذا اللون من الأدب من دخلاء كثيرين ومن آثار سخيفة أكثر . ولقد بدأ بقصة « الدرجة الثامنة » التي نشرها بمجموعة أخرى من القصص تحت عنوان « رئيس التحرير » يخطو ثم يخطو حتى اذا أخرج مجموعته الجديدة « ضحكات ابليس » كان قد استطاع ان يحدد للقارىء وجهته ويميز له ألوان اتجاهه ويضع أمام عينيه شخصيته التي يشير بها والتي تنبيء عن تفتح وانطلاق . وهو يرى أن القصة يجب ان لا تخضع للعلم او تسير في ركابه لان نظرياته قابلة للتغير ، وليست مهمة الكاتب اثبات نظريات العلم وانما هي تشريح الحياة والكشف عن جوانبها الخفية في عالم النفس . ولهذا نجد في قصص هذا الكاتب بساطة واستسلاماً لموهبته ولا نجد اندفاعاً وراء افتعال الحوادث

وتحتوي هذه المجموعة على أربع عشرة قصة منها ما هو معالجة لمشكلات اجتماعية في الصميم كما في قصة « فريتنا النموذجية » و« ناس وكلاب » ففي الاولى منهما ينتهي بعد عرض جميل لما يساور الكثير من نفوس المتعلمين من مشروعات اصلاحية للريف والريفيين الى أن ما يشق

الثلاثة ليس فيه والدهرجهن من يتصدون لإسعاده كما يمتاز في الناحية من أدق النواحي تلك هي العناية من جانب أصحاب الثروات بحياتهم بل بكلابهم دون العناية بأمر فلاحيهم وحيواتهم

ومن هذه القصص ما هو صور فكهة لبعض ما في الحياة من شخصيات كما في قصة « مانكان » وهي صورة بعض المتعلقين بالحياة السياسية والمتصايحين بختلف الآراء . وكما في قصة « العفريت » وهي تصوير لنفوس في النفوس الساذجة التي لا تستطيع أمام ضعفها إلا أن تحمل ألمها في صمتها ، وكما في قصة « زاوية السقوط » وهي تصوير فكه لوكيل محام تلعب أصابع الحب في نفسه الساذجة تلعب بحياته ورزقه . كل ذلك في أسلوب من الفكاهة والسخرية ، وهي بحق سخرية من إبليس هذه القصص لا من ضحكاته !

وقد عني الأستاذ ذهني بأن يجعل ما استطاع لغة الحوار فصيحة رقيقة الاسلوب ، على أنهُ في بعض الأحوال يجعل بعض الحديث عامياً وهذا قد لا يكون محل نقد الآخرين يتعلق على لسان متقف من شخصياته كما في قصة « زاوية السقوط » و « العفريت » حيث النطق العامي بالعامية في حين جعل حديث الريفيين البسطاء فصيحاً . ولكن مما يحمد عليه المؤلف أن ذلك قليل جداً يستطيع أن يتلافاه في مجموعاته الجديدة إن شاء الله

أمين الريحاني

كانت وفاة الأديب المفكر المرحوم أمين الريحاني خسارة كبيرة على العالم الأدبي فقد كان علماً من أعلامه الذين رفعوا رايته ونبهوا الغرب الى قيمته يوم وضع رباعيات أبي العلاء المعري بالانكليزية . ثم لفت أنظار أدباء الغرب الى لون جديد من الادب يوم أخرج الريحانيات

وللمرحوم الريحاني آثار عديدة في اللغتين العربية والانكليزية تقرب من الاربعين كتاباً وقد قام أخوه الأديب البرت الريحاني بحق الوفاء لذكرى أخيه فأخرج كتيباً صغيراً في مائة وثلاثين صفحة من القطع الصغير ، منتخباً فيه فصلاً واحداً او مختارة واحدة من كل كتاب من كتبه المطبوعة أو التي لم تنشر بعد ، وقد توخى في هذه المختارات ان تكشف كل قطعة منها عن ناحية من نواحي أدب الأمين

ولعل الناشر الفاضل يقوم — عند ما تتحسن الظروف — باعادة طبع ما نفد من مؤلفات أخيه المطبوعة ونشر ما لم ينشر منها ليستطيع من يريد دراسة هذا الاديب الكبير أن يجد أمامه المدد لدراسته فان أدب أمين الريحاني الخالد جديرٌ بالدرس والبحث

يوم

مع قدماء المصريين في منف

يعنى الأديب الفاضل محمد صابر بالتاريخ المصري القديم عناية جميلة فقد أخرج لنا هذا الكتاب رابعة كتب السور الحياة في مصر القديمة ، وهذا وفاء جميل منهُ لتاريخ وطنه المجيد وهو في كتابه الأخير يصوّر هذه الحياة على شكل جولة بين القدماء نفسهم في منف بأسلوب علمي بسيط ممتع بإيجاز ، وقد أضاف اليه موضوع التماثم والأحجبة ليعلم القارئ ما دانت قدماء المصريين وليوازن بينها وبين ما بقي لنا منها دون تغيير رغم مرور هذه الأحقاب البعيدة من الزمان . وقد استقى لهذه الرسالة المعلومات مما دوَّنهُ القوم من نقوش ومناظر وكتابات على مقابر عظماء الدولة القديمة بسقارة جبانة منف مع بعض التصرُّف . والكتاب يقع في ١٤٠ صفحة من القطع الصغير مطبوعاً على ورق مصقول ومزيناً بالصور والرسوم

أغاريد زفاف

تأليف عبد المجيد مصطفى خليل — صفحاته ٨٠ من القطع الصغير طبع مطبعة مصر

في المقدمة الظريفة التي وضعها المؤلف يبحث عن شعر الزواج أشار فيه الى أن نصيب هذا الشعر في الأدب العربي ضئيل اذا قيس بالآداب الغربية . وأن المؤلف يطلب كثيراً من الأدب العربي حين يتوقع أن يكون للزوجة فيه نصيب عظيم

فلقد كانت المرأة محجبة طيلة هذه العصور ، وكانت الزوجة يعبر عنها في اللغة (بحرمة) الرجل ، فكيف ينتظر من زوجها أن يتغنى بمحاسنها ، أو يذيع على الناس أوصافها أو يحاسن خلقها في سطور أو أبيات من الشعر تروى ويتناقلها لسان عن لسان ؟

أما تعرُّض شعراء الغزل في الجاهلية والاسلام للمرأة على العموم — غير أن تكون زوجة — فهو مقبول لا يتعارض مع الحقيقة السالفة الذكر . فامرؤ القيس الكندي والأعشى وغيرهما في الجاهلية ذكروا المرأة في شعرهم وذكروا زوجاتهم أيضاً

أما في الاسلام فقد تغزَّل عمر بن أبي ربيعة وكثير وجرير وجميل بثينة لم يكن زوجات لهم صيانةً لمقام الزوجة وبعداً بها عن أن تكون مضغة في الأفواه ثم يكفي ان يكون في الأدب العربي الحديث ذكر للزوجات ولو من بعيد كما فعل الدكتور طه حسين بك في كتابه (الأيام) . ويكفي ان يكون للبارودي مثل رثائه لزوجته التي ماتت وهو منفي في سرنديب

ومثل هذه النفحات في الأدب العربي تذكرنا بالاهداء الجميل الذي قدَّمه (ول ديورانت) الأميركي المعاصر الى زوجته في مقدمة كتابه في تاريخ الفلسفة . وفي الكتاب موضوعات مختلفة ما بين أغاريد وأفانين وألوان فاتنة وأشجان وكلها جديرة بالمطالعة لما فيها من طرافة وافتنان ***

فهرس الجزء الاول

من المجلد التاسع والتسعين

١ النبات الأخضر والبحث عن سر الحياة والشفاء

٨ أثر العوامل الجوية : للدكتور محمد خليل عبد الخالق بك

١٧ طبيعة العقربة : لعلي ادهم

٢٥ فلسفة النشوء الخالق : لحنا خباز

٣٤ بياعة التفاح (قصيدة) : لنجيب شاهين

٣٥ فسطاكي الحلبي في ذمة التاريخ . لعادل الغضبان

٤١ مذهب السلوكية : للاستاذ نويل آي ترب : نقلها الى العربية حسن السلمان

٤٩ كشاف الطائرات . لعوض جندي

٥٥ مصر وطريق الهند : لجمال الدين الشيال

٦٠ جزيرة كريت وأصول السكان الأوربي : للسر ارثر أفانس

٦٤ فن تيمور في آثاره القصصية : لحسن كامل الصيرفي

٧١ باب الاخبار العلمية ⁂ التقدم الصناعي في مصر للدكتور حافظ عفيفي باشا . اصلاح القرية وتربية الاشتال . الصينيون هم مخترعو الورق والطباعة . جوع الحيوانات وسط السعة والثراء . الحرب وهبوط البحث الكيميائي . التبخر من البحر . تحول الطيور من الانوثة الى الذكورة وقتياً . المادا لاقصاد الضاك بنسيجها . انسم في التكيد والعسل . مشاهدة تحول الانواع . تشابه خصائص التوائم . تحول العناصر . ازدياد المواليد في القرى . زيادة حوادث الانتحار . الطرف في مصر القديمة . ظاهرة غريبة . حيل الحيوانات في الفرار من الخطر . فقر الصينيين

٧٨ مكتبة المقتطف ⁂ اسند يدتوب بن شيبة . العمارة الاسلامية . ضحكات ابليس . أمين الريحاني يوم مع قدماء المصريين في منف . أغاريد زقاف

٢٧—١ خلق . ما هي السياسة الواجب اتباعها للنهوض بقوات الدفاع المصرية وزيادتها : للصاغ عبد الرحمن زكي

ما هي السياسة

الواجب اتباعها للنهوض بقوات الدفاع المصرية وزيادتها
مراعين مساحة مصر وعدد سكانها وثروتها وموقعها الجغرافي

للصاغ عبد الرحمن زكي
مدير الشؤون العامة بوزارة الدفاع وأمين المتحف الحربي

الجيش السليم في الأمة السليمة

ما هي السياسة

الواجب اتباعها للنهوض بقوات الدفاع المصرية وزيادتها
مراعين مساحة مصر وعدد سكانها وثروتها وموقعها الجغرافي

للعلامة عبد الرحمن بكي

مدير الشؤون العامة بوزارة الدفاع وامين الصف الحربي

١ — الاعتبارات التي نراعيها

تتألف الدولة المصرية من الوحدات الجغرافية السبع الآتية :—

١ — وادي النيل والدلتا ٢ — الفيوم ٣ — قناة السويس ٤ — الصحراء الغربية ٥ — الصحراء الشرقية ٦ — شبه جزيرة سيناء ٧ — جزائر البحر الاحمر

ومساحتها في مجموعها ٢٤٢٧٦٠٠٠٠ فدان تبلغ جملة من مساحة افريقيا

تبلغ مساحة مصر حوالي ١٫٠٢٠٫٠٠٠ كيلو متر مربع منها جملة صالح للزراعة (أي ٧٫٣٠٠٫٠٠٠ فدان) والباقي أراضٍ صحراوية قاحلة يسكنها قليل من الاعراب الرحل

تبلغ مساحة وادي النيل والدلتا ٣٢٫٠٠٠ كيلو متر مربع

تبلغ مساحة الصحراء الغربية ٧٢٠٫٠٠٠ كيلو متر مربع بالفيوم

تبلغ مساحة الصحراء الشرقية ٢٢٢٫٠٠٠ كيلو متر مربع

تبلغ مساحة شبه جزيرة سيناء ٥٦٫٠٠٠ كيلو متر مربع

وتمتد مصر من الشمال الى جنوبها الجنوبي نحو ١٠٧٣ كيلو متراً ومن الغرب الى الشرق نحو ١٢٢٦ كيلو متراً فهي تشغل رقعة من الارض تفوق مساحة اي دولة أوربية اذا استثنينا روسيا . ويبلغ طول الشاطىء المصري ٢٤٠٠ كيلو متر تقريباً (١٣٠٠ ميل بحري)

(وادي النيل والدلتا) تبلغ المساحة التي تزرع او يمكن زرعها في القطر المصري

٠٠٠ر٣٠٠ر٧ فدان منها في الوجه البحري ٠٠٠ر٩٠٠ر٤ والباقي وقدره ٠٠٠ر٤٠٠ر٢ فدان (اي نصف الوجه البحري) هو أراضي الأحواض القبلي الصفيح والحوضية[1]. ولقد استقر الرأي على ترك مساحة قدرها ٠٠٠ر٢٠ فدان من بحيرات المنزلة وادكو لصيد الأسماك وبذلك تصبح المساحة التي تصلح للزراعة فعلاً ٠٠٠ر١٠٠ر٧ في الوجهين. والمساحة المزروعة حالياً (احصاء ١٩٣٧) مقسمة كالآتي ٠٠٠ر٠٠٠ر٣ في الوجه البحري و ٠٠٠ر٢٠٠ر٢ في الوجه القبلي منها ٠٠٠ر٠٠٠ر١ يشملها الري الصيفي و٢٠٠٠٠٠ر١ مليون يشملها الري الحوضي. من ذلك نرى انهُ من الواجب التفكير جدياً في إضافة ٠٠٠ر٤٠٠ر١ فدان من الوجه البحري من الأراضي البور الى الأراضي المزروعة. وتحويل ٠٠٠ر٢٠٠ر١ فدان في الوجه القبلي من الري الحوضي الى الري المستديم وتحويل ٠٠٠ر٢٠٠ فدان في الوجه القبلي تروى في مدة الفيضان فقط الى الري المستديم وتحويل مساحة قدرها ٠٠٠ر٤٥٠ فدان في الوجه القبلي من ري الحياض الى الري المستديم — كل هذا لكي نجد الأرض الصالحة الوافية لسكن المصريين الذين يزداد عددهم ازدياداً كبيراً

(مديرية الفيوم) تقع مديرية الفيوم الخصبة في منخفض من صحراء لوبيا على بعد ٩٠ كيلو متراً جنوب غربي القاهرة وهي وان كانت خارجة عن حوض وادي النيل ولكنها تروى من مياه النهر بواسطة ترعة بحر يوسف وتبلغ مساحة الفيوم ٤١٣٠٠٠ فدان وعدد سكانها ٦٠١٩٠١

(قناة السويس) تشق قناة السويس منطقة من ارض مصر الشرقية بين مدينة السويس ومدينة بورسعيد وتصل البحرين المتوسط والأحمر او بالحري المحيطين الاطلسي والهندي. ويحدها من الشرق سهل الطينة وسيناء ومن الغرب بحيرة المنزلة ومديرية الشرقية والصحراء الغربية وتخترق في سيرها البحيرة المرة وبحيرة التمساح وبحيرة البلاح. ثم تسير في محاذاة بحيرة المنزلة الى بورسعيد وطول هذه القناة ١٧٦ كيلو متراً اي ١٠٦ أميال وقد أعدت منطقة عند مدخلها مساحتها ٢٠٠ر١ كيلومتر وعمقها ١٣ متراً للسفن الكبيرة والشتت على القنال ثلاثة كبارٍ متحركة تصل شاطئيها أحدها بالآخر

(الصحراء الغربية) تمتد الصحراء الغربية من النيل الى حدود لوبيا وتشغل ٩/١٠ مساحة الدولة المصرية وهي تشتمل على عدة واحات أهمها : —

(١) ذكر سعادة فؤاد باشا أباظه في تقرير له ان مساحة الاراضي المزروعة هي ٣٨١ر٣٦١ر٣ فداناً ومساحة الاراضي المزروعة (أي قابلة للاصلاح والزراعة) هي ٤٤٠ر١٤٣ر٢ فداناً ومساحة المباني العمومية (غير مزروعة) هي ٨٢٦ر٨١١ فداناً وان جملة مساحة الاراضي المزروعة بأقسام الحدود (الصحراوات الغربية والجنوبية وسيناء) ٥٤٨ر٥٠٦ والاراضي المزروعة محاصيل وأشجار النخيل ٤٣٣ر٢٨٢ فداناً ومساحة المراعي ٨٢٤ر٢٢٤ فداناً

واحة سيوة	وتعدادها	٤٠٠٠	نسمة
الواحة البحرية	»	٦٤٠٠	»
واحة فرافرة	»	٦٧٠	»
والداخلة	»	١٩٥٠٠	»
والخارجة	»	٩٦٠٠	»

وهذه متصلة بوادي النيل بخط سكة حديد

وفي وسعنا ان نضيف الى ما تقدم ان هذه الواحات منخفضات مأهولة وهناك منخفضات اخرى غير مأهولة وقاحلة أهمها منخفض القطارة ، وقعره على ١٣٤ متراً تحت سطح البحر

﴿ الصحراء الشرقية ﴾ تمتد الصحراء الشرقية من النيل الى قناة السويس والبحر الاحمر وتبلغ مساحتها ٢٢٣٠٠٠ كيلو متر مربع وهذه الصحراء تكاد تكون محرومة من ينابيع المياه الطبيعية وأهم الآبار تكفي سكان هذه الصحراء في اماكن تقطنها جماعات البدو كما هو الحال في الصحراء الغربية . وهؤلاء يقطنون الاماكن الصغيرة بالقرب من البحر الاحمر حيث مناجم الفوسفات والبترول في القصير (تعدادها ٤٧٨٠ نسمة) وسفاجة (٣٥٠) والغردقة (٣٨٩٠)

﴿ شبه جزيرة سيناء ﴾ تبلغ مساحتها ٦١٠٠٠ كيلومتر مربع ومياهها وافرة لما يتجمع منها في باطن الأرض وأهم مدنها العريش (١٠٠٠٠) نسمة والطور (٣٥٠) وأبو زنيمة وغيرها

﴿ فضل الصحراء ﴾ في الوطن المصري مساحة كبيرة من الأرض الصحراء. ومصر مدينة الى هذه الصحراء بوجودها . ففي الزمن القديم في ابان تكوين الشعب المصري والحضارة المصرية كانت هذه الصحراء هي العامل الأقوى في منع العدوان عن مصر وهي الوسيلة التي مكنت المصريين من أن يندمجوا ويصيروا شعباً ممتازاً بخصائصه وحضارته . ولا تزال منزلة الصحراء في الدفاع عن مصر اليوم مثلما كانت من آلاف السنين . فهي جزء من الوطن المصري لا ينفصل عنه الا ولحقه الخسران[1]

في الحرب الكبرى الماضية استهدفت مصر لهجوم الألمان والأتراك عليها من الصحراء الشرقية والصحراء الغربية . والآن تواجه مصر في الصحراء الغربية مثل الذي واجهته في الحرب الماضية في الصحراء الشرقية

غير أن وسائل القتال تبدلت فقد كان اعتماد المغيرين في تلك الحرب على الرجال والمدافع والسيارات المدرعة وكان اعتماد المدافعين على مثل ذلك وعلى البوارج ولم يكن للطائرات مقام

(١) الدكتور محمد عوض محمد استاذ الجغرافية بجامعة فؤاد الاول من مقال له في جريدة « الجهاد » في « جغرافية مصر »

في هذا العصر الذي نحن فيه الاعتماد الأكبر هو على الطائرات والمدافع الميكانيكية الأخرى وفي مقدمتها الدبابات والسيارات المدرعة

(جزائر البحر الاحمر) ليس لها من الناحية الاقتصادية منزلة خاصة ولكن لها من الناحية العسكرية مكانة لا تنكر وأهم هذه الجزر الاشرفي وجوبال وشدوان وجفاطين وزبرجد وفي خليج العقبة ثلاث جزائر وهي تيران والسنافر وفرعون ويطلق على جزيرة شدوان « صخرة جبل طارق مصر »

٢ — موقع مصر

ان تاريخ العالم السياسي هو سلسلة من المطامع حركتها شهوة التسلط على بلاد ذات رزق موفور أو ذات موقع منيع ، ومصر تتمتع بهاتين التحسين فموقعها يشغل الزاوية الشمالية الشرقية من افريقيا وتمتد من البحر المتوسط شمالاً الى خط عرض ٢٢ جنوباً . وغرباً من خط طول ٢٥ الى البحر الأحمر وشبه جزيرة سيناء في خط ممتد بين رفح والعقبة

امتازت مصر في وضعها الجغرافي بكونها أهم موقع يتحكم في القارات الثلاث افريقيا وآسيا وأوربا . وهذه المزية ليست راجعة الى عهد شق قناة السويس وحسب ، بل هي متأصلة في القدم . ويتصل هذا الموقع الممتاز كان الغزاة يتخذون مصر قاعدة للتوسع في فتوحاتهم غرباً وشرقاً

وحينما غزاها بونابرت كان أهم غرض يرمي اليه هو كفاح البريطانيين وحرمانهم استخدامها في مواصلاتهم الى الشرق . وكان في بيته بعد أن يوطد مقامه فيها أن يستولي على ممتلكاتهم الشرقية . ولم يفت البريطانيين ذلك فبادروا بالمساعدة على اخراج الفرنسيين منها بعد أن دمروا أسطول بونابرت في معركة أبي قير

ولما حفرت قناة السويس ارتفعت منزلة مصر وقد عارضت بريطانيا العظمى في حفر القناة قبل البدء فيه ولكنها بعد أن تم فتحها اشترت أسهم خديو مصر في شركتها

فمن الطبيعي أن تهتم بريطانيا العظمى بسلامة هذا الشريان الحيوي في مواصلاتها الامبراطورية ووقايته من كل ضرر يصيبه كما تهتم مصر نفس اهتمام بريطانيا بصيانة القناة لوقوعها في أرضها

لذلك كان من الحيوي ربط مصالح مصر بمصالح الامبراطورية البريطانية بعقد معاهدة التحالف الحالية

ان مصر ستصبح مع أسبانيا حاجزاً مركز ممتاز في السياسة الدولية وسيكون لها شأن في الصراع على التوازن في البحر المتوسط وسيكون شأن مصر أهم من شأن اسبانيا الآن لأنه

اذا كانت اسبانيا قائمة على باب من أبواب هذا البحر فانها في استطاعة مصر أن تراقب على قلته بيدها وهي مطمئنة الوحيد على نقط الاتصال بين هذا البحر وبين البحار الشرقية

٣ — السيادة البحرية

مصر منذ أقدم عصورها الى اليوم واقعة تحت تأثير السيادة البحرية . فمصر الفراعنة لم تسد الا عن طريق سيادة اسطولها خلال الاسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة عند ما كان لا ينافسها منافس من دول البحار في البحرين المتوسط والأحمر وحافظت مصر على مكانتها في عهد البطالمة لما كان الاسطول المصري أقوى اساطيل البحار . فلما انتقلت تلك السيادة الى روما استولت بدورها على مصر . وفي العصر الاسلامي — ولا سيما في العصر الطولوني والفاطمي والأيوبي — كان لمصر شأنها العظيم في تاريخ العالم لسيادتها البحرية ايضاً

فلما بزغ نجم آل عثمان واستولوا على القسطنطينية ظهر اسطول انتهازيين بكبريائه فمضى على اساطيل الدول المجاورة الى ان جاء دورهم في التدهور وخلفهم المماليك والبنادقة واسبانيا والبرتغال ثم ظهر في الافق البطل الكبير محمد علي . فسادت مصر زمناً لان أسطولها كان لا يضعف امام اساطيل البحر المتوسط . إلا أن مقام فرنسا البحري لم يطل أمده فقد انتزع الانكليز منها سيادة الماء ولقبت بريطانيا سيدة البحار فلما فازت به كان من الطبيعي ان تنتفع بريطانيا بموقع مصر بعد سلسلة من الوقائع البحرية ابتدأت بموقعة الطرف الأغر (ترافلجار)

رأينا مصر في جميع العصور الى اليوم تتأثر بمبدأ سيادة البحار (البحر المتوسط) سواء أكانت مصر هي سيدة الموقع ام غيرها . وعند ما نتكلم عن موقع مصر يجب ان لا ننسى هذا المبدأ مبدأ سيادة البحر Sea Command فانه بدأت المسألة المصرية في القرن التاسع عشر لذلك كان استيلاء الانكليز على مصر او احتلالهم او نفوذهم ثم محالفتهم وصداقتهم . الخ من اهم اركان تدعيم الأمبراطورية البريطانية . واذا وقعت مصر موقف العداء او وقعت في أيدي اعداء الانكليز أصبح موقعها مهدداً للامبراطورية وشوكة مبتة في طريقها حتى ولو كانت تسيطر عليها حكومة محايدة . بينما مصر الحليفة لسيدة البحار تؤلف أهم عقود الماء العسكرية في تلك الناحية من العالم القديم الذي يربط المملكة المتحدة بممتلكاتها في الشرق

ان جبل طارق ومالطة وقبرص وفلسطين تؤلف سلسلة من الحصون والقواعد والمستودعات الحربية . وما دامت هذه في قبضة دولة بحرية قوية فانها تستطيع أن تسيطر بقوتها على البحر المتوسط ولما كانت قوة السلسلة في أضعف حلقاتها ، فان مصر تكون مصدر خطر على بريطانيا اذا خرجت من نطاق الصداقة البريطانية فمن الطبيعي ان تمنع انكلترا انزلاق مصر نحو خصومها .

ومن المحتمل البعيد ان تكون مصر ثانية دولة بحرية كبيرة لتستطيع وحدها أن تتولى السيادتين البرية والبحرية في هذه المنطقة من سطح الارض

من أجل هذا البلد إ تنظر الى الدفاع عن مصر كأنه مسألة قوة بحرية لدولة صديقة قبل كل شيء ومن هذا الوقت الى وقت ما . . . يجب ان يرتبط مصير وادي النيل بالدولة البحرية القوية . ان مصر لن تكون كتلك الثمرة الناضجة على الشجرة التي الف حولها النهمون في انتظار سقوطها على الأرض ليلتهمها الجوعان اليقظ . وعلى أساس سيادة البحر يجب ان تشيد قوات الدفاع المصري

٤ — سكان مصر

يبلغ عدد سكان القطر المصري بحسب الاحصاء الأخير ١٥٫٩١٤٫٣٧٨ نسمة منهم ٩٩٪ يسكنون وادي النيل والفيوم ومنطقة قناة السويس والباقي موزع في الصحاري وشبه جزيرة سيناء وتبلغ نسبة عدد السكان ٤٥٠ نسمة في الكيلو متر المربع من وادي النيل . وينمو سكان مصر باطراد سريع فقد كان في عام ١٨٥٠ — ٤٫٦٠٠٫٠٠٠ نسمة وآل في عام ١٨٩٢ الى ٦٫٥٠٠٫٠٠٠ وأصبح في عام ١٩١٧ — ١٢٫٧٥٠٫٨٨١ وصار في الاحصاء الأخير ١٩٣٧ — ١٥٫٩١٤٫٣٧٨ نسمة فلو استمر الحال في الزيادة على هذه النسبة تضاعف عدد سكان مصر بعد ٦٠ سنة وقد يبلغ نحو ٥٠ مليوناً بعد قرن من الزمان لذلك نجد أنفسنا امام الحقائق الآتية : —

(١) — زيادة كبيرة ومستمرة في نمو السكان مع العلم بأن معدل المواليد والوفيات والزواج في مصر أعلى منه في بلدان أخرى فنحن في غنى عن وضع سياسة لنمو السكان او عمل اجراآت خاصة لزيادة النسل عملاً بالعبارة Be fruitful and multiply التي يُعمل بها في بعض الدول الاوربية كايطاليا والمانيا . فالزيادة الطبيعية مستمرة بدون تشجيع كما اننا لا نطالب بتخفيف ضغط السكان بوسائل ما

(٢) حيث ان زيادة السكان مستمرة فيجب ان تكفل للموارد التي تكفل لجميع الأهالي مستوى مريحاً من المعيشة بقدر ما تبيحهُ الوسائل الأقتصادية والصحية مع مراعاة ان يكون العدد كافياً للدفاع عن كيان الوطن في كل وقت وبحسب الظروف الدولية

(٣) زاد سكان مصر حوالي ٦٠٪ عما كانوا عليه منذ اربعين عاماً (١٨٩٧—١٩٣٧) فاذا راعينا هذه النسبة فيكون عدد سكان القطر المصري حوالي ٢٥ مليون نسمة حوالي سنة ١٩٨٠ اذا فرضنا ان الأحوال الصحية لم تتحسن وهذا غير ما ننتظره ونتوقعهُ . فالمفروض ان تتحسن تلك الأحوال وترتقي كثيراً عما هي عليه الآن . فضلاً عن نموّ الموارد الصناعية

ولكن مع هذا النمو الكبير في السكان يلاحظ أن الارض الزراعية قد زادت في المتوسط

نحو ٧ ٪ فقط وجميعنا يعلم أن الفلاح المصري حالته لا تزال سيئة جداً

(٤) ان البلاد تستطيع في المستقبل أن تضع لزيادات اخرى في السكان خصوصاً عند ما يتم اصلاح الأراضي الزراعية في شمال الدلتا مثلاً البور منها والتي سيحوّل ريها الى ري دائم فتدخل مساحات كبيرة في نطاق الارض الزراعية ودخولها الآن متوقف على اتمام مشروعات تانا والبرث . واصلاح منطقة السدود . . . الخ مع ما ينتج من تعلية خزان اسوان وخزان جبل الاولياء مما يضمن ٨ مليارات في الامتار المكعبة من المياه وبذلك تمد للزراعة مئات الآلاف من الأفدنة في الشمال في جهات نائية تقل فيها الأيدي العاملة

(٥) لاحظ الأستاذ كيلاند أن ثلثي سكان القطر المصري اي ٦٥ ٪ منهم يقل عمرهم عن الثلاثين بينما نجد هذه النسبة في انكلترا وفرنسا ٥٠ ٪ في عام ١٩٣٠ أو ٥٣ ٪ في عام ١٩٣١

(٦) نجد أنفسنا امام حقيقة مؤلمة فان ٩٠ ٪ من أهل القطر المصري في حاجة الى العلاج الطبي . وقد بلغ سوء الحالة الصحية ان المتقدمين للقرعة العسكرية لا يصلح منهم للخدمة دون علاج سوى ٤ ٪ و١٦ ٪ منهم يصلح للخدمة بعد معالجته بينما ٨٠ ٪ لا يصلح قط ونجد ان هذه النسبة في بريطانيا العظمى هي ٣٦ ٪ صالح للخدمة و٢٢ ٪ في حاجة الى العلاج و٤١٫٥ ٪ غير صالح للخدمة العسكرية . ففي مصر ١٢٠٫٠٠٠ أعمى و١٤٫٥٠٠٫٠٠٠ مصاب بانتراخوما و ١٠ ملايين مصاب بالبلهارسيا والانكلستوما هذا فضلاً عن الامراض الأخرى الشائعة ومن الحظ الحسن ان مصر بلد زراعي ولذلك فأثر ضعف الصحة العامة فيها غير محسوس كما لو كانت بلداً صناعيًّا . ومع ذلك فان العامل الزراعي المصري في حالة صحية غير مرضية

(السكان والثروة الأهلية) مصدر الثروة في مصر الزراعة . فنهر النيل المبارك يمنح مصر كل عام ما يزيد عن ٩٠ مليوناً من الأمتار المكعبة من الماء تروي مساحة تبلغ ١٢٫٥٠٠ ميل مربع وبيلغ ما يستعمل من هذه المساحة للزراعة ٦٤ ٪ او ما يقرب من ٥٫٥٠٠٫٠٠٠ فدان وفي الوسع زيادتها الى ٧٫١٠٠٫٠٠٠ اذا تمكنا من تنفيذ بعض مشروعات الري . فتنتج الارض محصولاً ونصف محصول لكل فدان مما يجعل قيمة الاراضي الزراعية لعادل ٨٫٥٠٠٫٥٠٠ فدان من ذات المحصول الواحد . وقد يمكن رفع ذلك الى ما يعادل محصول ١١٫٤٣٠٫٠٠٠ .

واذا تحتنا الايراد الأهلي وتوزيعه على السكان وجدناها في عام ١٩٣٥ قدرت بمبلغ ١٨٥ مليون جنيه اي بمعدل ٢٠ جنيهاً لكل مصري ولا شك ان هذا المبلغ ضئيل جداً اذا قابلناه بمثله في الممالك الأخرى ففي بلاد السويد يبلغ معدل إيراد الفرد نحو ٦٠ جنيهاً (١٩٣٥)

ففي عام ١٩٣٥ استولى ١٫٥ ٪ من مجموع السكان على نصف الايراد الأهلي المذكور اي

ان ٠٠٠ر٦٣٢ رجل ذا كل منهم ٤٢٠ جنيهاً بينما لم ينل كل رجل من باقي السكان سوى ستة جنيهات و٤٠٠ مليم . فاذا فسنا ٣١ ٪ من مجموع الأفدنة (نسبة الذين يملكون اقل من خمس افدنة نحو ٩٣ ٪ من مجموع الملاك وبلغت نسبة ما يملكون ٣١ ٪ من مجموع الاراضي) على سواد الشعب وهو ٩٣ ٪ من السكان ، فان نصيب الفرد لا يتعدى مبلغ اربعة جنيهات في العام ومعنى ذلك ان الأسرة المصرية البادية التي تواما خمسة أشخاص تتفاوت ميزانيتها السنوية بين ٢٠ و ٣٢ جنيهاً

هذه الارقام تبين بجلاء ان القطر المصري لم يكشف بعد الموارد اللازمة لاعالة عدد من السكان أكبر من العدد الحالي . بل في الواقع أن هذه الموارد لا تكفي السكان كما هم الآن . فما بالك اذا تضاعف عددهم حوالي عام ١٩٩٠ وبقيت الحالة الصحية على ما هي عليه الآن؟

(الحل) إن عدد سكاننا في الحال وفي المستقبل يكفل لنا جيشاً كبيراً فيجب وضع برنامج لهذا المستقبل والعمل عملاً جديًّا لترقية مستوى المعيشة قبل تنفيذ أي مشروع وطني فترفع الايراد الاهلي غير ناسين عدد السكان . وليس هنا مجال البحث في ابتكار الوسائل التي تكفل رفع الثروة الاهلية وانشاء منافذ للعدد الزائد من السكان عن طريق الهجرة أو إسكانهم في الاراضي التي تعمر ولكن في ميدان التجربة مجال كبير للنجاح

٥ — موارد الرفاع

مصر بلاد غنية بطبيعتها ولكن شعبها فقير لأن أكثر من ٩٠ ٪ منهم مسخرون بأزهد الأجور لخدمة أصحاب الأراضي ورخص اليد العاملة الى أدنى حد جعل البون شاسعاً بين الفقر والثروة

يرى البعض ان أكبر عناصر قضية الدفاع الوطني هو المال . ومع ان المال عنصر جوهري ولا بد من انفاق مال طائل في اعداد معدات الدفاع وشراء ما يلزم من سلاح وذخيرة ومعدات قتال ، والانفاق على الضباط والجنود وبناء التكنات ومدّ الطرق العسكرية وسواها ، فهناك عناصر اخرى لا تقل منزلةً وشأناً عن المال

في مقدمة هذه العناصر تنبيه الرأي العام الى ضرورة الانتقال من الحالة التي نحن فيها الى الحالة التي يتعين علينا فيها انشاء جيش قوي يؤدي واجب الجيوش الحديثة في هذا العصر

(الثروة الزراعية) يمكن تقسيمها بوجه عام الى نوعين :—

١ — محاصيل زراعية . لا تردد في تأكيد اعتقادنا بوفرتها مع الثروة الحيوانية وفي الكشف الآتي بين اهم المزروعات الزراعية

أهم محصولات مصر الزراعية سنة ١٩٣٩

الغلة	المساحة المزروعة	المحصول	متوسط محصول الفدان الأردب
القمح	١ر٤٤٦ر٣٥٥	٨ر٨١٣ر٢٦٧	٥ر٠
الأذرة الشامي	١ر٥٤٧ر٥٤٩	١٠ر٨٨١ر٠٠٠	٧ر٠٣ (٢)
الأذرة الرفيعة	٤١٢ر٢٤٥	٣ر٨١٨ر٠٠٠	٩ر٢٦
الشعير	٢٦٢ر٩٤٦	١ر٩٨٤ر٧٠٤	٧ر٥٥ (٣)
الأرز	٥٤٦ر٨٧٠	٩٥٠ر٠٠٠ (ضريبة)	١ر٧٣٧ (٤)
الفول	٣٨٤ر٥٨١	١ر٩٧٤ر٠٣٩	٥ر١٣ (٥)
الحلبة	٨٣ر٢١٠	٣١٩ر٩١٠	٣ر٨٤
البصل	٣٥ر٠٧١	١ر٩٩٧ر٣٨١	٧ر٥٠
العدس	٨٠ر٩٥٩	٣٩١ر٩١٥	٤ر٨٤
الفول السوداني	٢٣ر٧٥٦	٢٢١ر٠٠٠	٩ر٣٢
قصب السكر (٩٣٨)	٦٨ر٢١٦	١٤٦ر٢٢٠ر٥١ قنطار	٧٥١

﴿ الثروة المعدنية ﴾ أهمها الحديد الذي يعتبر أساساً لأغلب الصناعات الكبرى . وهو — او بالحري أكاسيد الحديد — موجودة بكثرة في الصحاري المصرية وأهم بقاعه شبه جزيرة سيناء وفي وادي الدب وابو مروة في الجزء الشمالي من الصحراء الشرقية وفي وادي ابو جريدة على مسافة من الطريق القديم بين قنا والقصير وفي الجزء الجنوبي الشرقي من الصحراء الشرقية على مقربة من شاطىء البحر شمال رأس بناس وفي الواحات البحرية والخارجة . وفي منطقة اسوان . ومن الابحاث المتتالية التي قامت بها مصلحة المناجم والمساحة وبعض الأفراد يستنتج ان مصر لا يعوزها معدن الحديد، وان مقادير كبيرة من ركازه توجد في بعض الجهات وبها نسبة جيدة من الحديد ولكن عقبة المواصلات يجب تذليلها . لأن هذا الحديد يحتاج الى فحم وسفنات نقل الفحم من بلاده الينا ليست أمراً سهلاً ولو أتيح لصناعة الحديد ان تقوم في هذه البلاد لكان في الوسع انشاء صناعة أنواع مختلفة من الفولاذ بفضل ما يوجد من الخامات المعدنية الأخرى كالتنجستن والكروميوم . . . الخ وحاجة الصناعة الحربية اليه لا تنكر

كذلك مقادير الرصاص والزنك لا بأس بها والنحاس والفوسفات والنيكل .

ولكي تنمي موارد ثروتنا ونخلق جيلاً صناعيًّا ونشيء صناعات حربية لا يستهان بها يجب

(١) الاردب = ١٥٠ كيلو (٢) الاردب = ١٤٠ كيلو (٣) الاردب = ١٢٠ كيلو
(٤) القنطار = ٩٣٤ر٥ كيلو (٥) الاردب = ١٥٥ كيلو

ان لا نصبح القائمة من وجود المعادن في بلادنا هي جزء عظيم الشأن من ثروتنا وعلينا ان لا نعتمد في حياتنا على الزراعة فحسب . بل نحن لا نكاد نعتمد الا على صنف واحد منها . لذلك وجب علينا ان نعتمد جادين لوضع و تنفيذ برنامج معدني صناعي يشمل سنوات (١)

﴿ الصناعات الكبرى ﴾ ان الحالة الجديدة التي تواجهها مصر — وقد أصبحت مسؤولة عن اعداد قوات كبيرة للدفاع تحملنا على مضاعفة جهدنا لتحقيق تحويل مصر الى بلد صناعي فان مطالب الدفاع الحربية سواء في البر او في البحر او الجو توجب قيام الصناعات المختلفة . ولا سيما المتصلة منها بالضروريات الحربية . وقيام الصناعات الكبرى في بلد ما يقتضي ان تتوافر له عوامل من حيث رؤوس الأموال والأيدي العاملة وطرق المواصلات وما الى ذلك من الظروف التي يجب ان تلائم كل صناعة على حدتها . على ان حاجتها الرئيسية هي :—

أولاً : الى القوة المحركة — الوقود

ثانياً : الى مواد الخام الاولية

لا غنى في جميع الصناعات الكبرى عن قوى ميكانيكية محركة ، وهذه في حاجة الى احد الأشياء الآتية :—

١ — الفحم ٢ — البترول ومشتقاته ٣ — ساقط المياه

١ — فيما يتعلق بالفحم الحجري فقد أثبتت البحوث في السنة الأخيرة عدم التعويل على وجوده في مصر وعلى ذلك افضلهُ من حسابنا عند تقدير ما في البلاد من وقود

٢ — القطر او البترول (هو عصب الحرب) ، هذا السائل بفضل ما يستخرج منهُ من مواد كالبنزين والكيروسين وزيوت الديزل والمازوت هو من أهم أنواع الوقود و تستعمل منتجاته المختلفة في ادارة شتى الآلات . وحظ مصر من هذه المواد أحسن من حظها في الفحم الحجري وان كانت المقادير التي تنتجها الحقول المصرية لا تزال أقل من حاجة القطر الآن وأقل كثيراً مما يحتاج اليه لو انتشرت الصناعات

وقد انتجت حقول القطر في مصر عام ١٩٣٥ حوالي ٢٣٠ الف طن متري . واذا أضيف الى هذه ما يرد الينا من الخارج فاضت مقادير كبيرة تستورد بها البواخر المارة بقناة السويس كما تصدر منهُ مقادير الى الخارج . ويتضح من هذا ان ما تنتجهُ المعامل المحلية من البنزين يكفي حاجة القطر وان كان لظروف خاصة يستورد مقادير خاصة للاستهلاك المحلي ويصدر مقادير من اصناف أخرى من الانتاج المحلي . أما الكيروسين فنحن في حاجة الى استيراد مقادير كبيرة الا اذا أتيح استكشاف موارد مصرية جديدة

(١) يراجع بحث لصاحب الدولة اسماعيل صدقي باشا — المقتطف يوليو ١٩٣٢

كذلك الحال في شأن زيت البترول المستعمل في الآلات التي تدفع استخدامها في أغلب المنشآت الصناعية الحديثة فان الناتج منهُ محليًّا أقل من استهلاك القطر ولذلك تستورد منهُ مقادير كبيرة

أما فيما يختص بالسولار والمازوت فان الناتج منهُ محليًّا يزيد عن حاجة البلاد فاذا استوردت منهُ مقادير كبيرة من الخارج كان ذلك لتموين البواخر التي تمر بالموانىء المصرية

والاستغلال يزيد الناتج منهُ عن حاجة البلاد

ومع ان هذه الارقام تدل على الاطمئنان من حيث تموين البلاد بما تحتاج اليهِ من منتجات البترول فان الامر يدعو الى وضع سياسة بترولية تراعى فيها الاحوال المقبلة ويراعى معها العمل على توفير المخزون منها بالبلاد تفادياً مما عساهُ أن يحدث في حالة الحرب او الاضطراب الذي يؤدي الى انقطاع الوارد من الخارج ولو بصفة مؤقتة (١)

٣ — مساقط المياه وتوليد الكهرباء — تصلح بعض الخزانات والقناطر المقامة على مجرى النيل لتوليد الكهرباء . ويجري البحث منذ سنوات في دراسة مشروع خزان اسوان ومساقط بعض القناطر الاخرى وهذا المشروع لا يكون اقتصاديًّا الاَّ اذا سار مع مشروع صنع السماد من الخزان جنباً لجنب بحيث يستهلك هذا المصنع الجزء الاكبر من القوة المتولدة

واذا كان مشروع توليد الكهرباء في منخفض القطارة قد يبدو لبعض خياليًّا في الوقت الحالي فقد لا يطول الزمن الذي يصبح فيهِ مشروعاً قابلاً للتنفيذ (٢)

﴿ الميزانية ﴾ نصف ايرادات الميزانية تأتي من الضرائب الجمركية التي قدر لها في الميزانية لعام ١٩٤٠ مبلغ ١٠٠ر٥٣٥ر١٨ جنيه بينما كل ما يأتي من الاموال المقررة هو ٣٠٠ر١٦٤ر٦ جنيه ولهذه المقارنة مغزى كبير فان الضرائب الجمركية على خلاف الضرائب المقارية الثابتة هي رسوم غير مباشرة من النوع المتقلب (Fluctuating) الذي يتغير بتغير الأحوال الاقتصادية فهي كما قد تهبط هبوطاً كبيراً فتصبح وتمسي واذ بزوتنا الجمركية قد نقصت الى حدّ يتعذر معهُ التوفيق بين الدخل والخرج (٣) . فكيف لنا الانفاق على الجيش ؟ اذن لا يصح أن نستند الى الضرائب الجمركية لموازنة الميزانية المصرية ولا علاج لذلك الاَّ أن يكون لنا ضرائب ثابتة مباشرة غير الضرائب العقارية والرسوم القضائية والسكة الحديدية والتليفونات والبريد ... الخ لتكون هذه الضرائب الثابتة هي الدعامة الحقيقية لميزانية الدولة وأهمها ضريبة الدخل وضريبة التركات وغيرها وتنمية موارد الثروة الأهلية

---

(١) من بحث للدكتور محمد فتحا صادق وزير الدفاع الوطني في محاضرة بالمجمع المصري للثقافة العلمية

(٢) دولة حسين سري باشا — راجع محاضرة عن هذا المشروع في مجموعة محاضرات المجمع المصري للثقافة العلمية عام ١٩٣٥ (٣) محمد المنجوري — كتاب اتجاهات التعمير الجديد في مصر ص ٩٨

مصروفات الدولة

هل نستطيع أن نوفر شيئاً من مرتبات الموظفين ؟ لقد خبر بعض النيين من رجال وزارة المالية هذه المسألة ورأوا أن توفير الحكومة مبلغ ٣٤٨٥٠٠٠ من اعتمادات مرتبات الموظفين البالغة ١٤٠ و ٣٦٧ و ١٣ في ميزانية ١٩٣٩ — ١٩٤٠ يقتضي منها أن تلجأ الى الحل الآتي : —

أولاً — الغاء طائفة من الوظائف الكبيرة التي تكاد تكون وظائف شرف لا أكثر وبذلك يتوفر لدى الخزانة ما لا يقل عن ١٠٠٠٠٠ جنيه سنوياً . ثانياً — تخفيض ٢٠ ٪ من مرتبات موظفي الدرجات الأولى والثانية والثالثة والرابعة وبذلك يتوفر للخزانة ما لا يقل عن ٣٠٠٠٠٠ جنيه سنوياً . ثالثاً — خفض عدد وظائف الدرجات الخامسة والسادسة والسابعة والثامنة بنسبة ٢٠ ٪ ثم خفض مرتبات الموظفين الباقين في هذه الدرجات بنسبة ١٥ ٪ وبذلك يتوفر للخزانة ٦٢٣٠٠٠ و ٢ جنيه رابعاً — خفض عدد وظائف المستخدمين الخارجين عن هيئة العمال بنسبة ٢٠ ٪ دون خفض المرتبات فيتوفر للخزانة نحو ٥٠٠٠٠٠ جنيه خامساً — خفض مرتب الوزراء بنسبة ٥٠ ٪ فيتوفر للخزانة بذلك نحو ١٢٠٠٠ جنيه فلو تم تخفيض مرتبات الموظفين على هذا الأساس لبلغ مجموع ما يمكن توفيره ٣٤٨٥٠٠٠ جنيه في العام دون أن يختل نظام الحكم[1]

هذا فيما يتعلق بالاقتصاد من مرتبات الموظفين عموماً وفي الوسع الغاء بعض الوظائف الكبيرة الزائدة عن الحاجة والاستغناء عن بعض الوزارات واعادة تنظيمها اصلاح أو ادارات والغاء معظم مصروفات التمثيل السياسي التي تكلفنا كل عام مبالغ كبيرة دون أن نجني من ورائها مغنماً فضلاً عن القضاء على مظاهر الترف والاسراف التي أصبحت مألوفة ثم تحريم المشتريات الكمالية

﴿ النتيجة ﴾ يبدو مما أوردناه تضخم المصروفات العامة واضحاً في مصر ولا سيما في العشرين السنة الاخيرة وهذا الازدياد هو مظهر للتطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ولا بدَّ منهُ

ان ميزانيتنا في وضعها الحالي لا تستطيع مواجهة الالتزامات الخاصة بتسلح القرن العشرين ومن الضروري تعديلها تعديلاً جوهرياً لكي نستطيع الانفاق على قوات الدفاع الوطني

٦ — الدفاع قبل الجيش

في وسعنا أن نقول أن الجيش المصري يستطيع ان يضطلع وحده بمهمة الدفاع عن الدولة المصرية بعد ١٦ عاماً تقريباً على ان تظل المعاهدة البريطانية المصرية قائمة لأن الدول الصغيرة

(١) من مقال نشر في مجلة المصور عام ١٩٣٩

مهما تكن قوية لا تستطيع ان تقف وحدها حيال الامم القوية اذا ما اعتدت عليها ولا بد للنجاح في انشاء قوات مصرية للدفاع من ان تكون لنا غاية مرسومة يجمع عليها الرأي العسكري والسياسي والاقتصادي تسعى الحكومة الى تحقيقها مهما يختلف لون الحكومة القائمة بالأمر . وان تكون السبل التي تسلكها مرنة قابلة للتوسع والتعديل

﴿ اعداد الأمة ﴾ أصبح النهوض بشئون الجيش وحده لا يحقق مقتضيات الدفاع الوطني فلا بد من ان تسير جميع مسائل الاصلاح جنباً الى جنب

فني الوقت الذي نفكر فيه في توسيع جيشنا واعداده اعداداً فنيًّا صحيحاً يجب اعداد العدة لزيادة الانتاج الأهلي والثروة العامة ، ورفع مستوى صحة الشعب وتعديل برامج التربية في مدارسنا لكي نخرج جيلاً مشبعاً بمبادىء الوطنية السامية

٧ — ﴿ تربية الروح ﴾ اشترط حلفاؤنا ان نقوي جيشنا قبل ان تجلو جيوشهم عن وادي النيل وجيشنا لو اشترطوا علينا اصلاح تربيتنا

كل واجب يدعو اليه الوطن انما هو واجب مكلفة بأدائه المرأة قبل سواها . فالأم هي الداعية الأولى لتوطيد النظام العسكري لانه الوسيلة الوحيدة لحماية الاستقلال

فمن اذن يحمي بلادنا غوائل الاطماع غير جيل ناشيء مثقل تهيئة المرأة الآن بتربيتها

اذن اعداد الشعب للنظام الجديد يجب ان يتقدم كل عمل آخر

فاذا اريد الاقتصار على تكبير الجيش وتعزيز سلاح الجو وشراء اسطول صغير بالقدر الذي تسمح به البلاد ، فهذا لا يفي بحاجة الدفاع الوطني على اساس ثابت

الاعداد الروحي يجب ان يشمل في الحال جميع طبقات المصريين وعلى الأخص الجيل الجديد الذي يجب ان يعلم ان عليه مهمة عظيمة . هي مهمة الدفاع عن مصر

﴿ الجسم ﴾ ويلي الاعداد الروحي اعداد جيل قوي سليم من الامراض والاوبئة يستطيع ان يضطلع باعباء الدفاع ويكون له من قوة افراده وما يتمتعون به من حقوق وامتيازات ما يبعثهم على بذل الارواح في هذا السبيل

اي ان انشاء جيش منفصل عن سائر الامة كما كان الامر لا يكفل بلوغ الغاية فلا بد من اعداد أساس متين

فاذا اريد ان تكون مصر من القوة بحيث تستطيع الدفاع عن سلامتها وجب ان لا يقتصر السعي على المجندين والضباط وما يتصل بهم من مدارس وثكنات وسيارات وتعيينات بل يجب ان تشمل آلة الدفاع الوطني الشعب كله حتى تصبح مصر قوية وحتى يكون وراء الجيش شعب يشد ازره ويعززه بالقوة المعنوية والمادية لأن الجيش السليم في الأمة السليمة A Sound Army is in a Sound Nation

والسياسة لا يشتمل على ناحية الجيش فقط الا اذا نظرنا الى الجيش كأنه اداة الدفاع عن البلاد بدون اشتراك الدعائم الأخرى وهو نظر خاطئ. فالدفاع الوطني يحتاج الى اجسام سليمة كما يحتاج الى سيارات ودبابات ومدافع. بل ان حاجته الى الرجال ذوي الأجسام الصحيحة ليس دون حاجته الى السيارات والمدافع والدبابات

فالدعامة الأولى ترتكز على الرجال. جنوداً وضباطاً اقوياء جسماً وعقلاً وروحاً وبتفاعل الجسم والعقل والروح واتحادها تفوز بشبان يصلحون للجندية. فالخلق ينشأ بالتربية وتقوية الأجساد تكون بكفالة المسكن الصحي والطعام الجيد وتقريب وسائل العلاج في متناول جميع الطبقات. والعقول السليمة نتيجة التعليم القويم

والتربية تقوم عليها وزارة المعارف بعد الأم وتوفير وسائل الطب والعلاج من اختص شؤون وزارة الصحة. والتعليم العسكري تتولاه وزارة الدفاع

ولا يستطيع ان ينكر هذه الحقائق اشد المتحمسين للدفاع الوطني. الا اذا اريد القول ان الجيش يستطيع أن يحقق مهمته بدون ان يتصف رجاله بالفضائل الوطنية. وباهمال جميع موارد الثروة المحلية وتجنيد الأصحاء للجيش والمرضى للقوات الاحتياطية. ان قصر الجهد كله او اكثره على الشؤون الحربية المحض، ينطوي على نقص في برنامج الدفاع الوطني لأنه لا يؤدي بنا الى النهاية المرجوة. فهو يقدم لنا جيشاً قد يكون مخصصاً له خمسة ملايين من الجنيهات المصرية في ميزانية الدولة. ولكنه يكون فقيراً في روحه المعنوية فقيراً في صحته ورجاله وربما ضعيفاً ايضاً في تسلحه المادي وتنتهي الى النتائج التالية

اولاً — تحقيق الدفاع القومي على وجهه الصحيح يكون باعداد الرجال القادرين الأقوياء كما يكون باعداد السلاح والذخيرة. ثانياً — جعل التربية والتعليم على اسس وطنية. ثالثاً — لاعداد هؤلاء يجب بذل العناية الفائقة بشؤون الصحة العامة ورفع مستوى المعيشة. رابعاً — العمل على زيادة الانتاج الأهلي والبحث عن موارد جديدة للثروة

هل الجيش ضروري

ليس هنا مجال التعرض للجدل الذي اثير في السنوات الأخيرة حول لزوم الجيوش للامم. ولسنا نستطيع ايضاً ان نبحث موقف بعض الدول (الدنمارك) مثلاً التي خفضت قواتها الدفاعية الى العدد الذي يكاد يكفي للمساهمة في اقامة الأمن وحراسة المرافق العامة. فانها مؤمنون بأن الجيش لازم للبلد لزوم المدارس. وهو في مصر ألزم منه في أي مكان آخر. وحسبك ان تقارن المواطن المصري عند دخوله « لواء الأساور » به عند انتهاء خدمته العسكرية لترى ان

الجيش مدرسة تمدي إلى الأمة أجل الخدمات فيما من الناحية الحربية فحسب بل من ناحية التربية العسكرية والبدنية والعقلية والنفسية كذلك.

إن الجيش أفضل مدرسة لتربية الأخلاق ولذلك أني نصيحي بأن تعهد المدرسة كل مصري قادر على الخدمة. إن الضابط يستطيع مل يجب ان يصبح المربي والمقوم الحقيقي لشبابنا التي غدت اليوم عجرة على المرور من باب الثكنة العسكرية

(الظروف المحيطة بالدفاع الوطني) إن سياسة الدفاع المصرية مبنية على المعاهدات المعاهدة البريطانية المصرية الى ان تنتهي مدتها و نستنتج من هذا الوضع نتيجتين : —

النتيجة الأولى : ان مصر أصبحت حرة في أمورها وأمور جيوشها وتسلحها

النتيجة الثانية : ان أعباء الدفاع عن سلامة مصر أصبحت ملقاة على عاتق مصر بصفة أصلية وعلى بريطانيا باعتبارها معاونة فقط

وما دامت مهمة بريطانيا فيما يتصل بالدفاع عن مصر — كما حددتها معاهدة تحالفنا معها — مهمة معاونة فقط ، فالواجب ان تتدرج في العمل لتقوية الجيش تدرجاً سريعاً ليصل كل منا — انكلترا ومصر — الى النصاب المخصص له في مضمار الدفاع بعد ١٥ عاماً . فيؤدي جيشنا وحده مهمة الدفاع، لا استناداً الى جيش دولة أجنبية. وعلى الرغم من خطورة الظروف المحيطة ببلادنا والأحوال الدولية لا تزال خطواتنا بطيئة في التسلح وفي اعداد احتياطي الجيش والطيران معاً ، ولا نرى من ناحية المال عقبة في سبيل ما أعددناه. (١) وقد رأينا ان نقيس حالتنا بحالة أقطار أخرى قريبة اشبه بنا من حيث ميزانيتها ومواردها وعدد سكانها . ففي تركيا — ١٧٥ر٠٠٠ جندي و٢٠ ألف ضابط وما يقرب من ٥٠٠ طائرة وفيها — ١٠ر٠٠٠ ضابط وميكانيكي . ونحن نعلم ان ميزانية الدولة التركية تعادل ٤٣ مليون جنيه (١٩٣٩ — ١٩٤٠)

وفي إيران ٣١ر٥٠٠ جندي و١٦٢٢ ضابطاً و٢٠٠ طائرة و٩٠٠ ضابط وميكانيكي لقوة الطيران وميزانيتها العامة لا تتجاوز ١٤ مليون جنيه مصري

تلك هي حال الأقطار التي رأينا الاستشهاد بها للشبه بينها وبين بلادنا وميزانية بلادنا في عام (١٩٤٠ — ١٩٤١) بلغت ٤٧ مليون جنيه

---

(١) هاكنا سنقارن بعض المسائل العمرية بشبيهاتها في تركيا، نورد هنا ان مساحة تركيا هي ٢٩٤٠٠٠ ميل مربع منها ٢٩١٠٠٠ ميل اراضي زراعية منها ٤٨٣٠ ميلاً مزروعة اشجاراً وشجيرات و ٣٤١٠٠ ميل مربع غابات والباقي اراضي غير مزروعة ويبلغ عدد سكان تركيا طبقاً لتعداد سنة ١٩٣٥ — ١٥٨ر٠٠٠ر١٦ نفس اغلبيتهم العظمى (نحو ٨٥ر٠ ٪) يشتغلون بالزراعة . وهكذا نرى تركيا لست في غنى عن مصر ولا اكثر منها غنى ومع ذلك استطاعت ان تقتني جيشاً كاملاً للدفاع عن سلامتها ولم تكن مقدرة مصر المالية في عهد محمد علي الكبير و عدد سكانها اعظم مما هي الآن . ومع ذلك كان لمصر جيش قوي منظم استطاع ان يصون البلاد من الاعتداء وان يهيب الدولة العلية في حربه الموروثة وكريت وحروبها مع روسيا وان يبيد ايها الحجاز وان يهاجم تركيا ويظفر بها وذلك فيما ان يعقد تركيا دولياً ما

ان دفاع انكلترا عن مصر او النهوض بأكبر قسط منه غير مأمون العواقب . وقد تضطر الى ان تسترد جنودها من مصر لسبب استراتيجي هام . فتصبح مصر مجردة من معظم أسباب اندفاع هذا الاحتلال لامدٍّ من ان يحسب حسابه مهما يقل من شأن مصر كطريق يصل بين أجزاء الامبراطورية . ومن المسلم به ان تهيؤ مصر لاستيفاء أسباب الدفاع العسكري في الوقت العصيب الذي تعيش فيه يجب ان تتهيأ فرصة للعمل بنشاط وهذه الفرصة لن تعود

فما هو مجال النشاط وعلى أية قاعدة نؤسسه ؟

يؤسس مجال نشاطنا على قواعد وطنية متينة قوامها القواعد التي سنذكرها في صفحة ١٤ من هذا البحث وشعارها الجيش السليم في الأمة السليمة

٧ — القواعد التي نؤسس عليها الجيش

انتهينا من شرح المسائل المتعلقة بمساحة مصر وموقعها وعدد سكانها ومواردها الزراعية والمعدنية والثروة الأهلية وميزانية الدولة ثم عرجنا على اعداد الأمة للحرب . والآن ننتقل الى بحث أهم القواعد التي ينهض عليها تنظيم قوات الدفاع البرية والجوية

(١ — الخدمة العسكرية) اشتراك جميع طبقات الأمة في تأدية الخدمة العسكرية وتدريب الشبيبة على الاعمال الشبيهة بالعسكرية من طلبة وموظفين وعمال وزراع ... الخ وذلك يتطلب قلب نظم التجنيد الحالية وهي عتيقة لا تتفق مع روح العصر

نرى ان يمحى الاعفاء وبدل البدل العسكري معاً . وان يطلق عنان الجندية في الأمة فيجند كل مكلف من كل بيئة فيها وكل محيط فتنتشر الروح العسكرية المنظمة في البلاد ، ويؤدي ذلك الى ازالة الاستثناء والتمييز بين الطبقات ، فيمكن الاستفادة من الشبان المتعلمين المجندين فترات قصيرة في تعليم الأمة تعليماً الزامياً كما فعلت تركيا

ونرى مؤقتاً عدم الغاء البدل النقدي دفعة واحدة بل نرفع قيمته الى خمسين جنيهاً ثم الى أكثر من ذلك قبل الغائه نهائياً وبذلك نضمن ضم عدد اكبر من المتطوعين الى صفوف الجيش

ونرى خفض مدة الخدمة العسكرية من خمس سنوات الى ثلاث فقط

ولتشجيع الخدمة العسكرية يجب ان لا يسمح لأي مصري بالالتحاق بخدمة الحكومة او الشركات او مزاولة حقوقه المدنية الا اذا أثبت انه أدى الخدمة العسكرية او مدة التدريب العسكري في المعاهد العالية

ولا نمنع طلبة الجامعة او المعاهد او غيرهم من رجال الاعمال من الخدمة العسكرية لكن نجيز مدتها لهم بما لا يتعارض دراستهم

﴿ ٢ — الطيران ﴾ مصر مع ما خسته في سبيل ترقية سلاحها الجوي ما زالت أقل من أن تجعل البحر المتوسط قوة جوية وبلادنا هدف جيد للطائرات وعلى مسافات قصيرة من القواعد الجوية الأجنبية فبورسعيد تبعد عن رودس ٤٢٥ ميلاً تقطع في ساعة وأربعين دقيقة وتبعد عن طبرق ٣٦٠ تقطع في ساعة و٢٧ دقيقة تقريباً وبين السويس أقرب نقطة على ساحل أريتريا ٨٠٠ ميل تقطع في ٣ ساعات و١٢ دقيقة وبين الخرطوم وأديس ابابا ٦٠٠ ميل تقطع في ساعتين و٢٤ دقيقة على أساس اقصى السرعة الجوية المعروفة الآن

تستطيع مصر تدريجياً ان تجعل بقواتها الجوية بعد ١٦ سنة الى امتلاك ٥٠٠ طائرة برية وبحرية متنوعة الأطرزة للقتال وقاذفات القنابل والاستكشاف وحاملات الجنود ... الخ من طائرات التعليم . على أن تعمل كفاءة رجالها من ملاحين ومدفعيين وميكانيكيين وما يطلي المطلات الى درجة فائقة من التدريب لا تقل عن زملائهم الأوربيين على ان يصبح الدفاع الجوي كاملاً عن المدن والمرافق الحيوية

وتتحكم العوامل الآتية في انشاء القوات الجوية وحياتها : —

١ — وفرة المال وكثرة المواد الأولية وكثرة المصانع والآلات والأدوات اللازمة لها وكثرة الحظائر والمطارات المشيدة تحت الارض وكذلك مخازن البترول

٢ — عدد عظيم من الطيارين واحتياطي لهم وكثرة المدربين والملاحين والصناع والميكانيكيين والمهندسين . وهذا ما يقتضينا مع تشجيع فكرة الطيران في الأندية الرياضية والمعاهد ونشر الدعاية الجوية وتشجيع صنع نماذج الطائرات بانشاء مسابقات وجوائز

﴿ ٣ — الجيش ﴾ لضع برنامج التوسع العسكري على اساس النواة الحالية للجيش على ان تتوفر فيها قوة التسلح والروح المعنوية وسرعة الحركة . ويعد الاطمئنان على كفاءة هذه القوة ومتانتها الفنية في جميع الاسلحة نعمل على زيادتها سلاحاً ورجالاً بمعنى ان لا نتشيء وحدة ما قبل الأسلحة التي ستدرب عليها فنصل في عام ١٩٥٥ الى جيش تعداده مائة الف

ولكي اعطي فكرة عن قوة تسلح الفرقة في الميدان الحربي (War-Materials) نضرب مثلاً بالقوات الفرنسية التي دخلت الحرب عام ١٩١٤ ولم تنل النصر وما آلت اليه (من ناحية التسلح) في عام ١٩١٨ لما نالت النصر الحاسم (نقلاً عن مجلة اسلحة الجيش البريطاني عدد مايو ١٩٢٧) ونحن لا نرى ما يدعونا الى مقارنته بتسلحنا الحالي فهو مدون في البيانات السرية

ومن هذه المقابلة سنرى أن الميدان الحربي والتسلح هو الفوز او الفشل كما ان كفاءة الجيش تقاس بقوة النار وكميتها الجهنمية (وفرة الذخيرة وجودتها) لا بعدد الجند والضباط

عند نشوب الحرب في سنة ١٩١٤

القوات الفرنسية	مدافع آلية خفيفة	مدافع رشاشة	دبابات	٧٥ مليمتر	مدافع ثقيلة	طائرات
٢٥٠٠٠٠٠	—	٢٠٠	—	٣٩٠٠	٣٠٠	٢٠٠

وفي أوائل عام ١٩١٨ صار التسلح كالآتي

٣٨٠٠٠٠٠	٤٧٠٠٠	١٨٠٠٠	٢٥٠٠	٥٦٠٠	٥٢٠٠	٣٢٠٠

من هذا البيان نرى أن الزيادة اشتملت على التسليح الثقيل والمتوسط والأسلحة الصغيرة كما أضيفت الدبابات الى وسائل الهجوم. هذا فضلاً عن تكدس الذخيرة والمعدات الحربية في أغازن والجيش المستعد تمام الاستعداد يجب أن يطبق الى ما يشمله

أولاً — من عقول ذكية تدير آلة الحرب وتتركز في قيادة هيئة أركان الحرب. ثانياً — معاهد للدراسات والابحاث المتصلة بالعتاد الحربي والعمل على تقدمها علميًّا وصناعيًّا . ثالثاً — مصانع وافية لصناعات الحرب المتنوعة. رابعاً — تدريب الوحدات على استخدام أنواع العتاد الحربي بتفوق في جميع أحوال القتال وكذلك تمرين الاحتياطي على استعمال جميع انواع الأسلحة بتفوق

وقد اقترحنا تصيم الخدمة العسكرية الاجبارية مع تخفيض مدتها . وعلى ذلك سيكون من السهل انشاء احتياطي عام للجيش يبلغ عدده حوالي المليون وهؤلاء يدعون كل عام لشهرين مدة شهرين على ان يوزعوا على الاسلحة المختلفة فلا تقتصر أعمال الاحتياطي على أعمال المشاة

وتنظيم قوات الاحتياطي يجب أن يقوم به ضباط من الجيش العامل من رتبة صاغ فما فوق أما بقية الرتب فيملؤها الضباط من كادر الاحتياطي نفسه والذين سينتهون من طلبة الجامعة (تدريب فرق الضباط) وبذلك يزداد عدد المواطنين الذين يتمون هذه الخدمة ويكونون على استعداد للدفاع

ولا يمكن ان يوافق احد على أن يقوم بتدريب الاحتياطي ضباطٌ احيلوا الى المعاش منذ عشرات السنين . ويمكن أن يعد الاحتياطي بما يلزمهُ من الضباط العظام الموجودين حالاً في الجيش العامل . وفيما يلي اقسام وهيئات مساعدة للاحتياطي العام (فضلاً عن القوات المرابطة — احتياطي مساعد — احتياطي للطوارىء (من الفنيين وأصحاب المواهب الخاصة بين ٣٩ و٥٥ سنة) — قوات متطوعة من الطلبة للأعمال الخفيفة (المراسلات والتليفونات — بلكات للدفاع المدني) أعمار رجالها بين ٣٦ و ٦٠ سنة — قوات المرابطين لمساعدة احتياطي قوة الطيران الملكي — احتياطي آخر متطوع — احتياطي مساعد قوات أسراب المناطيد — الحرس المدني الجوي — احتياطي الخدمات الطبية (نساء ورجال) — قوات المراقبين ضد الغارات الجوية — قوات المطافىء وأخرى مساعدة — قوات الاسعاف — قوات البوليس . ومعنى هذا تنظم

أفراد الدولة رجالاً وشباناً وفتياناً وفتيات وتدريبهم على أعمال الحرب في قوات منظمة

﴿ ٤ — القوات المرابطة ﴾ يجب أن لا نخدع أنفسنا فمواردنا الحالية ضئيلة وجمهورنا فقير النفس وإلى أن نصل الى درجة ما من الرضا في موارد ثروتنا وفي درجة الرقي النفساني علينا أن نقنع بوسيلة تحقق بعض أغراضنا العسكرية

وفي إنشاء القوات المرابطة ما يحقق لنا أمل تكوين قوات مدربة على الأعمال العسكرية الاولية والنظام . فنستخدمها في حراسة المرافق الحيوية والثكنات والمخازن والمستشفيات والمطارات والقناطر والسكك الحديدية . . . الخ وغيرها من الأعمال المساعدة للجيش العامل في حظيرة البلاد لا خارجها وتقوم على أساس تدريب الذكور بين سن ال ١٩ وال ٢٤ الذين يزيدون عن حاجة الجيش العامل

ونظام القوات المرابطة اذا عني بتدريبها تدريباً فنيًّا على أيدي مدربين منتخبين من الجيش قوة مساعدة للقوات الاحتياطية للجيش ومن السهل الاستفادة بها عند الحاجة فاذا أمكن تدريب ٢٤٠٠٠٠ من المرابطين سنويًّا استفدنا من هذا النظام مزايا لا عد لها من النواحي العسكرية والصحية والاجتماعية . ونكون قد خطونا به خطوة نحو المساواة في الخدمة العسكرية وتغيير الحالة المعنوية تغييراً أساسيًّا . ومن طريق القوات المرابطة نستفيد فائدتين

الأولى — معاونة الجيش العامل في حالة الحرب بعدد كبير من الجنود الذين سيقومون بأعمال عسكرية لا غنى عنها في الدفاع الوطني

والثانية — في أيام السلم أداة للاصلاح الاجتماعي ولتقويم الأبدان والنفوس واستخدام الأيدي للانشاء والتعمير . ونرى أنه يجب أن لا تقل مدة تدريب الجندي المرابط عن ستة أشهر وهي أقل مدة للتدريب العسكري التام فضلاً عن تدريب بعض المنتخبين منهم على قيادة السيارات والموتوسيكلات وأعمال التليفون والتظهير

﴿ ٥ — الأسلحة والذخيرة ﴾ ان الاتفاق على وحدة الاسلحة بين الجيشين البريطاني والمصري لا يمنع مصر من صنع الذخيرة في مصانع تنشئها داخل البلاد . لذلك نرى أن لا تقوتنا العناية بانشاء صناعة الاسلحة والذخيرة بأنواعها قبل التفكير في زيادة الجيش . فاليد العاملة والرأس المدبرة والمال اللازم موفورة لصناعة الذخيرة[1] وان كنا نرى ايفاد مائة من الصناع المتعلمين للتمرين والعمل في مصانع الأسلحة الأجنبية والبدء في العمل بموجب مشورة خبراء بريطانيين يساعدهم لفيف من الضباط والمهندسين

أن المواد الكيميائية وأخصها الحمض الكبريتيك والحمض النتريك يمكن توفيرها في البلاد

(١) اشترت وزارة الدفاع الوطني خلال العامين الاخيرين ما يعادل انشاء مصنعين مظبين

باستخراجها من النترات والكبريت الخام بعد استيرادهما من الخارج لامداد جميع الصناعات وخصوصاً صناعة الذخائر. كذلك استخراج مادة اليود من املاح المياه المصرية بعد غسل القناطير وهي غنية بها. وقد تم تنفيذ مشروع توليد الكهرباء من مسقط المياه بخزان اسوان حصلنا على هذا الخمس من النترات المستخرجة من نيتروجين الهواء والكهرباء

وأما حمض الكبريتيك فيمكننا استخراجه من المعادن الموجودة في المناجم المصرية بشكل (كبريتورات). فاذا تعذر علينا الحصول عليها بهذه الطريقة استخرجنا هذا الحمض من الكبريت الخام الذي يسهل علينا استيراده من اليونان او ايطاليا[1] هذا مع العلم بأن في كفر الزيات مصنعاً له

والقطن هو اهم مواد المفرقعات وهو بخلطه مع الحمض النتريك يولد نترات القطن (النتروسللوز) والقطن موجود طبعاً وسنستفيد المصانع من آلاف القناطير السكرتو وكذلك من الضروري انشاء مصنع على الأقل للاسلحة الصغيرة ونعلم انه سيكبدنا مالاً وفيراً في البداية لكنه سيعود علينا بأعظم الفوائد وأهمها فسح مجال العمل لعمال مصريين وسد حاجة مصر والبلدان الحليفة المجاورة الى الاسلحة والذخيرة

(٦ — التعليم العسكري) الغرض من التعليم العسكري رفع مستوى ضباطه وضباط صفه وجنوده ثقافيًا وعسكريًا وهذا لا يتم الا بترقية المعاهد العسكرية وما يدرس فيها بواسطة أكفأ العقليات الموجودة في الجيش

لذلك يجب توحيد التعليم في الجيش بجعله تحت اشراف ادارة للتعليم العسكري بريًا وبحريًا وجويًا تمثل فيها عناصر الجيش المختلفة وتكون فيها اللجان لوضع البرامج ودرسها اولاً بأول

والتعليم العسكري — يتناول تعليم الضباط — تعليم ضباط الصف — تعليم الجنود

تقوم الكلية الحربية الملكية بتعليم وتدريب الطلاب الضباط الذين يتخرجون للجيش ولكنها لا تقوم بتربيتهم تربية عسكرية. فهي تمكنهم كثيرة بمعنى فيها بصحة الطلبة وتعليمهم مبادىء النظام والعلوم العسكرية لكنها لم تحقق كل ما ينتظر منها في غرس الفضائل العسكرية. ويجب ان يكون همها الأول تربية النفس على الفضائل العسكرية وهذه يجب غرسها ولست أبالغ اذا قلت اني أرى تخصيص السنة الاشهر الأولى لغرس هذه المبادىء على ان تلقى محاضرات عامة يتولاها اخصائيون في جميع مني الدراسة. هذه التربية العسكرية هي التي تكوّن الجندي وليست العلوم. وحدها فهذه يمكن تلقينها بواسطة الكتب بخلاف الأخرى فهي « تربية »

والعلوم العسكرية الموضوعة في البرنامج الحالي لا وجه لا تقادها على شرط ان يعلمها ضباط أكفاء يفهمون انهم مسئولون عن نتيجة تعليمهم في الجيش. لذلك يحتاج هذا التشديد الى ان

(١) الدكتور جبرائيل بحري بك — من حديث له مع مندوب مجلة العصور

لا تقضي مدة الدراسة أقل من ثلاث سنوات . ليس كل ضابط يصلح لأن يكون مدرساً ، ويجب ان يمضي الضابط الذي يقع عليه الاختيار حوالي ستة أشهر في معهد التربية العالي ، يستمع محاضرات في علم النفس والتربية .. الخ وذلك في اثناء قيامه بالتدريس او يدرب الاخصائيون في التربية لالقاء محاضرات على الضباط المدرسين

الكتابة والمناقشة والبحث — هذه الثلاثة يجب ان يتدرب عليها الطالب في اثناء التعليم فاذا تخرج عرف كيف يكتب ويناقش ويعلم ويبحث ويطلع

التوسع في برنامج الجغرافية العسكرية عمليًا وبالمشاهدة بواسطة الرحلات والمعسكرات الصيفية وبالسينما هذه يجب ان تكون أهم وسائل التعليم في الكلية الحربية

ننتقل الى الخطوة التالية وهي تعليم الضباط الممتازين ذوي الشخصية الجيدة في كلية أركان الحرب. والمرشحون لها تطبق عليهم شروط كثيرة يجب مراعاتها ويستحسن ان يكونوا ممن خدموا على الأقل عشر سنوات وتؤهلهم عقليتهم للاضطلاع بمهمة (ضابط عالم محترم) ويجب ان لا تقل مدة الدراسة عن عامين ويشترط ان يقدم كل خريج رسالة هامة في اي موضوع عسكري تناقش فيها لجنة عسكرية فنية

مدارس الضباط العظام وهذه تهيء الضابط من رتبة البكباشي لما فوق للاضطلاع بقيادة الوحدات الكبرى ومدتها ستة أشهر يكون المرشحون لها ممن يجيدون اللغة الانكليزية على الأقل ولا يرقى الى رتبة البكباشي الا من يمتاز في برنامج هذه المدرسة

مدرسة فن القيادة (School of Leadership) — اليوزباشية القدماء مدتها ثلاثة أشهر تلقى فيها على الضباط محاضرات في التربية العسكرية والقيادة وعلم النفس وأثر ذلك في الجنود ومعاملتهم ودراسة مشاهير رجال الحرب في جميع العصور وعوامل نجاحهم . فمتصرف فن القيادة يكاد يكون معدوماً الآن في برنامج تربيتنا العسكرية

كلية الدفاع الوطني — لا يزيد عدد طلبتها عن عشرة مختارين بين اكفاء ضباط اركان الحرب الذين لا تقل رتبتهم عن قائم مقام ويسمح لاثنين يرشحهم رئيس هيئة أركان الحرب من الضباط الممتازين بالاندماج في هذه الكلية مع اثنين من كبار الموظفين الاخصائيين في شؤون سياسة الدولة العليا واقتصادياتها ممن يرشحون لتقلد مناصب هامة في الحكومة

وفي هذه الكلية تدرس المسائل المتعلقة « بالاستراتيجي» وبادارة الحرب وتسيير دفتها سياسيًا وماليًا واقتصاديًا ونفسيًا وباختصار بكل ما له ارتباط بالدفاع عن الدولة من تعليم وتربية وتموين وتجارة وصناعة حربية ومدنية وثروة وتوجيه الامة .. الخ

تأتي بعد ذلك المدارس الفنية العالية والمتوسطة لأسلحة الطيران والصيانة والهندسة والهندسة

العسكرية الاسعافية الصغيرة والاشارة والسواري الخ. وهذه مسؤولة أمام قوادها لأنهم سيمدونها بالرجال المدربين للحرب وموطن انتقادها يدور حول كفاءة مدرسيها ودقة نظامها

نتقل الى مدارس ضباط الصف وهذه تخرج السلسلة الفقرية للجيش، وأرى أن لا يلتحق بهذه المدرسة سوى الحائزين على شهادة الكفاءة او الدبلومات المتوسطة بعد خدمتهم في الجيش علماً على الاقل فلا يمضون مدة دراستهم في المدرسة في الطوابير والتمرينات الابتدائية كما هو الحال الآن بل يوجهون لدراسة العلوم والمواد العسكرية اثناء العام الدراسي على ان لا تزيد مدة التمرينات اليومية على ساعتين وأرى العناية بتربيتهم النفسية . وهذا اليوم الذي نرى فيه طبقة من ضباط الصف جديرين بالاحترام كما نرى ضباط الصف الأوربيين

﴿ مدرسة الكتّاب العسكريين ﴾ من حسن الرأي ان تسمى الى «عسكرة» الموظفين المدنيين بوزارة الدفاع الوطني وذلك بتخريجهم من مدرسة الكتاب العسكريين وأرى ان مدة الدراسة فيها قصيرة وبرنامج دروسها ضعيف . فالواجب اعادة النظر فيه وهذا لو أنشىء بالمدرسة فرع لحملة دبلوم التجارة المتوسطة يمنحون رتب ضولات بعد ترقيتهم للقيام بالأعمال الفنية والحسابية في ادارة الرئاسات وأقسام الوزارة

﴿ مدارس الأورط ﴾ لا فائدة مطلقاً منها في وضعها الحالي . ومن البحث وضع اقتراحات خاصة بها فمن الرأي ان يكون الجيش آلة لمحو الأمية فيتعلم جميع جنود الجيش بوسائل منتجة يعود بعدها الجندي الى قريته عالماً بالقراءة والكتابة ولا تحقق هذه الفكرة بدون الغاء بعض الأعمال العسكرية الشاقة التي لا فائدة منها والطلبات المتعبة التي يستطيع عدد قليل من الجنود القيام بها

﴿ مدارس لتعليم الحرف الصغيرة ﴾ في تركيا يتدرب الجنود اصحاب الحرف على ممارستها في أثناء الخدمة أو التدريب على أشغال مماثلة لها فلا يكونون عالة بعد انتهاء خدمتهم العسكرية على الدولة ويمكن الاخذ بهذه الفكرة ولو بمقياس صغير . أما المدارس الفنية الاخرى التي يشترك فيها الضباط والجنود فلا اقترح شيئاً جديداً لها وهذا لو عمل على توسيع نطاق الالعاب الرياضية في الجيش لتعم روح الجماعة والالفة بدلاً من روح الاثرة والكراهية

﴿ ٧ — تنظيم وزارة الدفاع الوطني ﴾ لم تصل وزارة الدفاع الوطني في تنظيم أعمالها الحالية الى المستوى المنشود وهذا راجع الى أسباب شتى (١)

﴿ ٨ — المواصلات الداخلية ﴾ من الضروري بذل جهود نشيطة لاشكال النقص في شبكة المواصلات بريًّا وبحريًّا. ونهر النيل من عوامل النقل الهامة وهذا لو انشىء اسطول

(١) تحاشى الكتاب ذكرها في المقتطف

نيلي صغير يستخدم لنقل وقت الحاجة . ويجب الاكثار من الطرق لانها خير من مضاعفة خطوط السكك الحديدية وهذه أهداف يمكن تدميرها وتعطيلها وأهم الطرق العسكرية التي نحتاج اليها هي التي تربط بين شاطىء البحر الاحمر ووادي النيل وفي الحدود الجنوبية بين سيوة وحلفا على أن تكون متينة التأسيس لتحمل النقل الحربي الحديث ومتسعة ومزودة بمحطات الوقود والمياه وقطع الغيار

﴿ ٩ — البعثة العسكرية البريطانية ﴾ القاعدتان اللتان قام عليهما التحالف المصري البريطاني خاصتان بالجيش هما

اولاً — جعل الجيش مصرياً بحتاً وتحريره من كل سيطرة بريطانية

ثانياً — الانتفاع ببعثة عسكرية بريطانية لتدريب والتسليح والمشورة عند الاقتضاء وليس هنالك ادنى شك في حاجتنا الى بعثة عسكرية لتنظيم شئون الجيش المصري وتعليمه وهذا التنظيم يستغرق مدة لا تقل عن عشر سنوات

فنقترح أن يكثر ضباط البعثة العسكرية الفنيون من المحاضرات الفنية تلقى على ضباط الاسلحة الملحقين بها وكتابة رسائل في الموضوعات العسكرية وتشجيع المناظرات. ونرى أن يدون كل ضابط من البعثة شهرياً ملاحظاته عن السلاح الملحق به

﴿ ١٠ — دراسة مصر والبلدان المجاورة ﴾ أرى ان تعنى ادارة العمليات الحربية ممثلة في القسم الجغرافي بدراسة جغرافية القطر المصري دراسة وافية . . . . الصحارى والشواطىء والجزر والبحيرات والوديان . . . . . الخ فاننا لم نصل بعد الى مستوى راق في معرفة بلادنا حق المعرفة من الناحية الحربية كالمستوى الذي وصل اليه غيرنا ، وتتحقق فوائد هذه الدراسات بإعداد الرحلات العلمية وإلقاء المحاضرات والبعثات القصيرة ويجب أن تتضمن هذه الرحلات البلاد المجاورة كشرق الأردن وفلسطين وسوريا والعراق وتركيا وأقاصي السودان وجزر البحرين الاحمر والابيض واليونان وايطاليا

﴿ ١١ — الانتفاع بالعناصر البدوية ﴾ ويجب ان لا يغيب عن بالنا الانتفاع الى أقصى حد ممكن بالعناصر البدوية في الصحاري المصرية ويأتي ذلك عن طريق ترقية احوالهم الاجتماعية والصحية فهم عون كبير لقوات الدفاع ولاسيما في حرب العصابات فيؤلف منهم سرايا شبه منظمة مدربة تدريباً جيداً على الاعمال العسكرية في الصحاري وبذلك نربح شيئين : — وات مسلحة تؤيدنا وتحسين احوال فئة من الشعب المصري تعيش في الواحات والبراري عيشة قرون الوسطى

﴿ ١٢ — الحصون والاستحكامات ﴾ لا أرى ان مصر في حاجة الى صرف الاموال

الطائلة في هذه الشروط التي من طراز الحصون المستديرة في أية منطقة على سبيل خط ماجينو مثلاً ولكن بدلاً من هذا نقط دفاعية ذات أعماق في المناطق العسكرية الجوية في الحدود الشرقية والغربية والجنوبية وكذلك الجنوبية الشرقية (البحر الاحمر) . وبناء الحصون تمليها السياسة الدفاعية ولكن أرى ان تكون سياستنا هجومية في تدريبها ومناوراتها وهذه تتطلب الاكثار من المدرعات الميكانيكية والدبابات الى اقصى حد . ان الحصون لا تحمي البلدان ولكن الرجال هم الذين يحمونها

﴿ ١٣ — الملحقون العسكريون ﴾ يجب من الآن تدريب فئة من الضباط الذين لا تقل خدمتهم العسكرية عن عشر سنوات على اعمال الملحقين العسكريين . وأرى ان يكونوا من ضباط اركان الحرب والمخابرات العسكرية ممن يجيدون اللغات الاجنبية ويجب أن لا تقل رتبة الملحق عن صاع لانه يمثل (عسكرية الأمة) ويجب ان يكون متصفاً بصفات عالية ومثقفاً وذا مؤهلات خاصة . وأرى البدء بنظام الملحقين العسكريين في البلدان المجاورة أولاً

﴿ ١٤ — اللغات الأجنبية ﴾ من الأسف ان تكون نسبة المتضلعين من اللغات الاجنبية (ما عدا الانكليزية) ضئيلة جداً بين ضباط الجيش فلا تتجاوز واحداً في المائة ويجب ان ترفع هذه النسبة الى ٥٪ بأفضل الوسائل كمنح المكافآت المالية وتشجيع الاجازات الطويلة في الخارج (عام مثلاً) ومنح علاوة خاصة للغة وهكذا . الجيش المصري في حاجة الى عدد من الضباط الذين يجيدون اللغات الألمانية والايطالية والفرنسية واليونانية والتركية وبعض اللهجات الافريقية ومن الغريب أن لا تنجح وسائل الاغراء التي استعملت لتعليم اللغات الأجنبية منذ عامين

﴿ ١٥ — قوات الدفاع عن السواحل ﴾ لا بدَّ من اعادة انشاء نقط مدفعية للسواحل بين السلوم ورفح . كان عدد الحصون الساحلية في عصر محمد علي بين الاسكندرية وبور سعيد خمسين وما زال يتضح باكثرها الى الوقت الحاضر . كذلك تقام نقط مدفعية ساحلية ضد الغارات على شاطىء البحر الاحمر من السويس الى بور سودان ويقام بعضها في الجزر الهامة التي في البحر الأحمر . ولقد انشئت نقط دفاعية متعددة في الاسكندرية ونقط مراقبة على الساحل . ومن حسن الحظ أن توجد منطقة ممتدة بين المنزلة والبرلس وادكو ورشيد وأبو قير ومربوط معززة بالعراقيل الطبيعية كالمستنقعات والبحيرات لا تسمح لرسو السفن الحربية

﴿ ١٦ — الجيش المصري في السودان ﴾ ان الاحوال الحاضرة جعلت للسودان منزلة عظيمة ولا بدَّ أن تكون القوات العسكرية المتاونة كافية لحمايته

﴿ ١٧ — المال ومراقبة المشتريات ﴾ رائدنا الأول عند توسيع جيشنا ان يتم هذا التوسع بأقل ما يمكن من النفقات نظراً للظروف التي نعيش فيها

وان كل زيادة في الرجال لا يستلزم ورود الأسلحة والعتاد من أحدث طراز لا قيمة لها ولا تنتج الا انهاك الميزانية دون ان تستفيد منها البلاد فائدة ما

نصت المعاهدة البريطانية المصرية على وجوب توحيد الأسلحة والنظم العسكرية بين الجيشين ولكن ذلك لا يعني الكرم والاسراف فيما نريد شراءه . كانت مشتريات الجيش المصري قبل عام ١٩٣٧ من الأسلحة والمهمات محدودة وفي نطاق ضيق جداً ولكنها ازدادت زيادة كبيرة في عهد الجيش الجديد فارتفعت الاعتمادات المخصصة لها من بضعة آلاف الى الملايين

ولمواجهة هذا الموقف الجديد يجب ان نفرض مراقبة دقيقة على مشترياتنا وان نعتمد على أنفسنا في ذلك واضعين امامنا هذا المبدأ الاقتصادي . نشتري أفضل المصنوعات وأرخصها

(٨ ١ — ميزانية الدفاع الوطني) ان انفاق ملايين الجنيهات على الدفاع الوطني لا يعد خسارة من الوجهة الاقتصادية على ان يتم هذا الصرف بمعرفة ووطنية . ان الجانب الأكبر من هذه النفقات سيصرف في مصر ويروج اسواقها وينعش صناعتها وتجارتها فهناك الوف الشبان سيعملون في اسلحة الجيش كجنود وضباط ومهندسين وأطباء وعمال . وهناك المصالح المصرية للغزل و نسج والمتاجر تمد الجيوش بحاجتها . وهناك الروح العسكرية — روح الطاعة والنظام — تسود ابناء الأمة وتساعد على تقويم الأخلاق ولكن يجب ان لا يساعد الجيش على التبذير

بلغ مجموع اعتمادات الدفاع الوطني لعام ١٩٤٠ — ١٩٤١ — ٦٫٦١٤٫٨٠٠ جنيه يضاف اليها ١٩٧٫٧٨٤ جنيهاً كمصاريف أخرى تقوم بها وزارات اخرى على نفقة الدفاع الوطني وأول ما يصادفنا هو الباب الأول الخاص بالماهيات والاجور والمرتبات ويبلغ ١٫٤٦٧٫٨٨٠ جنيهاً . وأرى انه من الممكن توفير مبلغ جسيم اذا الغيت معظم علاوات الضباط[1] فنقصر على عدد محدود من الضباط ويخفض بدل المراسلة والسايس ويقتصد في عدد الضباط النظام في الوحدات وفي المصالح وعلى الأخص في رتب (القائم مقام والأميرالاي) ويجب ان يكون هناك تناسب بين الوظيفة والرتبة التي يتقلدها شاغل الوظيفة كقائد بلك النقل مثلاً وقائد بلك الأعمال الطبية الميداني وما أشبه فهو في الأول صاغ وفي الثاني قائم مقام . لماذا لا يكون بيوزباشي وصاغ

فاذا انتقلنا الى المباني العسكرية تساءلنا هل لنا سياسة مرسومة للمباني العسكرية ؟ الجندي المصري لا يحتاج الى مبانٍ كالتي يحتاج اليها الجندي الأوربي لانهُ لا يعيش في مثلها قبل تجنيده ولا يعيش فيما يشابهها بعد انتهاء خدمته ، ولقد بنيت بمئات الآلاف من الجنيهات مبانٍ فخمة من ثكنات ومستشفيات ومخازن ، في مناطق معينة كان الأجدر ان تشيد في داخلية البلاد . لست أعارض في بناء مبانٍ ضخمة للمصانع والورش والمدارس والمخازن . كل هذا نحتاج اليه ، لكني أعارض في بناء ثكنات جديدة ما دام من المنتظر ان تخلي القوات البريطانية ثكناتها للجيش

(١) العلاوات الاضافية في الجيش المصري تكلف الخزينة العامة ١٢٤٠٠٠ جنيه في السنة

المصري وفي السنوات المقبلة يمكن التعسكر خارج المدن والمعروف ان الجيوش لا تعيش داخل المدن بل تقيم في معاقل الحدود والصحاري تتدرب

﴿ ١٩ — العمل في الورش العسكرية ﴾ تكاليف العمل في جميع الورش العسكرية باهظة اذا قيست بالاثمان التي تصنع بها في الورش المحلية فان الدولاب او الكرسي او السلاحليك الذي يصنع في سلاح المهمات يُعَدُّ ثمناً من مثلها المصنوع محليًّا . وتصليح الندفية والسيارة أو مدفع المكينة في سلاح الصيانة يكلف الحكومة مبلغاً مرتفعاً . ومرجع هذا الاسراف الى فساد الطرق التي تتبع في المشتريات وخزنها واستهلاكها وانعدام مراقبة الانتاج اليومي للعمل واليمان وهذا يحتاج الى صناع مهرة أكفاء يفهمون الواجب الوطني ويقدرون معنى الاشراف . كذلك ارتفاع الاجور اليومية التي يتناولها الصناع أمر واضح فضلاً عن انحطاط المستوى الصناعي للأغلبية . وحبذا لو أرسلت تلك الاسلحة مقدمي صناعها الى المصانع الأجنبية المحلية للوقوف على طرق العمل المنتج فيقتصد في أبواب المصروفات العسكرية . ويمكن الاقتصاد وتعديل الملابس العسكرية ومهماتها فيوفر الكثير من الاعتمادات

﴿ ٢٠ — الاسطول ﴾ تكلم عن حاجتنا الى الاسطول لاتصاله بآلة الدفاع الوطني . ان مصر لا يحتمل أن تكون قوة بحرية كبيرة ولكنها تحتاج الى عدد من لافطات الالغام وبعض المدمرات وطوافات لمراقبة السفن بين الموانىء المصرية وما بين مناجم الزيت بالبحر الاحمر والسويس لتأمينها من الغواصات[1] . ونرى ان يسبق انشاء أية قطعة بحرية لمصر ان توفد الحكومة مائة شاب لا تتجاوز اعمارهم ١٥ سنة ممن درسوا الصناعة الميكانيكية الى انجلترا للتدرب على الاعمال البحرية في السفن مدة ست سنوات على الأقل وتوفد حوالي الثلاثين طالباً بحريًّا للغرض نفسه ليساهموا مع غيرهم وليحضروا بأنفسهم السفن التي توصي عليها مصر اسوةً بما تفعله سيام وإيران وتركيا

﴿ الخلاصة ﴾ ذكرنا اهم الاعتبارات التي تبنى عليها آلة الدفاع المصري واضطرنا ضيق المقام الى اختصار التفصيلات المطولة ومع ذلك يجب أن لا يغيب عن بالنا ان الحرب الحديثة قد أملت علينا دروساً كثيرة سوف نرى أثرها بعد قليل . هذه الدروس سوف لا تتناول مبادىء الحرب كلها ولكنها ستتناول فلسفة الحرب ووسائلها بانقلاب عظيم فالعلم الحديث والمبادىء النفسية والأحوال الاقتصادية أدخلت عليها انقلاباً عامًّا سيشعر به كبار العسكريين . والذي وصل اليه الجيش المصري منذ عام ١٩٣٧ الى اليوم لا يعدو توسعاً في الاساليب التي كانت معروفة حتى عام ١٩١٨ فلا بدَّ من ان يصيبه التحول من الألف الى الياء برًّا وبحراً وهواء . ونحن لم نتعود بعد الطفرة ولكن لا بد منها اليوم فلا نكون محافظين الى حدود الجمود في آرائنا وأساليبنا ورجالنا ....

(١) راجع مقال « هل نحتاج مصر الى قوة بحرية ؟ » لليوزباشي البحري عز الدين عاطف بالمجلد الخامس (المجلد الاول) من مجلة الجيش المصري

أقسام الجيش

فيلق	Army corps
فرقة	Division
لواء	Brigade
آلاي	Regiment
أورطة	Battalion
بطارية	Battery
سرية	Company
فصيلة	Platoon
جماعة	Section

رتب الجيش

فريق	Lieut. general
لواء	Major—general
أميرالاي	Brigadier
قائمقام	Colonel
بكباشي	Lieut. colonel
صاغ	Major
يوزباشي	Captain
ملازم أول	Lieutenant
ملازم ثاني	Second Lieutenant

مدارس الجيش

١ — كلية أركان الحرب الملكية
٢ — الكلية الحربية الملكية
٣ — مدرسة الضباط العظام
٤ — مدرسة الهندسة العسكرية
٥ — مدرسة الصناعات الميكانيكية
٦ — مدارس الاسلحة الصغيرة
٧ — مدارس التربية البدنية
٨ — مدرسة الاشارة
٩ — مدرسة علم الصحة
١٠ — مدرسة الكتّاب العسكريين
١١ — مدرسة ضباط الصف
١٢ — مدرسة الموسيقات
١٣ — مدارس الوحدات

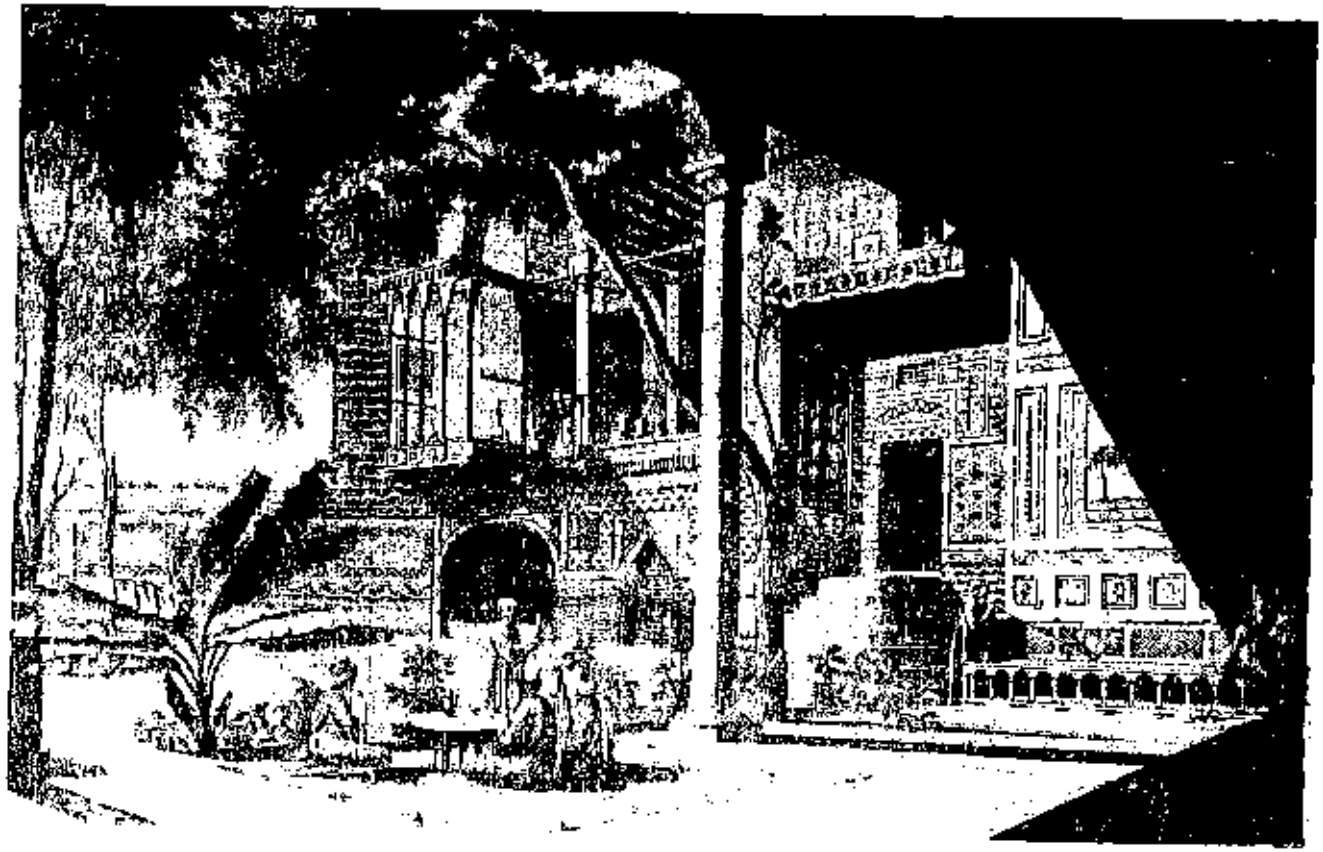

القاعة الرئيسية المطلة على فناء قصر قايتباي بك من وكالة الباليك

[راجع مقال الدار الاسلامية في مصر صفحة ٥٠٠]